

# في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

٥١

الجزء السادس

دار العـربـيـة  
للطباعة والنشر والتوزيع  
بيروت - لبنان

ص ٠ ب ٦٠٨٩





# في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء السادس

الطبعة الرابعة

دار العكرية  
للطباعة والنشر والتوزيع  
بيروت - لبنان  
ص ٠ ب ٦٠٨٩

اهداءات ٢٠٠١

دكتور / القطب محمد طه

القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بقية سورة النساء وأول سورة المائدة



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا الجزء السادس مؤلف من شطرين : الشطر الأول تنمة سورة النساء ؛ التي بدأت في أواخر الجزء الرابع ، واستغرقت الجزء الخامس كله ؛ وبقيتها في هذا الجزء . والشطر الثاني - وهو معظم هذا الجزء - من سورة المائدة .  
وستنقصر الحديث - في هذا الموضع - عن الشطر الأول من هذا الجزء ؛ ونؤجل الحديث عن شطره الثاني إلى موضعه ؛ لنستعرض « شخصية » سورة المائدة وجوها وموضوعاتها على المنهج الذي اتبعناه في هذا الكتاب . . . بعون من الله .



تمضي بقية سورة النساء على منهج السورة الذي أوضحناه في التقديم لها في الجزء الرابع<sup>(١)</sup> ، والذي يحسن أن نشير إليه ملخصاً هنا في أخصر صورة :  
إن هذه السورة تعالج بناء التصور الإسلامي الصحيح ، في ضمير الجماعة المسلمة التي التقطها الإسلام من سفح الجاهلية ، ليرقى بها صعوداً في الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة ، وتحلّص هذا الضمير من رواسب الجاهلية ، التي تغبش الصورة ! أو - كما قلنا هناك - نحو الملامح الجاهلية وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة . . .

ثم تعالج - على ضوء التصور الجديد - ضمير الأمة المسلمة ، وخلقها ، وتقاليدها الاجتماعية ، وتخلصه من رواسب الجاهلية في الخلق والتقاليد ؛ كما خلصته من رواسب الجاهلية في التصور والاعتقاد . وتنظم حياتها الاجتماعية ، وروابطها العائلية ، على أساس المنهج الرباني القويم .

وهي - في أثناء هذا وذلك - تواجه العقائد المنحرفة ، وتواجه أصحاب هذه العقائد ، سواء منهم المشركون أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وتصحح هذه العقائد وتقرر وجه الحق في الانحرافات التي تفسدها .

---

(١) ص ١٨٩ - ص ٢١٦ من الجزء الرابع من الطبعة الرابعة المنقحة والمفهرسة .



## سورة النساء

ثم تخوض الجماعة المسلمة معركة حامية مع أهل الكتابات بصفة عامة ، واليهود من أهل الكتاب بصفة خاصة . فهم الذين وقفوا للدعوة الجديدة منذ أن وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومنذ أن تبين لليهود خطر هذه الدعوة الجديدة على كياناتهم ووضعهم الممتاز في يثرب ، ودعاويهم في التفرد بالقرب من الله ، وأنهم شعب الله المختار ، ومن ثم حربهم للدعوة الجديدة بكل سلاح ! والسورة تكشف طبيعتهم ووسائلهم ، وتاريخهم مع أنبيائهم أنفسهم ، مما يصور موقفهم من دعوة الحق أياً كان ممثلاً ، ولو كان هو نبيهم وقائدهم ومنقذهم !

كذلك تبين السورة للأمة المسلمة - بعد هذا كله - جسامه التبعة الملقاة على عاتقها ، وضخامة الدور المقدر لها ، وحكمة إعدادها وتطهيرها وتصفية رواسب الجاهلية في ضميرها وفي حياتها ، وضرورة أخذها هذا الأمر بما يستحق من يقظة وقوة ، وأداء للتكاليف التي يتطلبها هذا الدور الضخم ، بما في ذلك من جهاد في عالم النفس وجهاد في عالم الواقع ، وتوضيحات ثقال ..

وقد سارت السورة في طريقها هذا ، في كل حلقاتها الماضية ، وبقيتها في هذا الجزء ، بقية من هذا المنهج ، على نفس الطريق ..



يبدأ هذا الجزء بطرف من تطهير النفس وتطهير المجتمع ، وإشاعة الثقة في جو الجماعة المسلمة ، واستبعاد حالة السوء فيها - مع الانتصاف من الظلم - والحض على العفو والسماحة ، وتقرير أن الله لا يحب الجهر بالسوء - إلا من مظلوم ينتصف بظلمه - ومع هذا فإنه سبحانه يحب العفو عن السوء ، وهو « عفو » « قدير » .

ثم بيان لطبيعة التصور الإسلامي ، الذي يجعل دين الله واحداً ، ويجعل رسل الله موكباً يحمل هذا الدين الواحد ؛ ويجعل التفرقة بين الرسل ، والتفرقة بين ما جاءوا به كفراً صراحاً .. هذا البيان يحییء بصدد التنديد باليهود - من أهل الكتاب - الذين ينكرون النبوة والأنبياء - بعد أنبيائهم - تعصباً وحقدًا .

ومن هنا تبدأ جولة مع اليهود تكشف عن تعنتهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم : موسى - عليه السلام - مما يكشف عن طبيعة السوء فيهم ، وموقفهم تجاه الحق ودعوته أياً كان الداعي إلى هذا الحق ؛ ولو كان هو نبيهم الأكبر موسى . وكذلك موقفهم من عيسى عليه السلام وأمه وإطلاق السوء فيها - مما يكرهه الله ولا يحبه - فيبدو عندئذ موقفهم



## الجزء السادس

من الرسول ﷺ ومن دعوة الحق الأخيرة مفهوماً ومكشوفاً ! وبمناسبة دعاوى اليهود على المسيح عليه السلام ، وتبجحهم بقتله ! يقرر القرآن حقيقة الأمر ، وطبيعة هذا الزعم . ويذكر كيف عاقب الله اليهود على ظلمهم وصددهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل .. بحرمانهم من بعض الطيبات التي أحلت لهم في الدنيا ؟ وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة . مستثنياً الراسخين في العلم والمؤمنين الذين عرفوا الحق وآمنوا به واتبعوه ..

ويرد على تكذيب اليهود برسالة النبي ﷺ بتقرير أنها أمر طبيعي مألوف لا يثير عجباً ولا غرابة ولا استنكاراً . إذ هو جاء على سنة الله في إرسال الرسل للبشر ؛ من لدن نوح عليه السلام ؛ ثم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود .. وغيرهم ممن يقر اليهود برسالة بعضهم وينكرون رسالة بعضهم تعبتاً وحقداً . وهو الأمر الطبيعي أن يرسل الله لعباده رسلاً مبشرين ومنذرين .. « لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .. فهو أمر ضروري ، فوق أنه طبيعي .. وفي مقابل إنكار اليهود يقرر شهادة الله - سبحانه - وشهادة الملائكة . وكفى بالله شهيداً . ويتوعد الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله .. الذين كفروا وظلموا .. يتوعدهم ألا يغفر الله لهم وألا يهديهم سبيلاً إلا سبيل جهنم خالدين فيها أبداً .. ويعقب على هذا بنداء للناس كافة ، وإعلانهم أن هذا الرسول قد جاءهم بالحق من ربهم ، ودعوتهم إلى الإيمان ، وإلا فإن الله ما في السماوات والأرض . وقد شهد بصحة هذه الرسالة ودعاهم إلى الإيمان بها ، فهم إذن وما يختارون لأنفسهم بإزاء دعوة من له ما في السماوات والأرض . وهكذا تنتهي هذه الجولة مع اليهود من أهل الكتاب . وقد كشفت عن طبيعتهم ووسائلهم وعادة السوء فيهم من قديم ، وردت كيدهم بهذا الكشف ، وقررت كلمة الحق في رسالة محمد ﷺ وأقامت الحجة على الناس بشهادة الله سبحانه .. فوق ما قررت من جسامه تبعة الرسل ، وأصحاب دعوة الحق ، فهي إقامة الحجة على الناس من جانب ، ومن الجانب الآخر أن أمر الناس كلهم معلق بأعناق الرسل والمؤمنين برسالتهم ، لينجو الناس من عقاب الله ؛ أو يستحقوه عن بينة .. وهي تبعة خطيرة جسيمة .



فإذا انتهت هذه الجولة مع اليهود ؛ وأنصف الله عيسى ابن مريم وأمه منهم ؛ وكذب دعاوى السوء اليهودية عن عيسى وعن مريم .. بدأت الجولة الثانية مع النصارى - أتباع



## سورة النساء

عيسى عليه السلام - لتصحيح غلوهم في أمر المسيح - عبد الله ونبيه - وكفهم عن هذا الغلو ، وتقرير الحق في شأنه : فهو عبد الله لا يستنكف أن يكون عبداً لله . وكذلك الملائكة - تصحيحاً لمزاعمهم عن روح القدس - ونفي التثليث ونفي الأبوة عن الله سبحانه وتعالى ..

وفي ثنايا هذا التصحيح يتقرر التصور الإسلامي الصحيح ، ويتمحض الأمر كله في أن يكون : ألوهية وعبودية .. ألوهية الله وحده ؛ وعبودية كل من عداه .. وهي القاعدة الكبرى في العقيدة الإسلامية ، والسمة البارزة ، والمقوم الأساسي .. ومن ثم يحىء التبشير للمؤمنين ، والإنذار للكافرين المستنكفين عن العبودية لله ؛ ويحيى إعلان عام للناس كالذي ختمت به الجولة الأولى مع اليهود ، بأنه قد جاء برهان للناس من زبهم ونور مبين ، فلا حجة ولا شبهة ولا معذرة للمتخلفين .



وتختم السورة بآية تحتوي بقية في أحكام المواريث في حالة الكلالة . وقد سبق في السورة حكم بعض الحالات . وهذه بقيتها .. وهي بقية من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الجديد الذي جاء الإسلام ليقم على أساسه حياة الجماعة المسلمة ؛ ويحولها - كما قلنا في أول السورة - إلى أمة ، لها طابع الأمة المتميزة ونظامها وخصائصها المستقلة . لتؤدي دورها الضخم في الحياة البشرية ؛ وفي المجتمع الإنساني . دور القيادة والوصاية والتقويم . وهكذا يبدو - من استعراض السورة كلها ، ثم استعراض هذا القطاع منها - أن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، يسير مع التهذيب الخلقي ، مع تصحيح العقيدة والتصور ، مع خوض المعركة مع الأعداء المتربصين بالجماعة المسلمة ، مع بيان ضخامة التبعة والدور الذي على هذه الجماعة أن تقوم به .. وأن القرآن - كتاب هذه الدعوة ودستور هذه الأمة - ينهض بهذا كله .. في صورة شاملة كاملة متوازنة دقيقة . صورة تجعل من الحتم على كل من يريد إعادة بناء هذه الأمة وأحياءها وبعثها ، لتنهض من جديد بتبعاتها ودورها ، أن يتخذ من هذا القرآن منهجاً لدعوته ، ومنهجاً لحركته ، ومنهجاً لكل خطوة في طريق الإحياء والبعث وإعادة البناء . والقرآن حاضر لأداء دوره الذي أداه أول مرة . وهو خطاب الله الباقي للنفس البشرية في كل أطوارها . لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .. كما يقول عنه أعرف الناس به ﷺ الذي جاهد به الكفار والمنافقين وأهل الكتاب المنحرفين ؛ وأقام به هذه الأمة المتفردة في تاريخ الناس أجمعين ..



« لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ - إِلَّا مَنْ ظَلِمَ - وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) . إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ ، أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » . (١٤٩)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . (١٥٢)

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ، فَآخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) . وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ، وَقُلْنَا لَهُمْ : ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُلْنَا لَهُمْ : لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) . فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَقَتَلْتُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ : قُلُوبُنَا غُلْفٌ - بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) - وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) . وَقَوْلِهِمْ : إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - رَسُولَ اللَّهِ - وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) . بَلْ رَفَعَهُ



اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨) . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩) . فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) . وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا - وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ - وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦١) . لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢) .

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (١٦٣) . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٤) . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) . لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ . أُنْزِلَ بِهِ عَلَيْنَا . وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦) . »

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً (١٦٧) . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) . إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٦٩) . »

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَآمِنُوا خَيْراً



لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا ، فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا (١٧٠) .

### اشاعة الثقة

لقد كان هذا القرآن ينشيء أمة جديدة . ينشئها من المجموعات المسلمة التي التقطها  
الإسلام من سفوح الجاهلية التي كانت تهيم فيها ؛ ليأخذ بيدها في المرتقى الصاعد ، إلى القمة  
السامقة ؛ وليسلمها - بعد أن تكل نشأتها - قيادة البشرية ؛ ويحدد لها دورها الضخم في  
هذه القيادة ..

ومن بين عوامل البناء تطهير ضمائر هذه الجماعة ؛ وتطهير جو المجتمع الذي تعيش فيه ؛  
ورفع المستوى الخلقي والنفسي الذي تستوي عليه .

وحينما بلغت تلك الجماعة هذا المستوى ؛ تفوقت في أخلاقها الفردية والاجتماعية ؛ بقدر  
تفوقها في تصورها الاعتقادي ؛ على سائر أهل الأرض .. وعندئذ صنع الله بها في الأرض  
ما قدر أن يصنعه ؛ وأقامها حارسة لدينه ومنهجه ؛ وقائدة للبشرية الضالة إلى النور  
والهدى ؛ وأمينه على قيادة البشرية وإرشادها ..

وحينما تفوقت في هذه الخصائص تفوقت على كل أهل الأرض ؛ فكانت قيادتها للبشرية  
أمرأً طبيعياً وفطرياً ؛ وقائماً على أسسه الصحيحة .. ومن هذا الوضع الممتاز تفوقت كذلك  
في العلم والحضارة والاقتصاد والسياسة . وكان هذا التفوق الأخير ثمرة للتفوق الأول في  
المستوى الاعتقادي والأخلاقي . وهذه هي سنة الله في الأفراد والجماعات .

وطرف من هذا التطهير للنفس والمجتمع يتمثل في هاتين الآيتين :  
« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول - إلا من ظلم - وكان الله سميعاً عليماً . إن تبدوا  
خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً » ..

إن المجتمع شديد الحساسية ، وفي حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية .  
ورب كلمة عابرة لا يحسب قائلها حساباً لما وراءها ؛ ورب شائعة عابرة لم يرد قائلها بها إلا  
فرداً من الناس .. ولكن هذه وتلك تترك في نفسية المجتمع وفي أخلاقه وفي تقاليده وفي  
جوه آثاراً مدمرة ؛ وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة .

والجهر بالسوء من القول - في أية صورة من صوره - سهل على اللسان ما لم يكن هناك



## سورة النساء

ما يزين لمن في نفوسهم استعداد كامن للسوء ، ولكنهم يتخرجون منه ، أن يفعلوه لأن السوء قد أصبح ديدن المجتمع الشائع فيه ، فلا تخرج إذن ولا تقية ، وهم ليسوا بأول من يفعل ! وكثيراً ما يذهب ببشاعة السوء بطول الألفة . فالإنسان يستقبح السوء أول مرة بشدة ؛ تخرج في الضمير وتقوى لله . وشيوع هذا السوء كثيراً ما يترك آثاراً عميقة في ضمير المجتمع .. كثيراً ما يدمر الثقة المتبادلة في هذا المجتمع فيخيل إلى الناس أن الشر قد صار غالباً . وكثيراً حتى إذا تكرر وقوعه أو تكرر ذكره ، خفت حدة استقباحه والاشمئزاز منه ؛ وسهل على النفوس أن تسمع - بل أن ترى - ولا تثور للتغيير على المنكر .

ذلك كله فوق ما يقع من الظلم على من يتهمون بالسوء ويشاع عنهم - وقد يكونون منه أبرياء - ولكن قالة السوء حين تنتشر ؛ وحين يصبح الجهر بها هيناً مألوفاً ، فإن البريء قد يتقول عليه مع المسيء ؛ ويختلط البر بالفاجر بلا تخرج من فرية أو اتهام ؛ ويسقط الحياء النفسي والاجتماعي الذي يمنع الألسنة من النطق بالقبيح ؛ والذي يعصم الكثيرين من الإقدام على السوء .

إن الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر اتهامات فردية - سباً وقذفاً - وينتهي انحلالاً اجتماعياً ؛ وفوضى أخلاقية ؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات ؛ وتنعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض ؛ وقد شاعت الاتهامات ؛ ولا كتها الألسنة بلا تخرج . لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء . وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم ؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم ؛ في حدود ما وقع عليه منه من الظلم !

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول - إلا من ظلم - .. »

ففي هذه الحالة يكون الوصف بالسوء - ويشمل ما تعبر عنه المصطلحات القانونية بالسب والقذف - انتصاراً من ظلم ، ودفعاً لعدوان ، ورداً لسوء بذاته قد وقع بالفعل على إنسان بذاته ؛ وتشهيراً بالظلم والظالم في المجتمع ؛ لينتصف المجتمع للمظلوم ؛ وليضرب على يد الظالم ؛ وليخشى الظالم عاقبة فعله ، فيتردد في تكراره .. والجهر بالسوء عندئذ يكون محدد المصدر - من الشخص الذي وقع عليه الظلم - محدد السبب - فهو الظلم المعين الذي يصفه المظلوم - موجهاً إلى شخص بذاته هو الذي وقع منه الظلم .. عندئذ يكون الخير الذي يتحقق بهذا الجهر مبرراً له ؛ ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير ..



## الجزء السادس

إن الإسلام يحمي سمعة الناس - ما لم يظلموا - فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية؛ وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظلمه ؛ وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء .

وهكذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل الذي لا يطبق معه الظلم ، وحرصه على الأخلاق الذي لا يطبق معه خدشاً للحياء النفسي والاجتماعي ..  
ويعقب السياق القرآني على ذلك البيان هذا التعقيب الموحى :  
« وكان الله سميعاً عليماً » ..

ليربط الأمر في النهاية بالله ، بعد ما ربطه في البداية بحب الله وكرهه : « لا يحب الله الجهر بالسوء ... » . ولينشر القلب البشري أن مرد تقدير النية والباعث ، وتقدير القول والاتهام ، لله السميع لما يقال ، العليم بما وراءه مما تتطوي عليه الصدور .  
ثم لا يقف السياق القرآني عند الحد السلي في النهي عن الجهر بالسوء ؛ إنما يوجه إلى الخير الإيجابي عامة ؛ ويوجه إلى العفو عن السوء ؛ ويلوح بصفة الله سبحانه في العفو وهو قادر على الأخذ ، ليتخلق المؤمنون بأخلاق الله سبحانه فيما يملكون وما يستطيعون :  
« إن تبدو أخيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً » ..

وهكذا يرتفع المنهج التربوي بالنفس المؤمنة والجماعة المسلمة درجة أخرى .. في أول درجة يحدثهم عن كراهة الله - سبحانه - للجهر بالسوء . ويرخص لمن وقع عليه الظلم أن ينتصف أو يطلب النصف ، بالجهر بالسوء فيمن ظلمه ، ومما وقع عليه من الظلم .. وفي الدرجة الثانية يرتفع بهم جميعاً إلى فعل الخير ؛ ويرتفع بالنفس التي ظلمت - وهي تملك أن تنتصف من الظلم بالجهر - أن تعفو وتصفح - عن مقدرة فلا عفو بغير مقدرة - فترتفع على الرغبة في الإنتصاف إلى الرغبة في السماحة ؛ وهي أرقع وأصفى ..  
عندئذ يشيع الخير في المجتمع المسلم إذا أبدوه . ويؤدي دوره في تربية النفوس وتزكيتها إذا أخفوه - فالخير طيب في السر طيب في العلن - وعندئذ يشيع العفو بين الناس ، فلا يكون للجهر بالسوء مجال . على أن يكون عفواً القادر الذي يصدر عن سماحة النفس لا عن مذلة العجز ؛ وعلى أن يكون تخلقاً بأخلاق الله ، الذي يقدر ويعفو :  
« فإن الله كان عفواً قديراً » ..

بعد ذلك يأخذ السياق في جولة مع « الذين أوتوا الكتاب » بصفة عامة ! ثم ينتقل منها إلى اليهود في شوط ، وإلى النصارى في شوط آخر .. واليهود يجهرون بالسوء - إفكا



## سورة النساء

وبهتانا - على مريم وعلى عيسى - ويأتي ذكر هذا الجهر في ثنايا الجولة؛ فترتبط هذه الجولة بذلك البيان الذي تضمنته الآيتان السابقتان في السياق .  
والجولة كلها طرف من المعركة التي خاضها القرآن مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة .  
والتي سلفت منها في هذه السورة وفي سورتي البقرة وآل عمران أطراف أخرى ..  
فنأخذ في استعراضها هنا كما وردت في السياق القرآني :

### وحدة الرسل

« إن الذين يكفرون بالله ورسوله ؛ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ؛ ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ؛ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسوله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ؛ وكان الله غفوراً رحيماً » .  
لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم ؛ وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد ؛ كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى - فضلاً عن تأليه - وينكرون رسالة محمد كذلك .

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ؛ ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله ؛ بدون تفريق بين الله ورسوله ؛ وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً .  
وبهذا الشمول كان الإسلام هو « الدين » الذي لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله ؛ ومقتضيات هذه الوجدانية .

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس .. وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدة الله في الحقيقة ؛ وسوء تصور لمقتضيات هذه الوجدانية . فدين الله للبشر ومنهجه للناس ، هو هو لا يتغير في أساسه كما أنه لا يتغير في مصدره .

لذلك عبر السياق هنا عن يريدون التفرقة بين الله ورسله ( بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل ) وعن يريدون التفرقة بين الرسل ( بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم ) عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم « الذين يكفرون بالله ورسله » ، وعد تفرقتهم بين الله ورسله ، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض ، كفراً بالله ورسله .

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ .. الإيمان بالله إيمان بوجدانيته - سبحانه - ووجدانيته



## الجزء السادس

تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه .  
ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده - لا من عند أنفسهم ولا في معزل  
عن إرارته ووحيه - ووحدة الموقف تجاههم جميعاً . ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة .  
إلا بالكفر المطلق ؛ وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ! وكان جزاؤهم  
عند الله أن أعد لهم العذاب المهين .. أجمعين ..

« أولئك هم الكافرون حقاً ، واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » ..

أما « المسلمون » فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً ؛  
بلا تفرقة . فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ؛ وكل الديانات السماوية عندهم  
حق - ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله ، وإن بقي فيها جانب لم  
يحرف ، إذ أن الدين وحدة - وهم يتصورون الأمر - كما هو في حقيقته - : إلهاً واحداً ،  
ارتضى للناس ديناً واحداً ؛ ووضع لحياتهم منهجاً واحداً ، وأرسل رسله إلى الناس بهذا  
الدين الواحد وهذا المنهج الواحد . وموكب الإيمان - في حسم - موصول ، يقوده نوح  
وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً -  
ونسبهم هم إلى هذا الموكب الموصول عريق ؛ وهم حملة هذه الأمانة الكبرى ، وهم ورثة هذا  
الخير الموصول على طول الطريق المبارك .. لا تفرقة ولا عزلة ولا انقصاص .. وإليهم وحدهم  
انتهى ميراث الدين الحق . وليس وراء ما عندهم إلا الباطل والضلال .

وهذا هو « الإسلام » الذي لا يقبل الله غيره من أحد . وهؤلاء هم « المسلمون » الذين  
يستحقون الأجر من الله على ما عملوا ، ويستحقون منه المغفرة والرحمة فيما قصرُوا فيه :  
« أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً » ..

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد في توحيد العقيدة في الله ورسله ، لأن هذا التوحيد  
هو الأساس اللائق بتصور المؤمن لإلهه - سبحانه - كما أنه هو الأساس اللائق بوجود منظم ،  
غير متروك للتعدد والتصادم . ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس في  
هذا الوجود أينما امتد بصره . ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً في موكب  
واحد ، يقف أمام صفوف الكفر ، وفي حزب واحد يقف أمام أحزاب الشيطان ...  
ولكن هذا الصف الواحد ليس هو صف أصحاب الاعتقادات المحرفة - ولو كان لها أصل  
سماوي - إنما هو صف أصحاب الإيمان الصحيح والعقيدة التي لم يدخلها انحراف ..  
ومن ثم كان « الإسلام » هو « الدين » . وكان « المسلمون » « خير أمة أخرجت

## سورة النساء

للناس « المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة » ، العاملون بهذه العقيدة . لا كل من ولد في بيت مسلم ، ولا كل من لأك لسانه كلمة الإسلام !

وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسوله ، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض ، منقطعين عن موكب الإيمان ، مفرقين للوحدة التي جمعها الله ، منكرين للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله .

### تعنت اليهود

وبعد تركيز تلك القاعدة الأساسية في التصور الإسلامي عن حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر ، فيما يتعلق بالرسول والرسالات . . يأخذ في استعراض بعض مواقف اليهود في هذا المجال ، وفي مجال الجهر بالسوء الذي بدىء به هذا الدرس ، مندداً بموقفهم من النبي ﷺ ورسالته ، وتعنتهم في طلب الآيات والأمارات منه ، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى - عليه السلام - ثم مع رسول الله من بعده عيسى - عليه السلام - وأمه مريم ، فإذا هم جبلة واحدة في أجيالهم المتتابعة . . والسياق يوحد بين الجيل الذي يواجه الرسول ﷺ ، والجيل الذي واجه عيسى عليه السلام . . والجيل الذي واجه موسى كذلك من قبل ، ليؤكد هذا المعنى ، ويكشف عن هذه الجبلة :

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء . . فقد سألوا موسى أكبر من ذلك » فقالوا : « أرنّا الله جهرة ! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ؛ فعفونا عن ذلك ، وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً ؛ وقلنا لهم : لا تعدوا في السبت ؛ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فجما تقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف - بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً - وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ! وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ؛ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه . ما لهم به من علم ، إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً - فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم



## الجزء السادس

الربا - وقد نهوا عنه - وأكلهم أموال الناس بالباطل ؛ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ..

لقد وقف اليهود في الجزيرة من الإسلام ونبى الإسلام ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف ، وكادوا له ذلك الكيد المبني المستمر العنيد ، الذي وصفه القرآن تفصيلاً ، واستعرضنا ألواناً منه في سورتي البقرة وآل عمران ، وفي هذه السورة كذلك من قبل - في الجزء الخامس - وهذا الذي تقصه الآيات هنا لون آخر ..

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء .. كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسماً يلمسونه بأيديهم .

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » :

ويتولى الله - سبحانه - الإجابة عن نبيه . ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة - في مواجهة اليهود - صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى - عليه السلام - الذي يزعمون أنهم يؤمنون به ؛ ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد ! إن هذه الجبلة ليست جديدة عليهم ؛ وليست طابع هذا الجيل وحده منهم ، إنما هي جبلتهم من قديم .

إنهم هم من عهد موسى - نبيهم وقائدهم ومنقذهم - إنهم هم هم غلظ حس فلا يدركون إلا المحسوسات .. وهم هم تعنتاً وإعناتاً فلا يسمعون إلا تحت القهر والضغط .. وهم هم كفراً وغدراً فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم - لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك - وهم هم قحة وافتراء ؛ فلا يعنيه أن يتثبتوا من قول ؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالنكر .. وهم هم طمعاً في عرض الدنيا ؛ وأكلاً لأموال الناس بالباطل ؛ وإعراضاً عن أمر الله وعما عنده من ثواب ..

إنها حملة تفضيحهم وتكشفهم ؛ وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها ، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودي للإسلام ونبى الإسلام في ذلك الأوان .. وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن ..

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » ...

فلا عليك من هذا التعنت ؛ ولا غرابة فيه ولا عجب منه :

« فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة » .

ولم تبلغ الآيات البينات التي أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن تلمس حسهم ؛

## سورة النساء

وتوقظ وجدانهم وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام ؛ فإذا هم يطلبون رؤية الله - سبحانه - عياناً ! وهو مطلب طابعه التبجح الذي لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان ؛ أو فيه استعداد للإيمان .

« فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » ..

ولكن الله - سبحانه - عفا عنهم ؛ وتقبل فيه دعاء موسى عليه السلام وضراعه إلى ربه ؛ كما ورد في السورة الأخرى « فلما أخذتهم الرحمة ، قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة . إنا هدنا إليك ... » .

« ثم اتخذوا العجل - من بعد ما جاءتهم البينات - » .

عجل الذهب ، الذي صاغه لهم السامري ، مما كانوا قد أخذوه - حيلة - من نساء المصريين وهم خارجون من مصر - فإذا هم يعكفون عليه ؛ ويتخذونه إلهاً في غيبة موسى عنهم في مناجاة ربه ، في الموعد الذي حدده له ، لينزل عليه الألواح فيها هدى ونور . « فغفونا عن ذلك » ..

ولكن اليهود هم اليهود . لا يفلح معهم إلا القهر والخوف :

وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم . وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً . وقلنا لهم : لا تعدوا في السبت . وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » ..

والسلطان الذي آتاه الله موسى هو - في الغالب - الشريعة التي تضمنتها الألواح ، فشرعية الله سلطان من الله ؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان ؛ وما جعل فيها من سطوة على القلوب . لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم ، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد . فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخضع ؛ ولها في النفس مهابة وخشية ..

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما في الألواح .. وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعتهم الغليظة . إذ نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم ؛ تهددهم بالوقوع عليهم ؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد ؛ وما كتب عليهم من التكليف في الألواح .. عندئذ فقط استسلموا ؛ وأخذوا العهد ؛ وأعطوا الميثاق ميثاقاً غليظاً .. مؤكداً وثيقاً .. يذكره - بهذه الصفة - ليتناسق



المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم ، وغلظ القلب الذي في صدورهم ، ثم يعطي - إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير ، وبالتخييل الحسي والتجسيم<sup>(١)</sup> .

وكان في هذا الميثاق : أن يدخلوا بيت المقدس سجداً . وأن يعظموا السبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيداً .

ولكن ماذا كان ؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم ! وغيباب القهر لهم ، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه بغير حق . وتبجحوا فقالوا : إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، ولا يصل إليها قول ، لأنها مغلقة دون كل قول ! وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين - في مواجهة اليهود - في سياق هذه الآيات ..

« فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف .. »  
وعند قولهم : « قلوبنا غلف » .. وهي القولة التي كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول ﷺ إما تئيساً له من إيمانهم واستجابتهم ، وإما استهزاءً بتوجيه الدعوة إليهم ، وتبجحاً بالكذب وعدم الإصغاء ، وإما هذا وذلك معاً .. عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم :

« بل طبع الله عليها - بكفرهم - فلا يؤمنون إلا قليلاً - »

فهي ليست مغلقة بطبعها . إنما هم كفروا جر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم ، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته ، فلا يقع منهم الإيمان ، إلا قليلاً . ممن لم يستحق بفعله ، أن يطبع الله على قلبه . أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه ، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه . وهم قلة قليلة من اليهود . كعبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن عبيد الله ..

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب ، يعود السیاد إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم الطيبات عليهم في الدنيا ، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم ، لتكون في انتظارهم في الآخرة !

« وبكفرهم وقولهم على مريم هتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . »  
ويكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم . فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق - وما يقتل نبي بحق أبداً فهي حال لتقرير الواقع - وذكرها هنا بمناسبة قولهم

(١) يراجع كتاب التصوير الفني في القرآن .

## سورة النساء

على مريم بهتاناً عظيماً وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود ! فرموها بالزنا مع يوسف النجار - لعنة الله عليهم ! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، وهم يتكلمون بدعواه الرسالة فيقولون : قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله !

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليها ، وتقرير الحق فيها : « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ؛ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً . »

إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية يخبط فيها اليهود - كما يخبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون : إنهم قتلوه ويسخرون من قوله : إنه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية ! والنصارى يقولون : إنه صلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام . و « التاريخ » يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب ! وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين .. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً ؛ وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الإهداء فيها إلى يقين .. إلا ما يقصه رب العالمين ..

والأنجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته .. كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح ؛ وكانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد .. وقد كتبت معها أنجيل كثيرة . ولكن هذه الأنجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد ؛ واعتبرت رسمية ، واعترف بها ؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات !

ومن بين الأنجيل التي كتبت في فترة كتابة الأنجيل الكثيرة : إنجيل برنابا . وهو يخالف الأنجيل الأربعة المعتمدة ، في قصة القتل والصلب ، فيقول :

« ولما دنت الجنود مع يهوذا ، في المحل الذي كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنوهم غفير . فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نياماً . فلما رأى الخطر على عبده ، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل ، سفراءه .. أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ، ووضعوه في السماء الثالثة ، في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أوصد منها يسوع . وكان التلاميذ كلهم نياماً . فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع . حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت



يا سيدي معلمنا . أنسيتنا الآن ؟ .. إلخ « (١) .  
وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة - التي حدثت في  
ظلام الليل قبل الفجر - ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية .  
« وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه . ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » ..  
أما القرآن فيقرر قراره الفصل :

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .  
« وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » ..  
ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة ؟ أم كان  
بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين . وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع  
القتل والصلب على من شبه لهم سواء .

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة ؛ إلا ما ورد في السورة الأخرى من  
قوله تعالى « يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي » .. وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن  
الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي وموعده .. ونحن - على طريقتنا في ظلال القرآن - لا نريد  
أن نخرج عن تلك الظلال ؛ ولا أن نضرب في أقاويل وأساطير ؛ ليس لدينا من دليل  
عليها ، وليس لنا إليها سبيل ..

ونعود من هذا الاستطراد ، مع عودة السياق القرآني إلى بقية هذا الاستدراك :  
« وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ؛ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » ..  
وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية ، باختلافهم في عائد الضمير في « موته »  
فقال جماعة : وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى - عليه السلام - قبل موته  
- أي عيسى - وذلك على القول نزوله قبيل الساعة .. وقال جماعة وما من أهل الكتاب  
من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته .. أي موت الكتابي - وذلك على القول بأن الميت  
- وهو في سكرات الموت - يتبين له الحق ، حيث لا ينفعه أن يعلم !

ونحن أميل إلى هذا القول الثاني ؛ الذي ترشح له قراءة أبى : « إلا ليؤمنن به قبل  
موتهم » .. فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير ؛ وأنه أهل الكتاب .. وعلى هذا الوجه  
يكون المعنى : أن اليهود الذين كفروا بعيسى - عليه السلام - وما زالوا على كفرهم به ،  
وقالوا : إنهم قتلوه وصلبوه ؛ ما من أحد منهم يدركه الموت ، حتى تكشف له الحقيقة

(١) نقلا عن كتاب : « محاضرات في النصرانية » . للأستاذ الشيخ محمد ابو زهرة .

## سورة النساء

عند حشجة الروح ، فيرى أن عيسى حق ، ورسالته حق ، فيؤمن به ، ولكن حين لا ينفعه إيمان .. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً .

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب . ثم يعود بعدها إلى تعداد مناكر اليهود ؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم في الدنيا والآخرة .

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وبصدهم عن سبيل الله كثير وأخذهم الربا وقد نهوا عنه . وأكلهم أموال الناس بالباطل . وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » .. فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم هذه المنكرات الجديدة : الظلم . والصد الكثير عن سبيل الله . فهم ممعنون فيه ودائبون عليه . وأخذهم الربا - لاعن جهل ولا عن قلة تنبيه - فقد نهوا عنه فأصروا عليه ! وأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وبغيره من الوسائل . بسبب من هذه المنكرات ، ومما أسلفه السياق منها .. حرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم . وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً .

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم ، وفضح تعلاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعتهم ، ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنتقدمهم ، ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء في حق الأنبياء والصالحين : بل قتلهم والتبجح بقتلهم ! وتسقط بذلك وتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم . وتعرف الجماعة المسلمة - ما ينبغي أن تعرفه الأمة المسلمة في كل حين - عن طبيعة اليهود وحبائلهم ، ووسائلهم وطرائقهم ، ومدى وقوفهم للحق في ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم . فهم أعداء للحق وأهله ، وللهدى وحملته . في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم . مع أصدقائهم ومع أعدائهم .. لأن حبيلتهم عدوة للحق في ذاته ، جاسية قلوبهم ، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطربة ! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم ..

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ، ليقتصر على الجماعة المسلمة الأولى في المدينة . فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت ، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها ، وإذا استنصحت في أمرهم نصح لها ، وإذا استرشدت به أرشدها . وقد أفتاها ونصح لها وأرشدتها في شأن يهود ، فدانت لها رقابهم .. ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود ، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة ، وهي غافلة عن كتابها .. القرآن .. شاردة عن هديه ، ملقية به وراءها ظهيراً ! متبعة قول فلان وفلان !! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود ، حتى تثوب إلى القرآن ..



## الجزء السادس

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود ، حتى ينصف القليل المؤمن منهم ، ويقرر حسن جزائهم ، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق ، ويشهد لهم بالعلم والإيمان ، ويقرر أن الذي هداهم إلى التصديق بالدين كله : ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله ، هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان :

« لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك . والمقيمون الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا . فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله . كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد .. »

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور ، لفئة من اللغات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك ، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين . فالعلم السطحي كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة .. ونحن نشهد هذا في كل زمان . فالذين يتعمقون في العلم ، ويأخذون منه بنصيب حقيقي ، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مديراً متصرفاً ، وذا إرادة واحدة ، وضعت ذلك الناموس الواحد .. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى - المؤمنون - يفتح الله عليهم ، وتتصل أرواحهم بالهدى .. أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء ، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ، أو لا تبرز لهم - بسبب علمهم الناقص السطحي - علامات الاستفهام . وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق .. وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان ، أو يجعل الدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التي جاءت من عند ديان واحد ، على أيدي موكب واحد متصل من الرسل ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد ورد في التفسير المأثور أن هذه الإشارة القرآنية تعني - أول ما تعني - أولئك نفر من اليهود ، الذين استجابوا للرسول ﷺ وذكرنا أسماءهم من قبل ، ولكن النص عام ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين ، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير<sup>(١)</sup> ..

(١) ونستطيع أن نذكر منهم - ولا نزكي على الله أحداً - في الزمن الحديث « محمد أسد » النمساوي ، وكان اسمه ليوبولد فايس . وقد اهتدى وأسلم ، وسمى نفسه محمد أسد . وهو صاحب كتاب : الاسلام على مفارق الطرق .

## سورة النساء

ويضم السياق القرآني هؤلاء وهؤلاء إلى موكب المؤمنين ، الذين تعينهم صفاتهم :  
« والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر » .  
وهي صفات المسلمين التي تميزهم : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالله واليوم  
الآخر .. وجزاء الجميع ما يقرره الله لهم .  
« أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » ..

ونلاحظ أن « المقيمين الصلاة » تأخذ إعراباً غير سائر ما عطف عليه . وقد يكون  
لإبراز قيمة إقامة الصلاة في هذا الموضع على معنى - وأخص المقيمين الصلاة - ولها نظائر  
في الأساليب العربية وفي القرآن الكريم ، لإبراز معنى خاص في السياق له مناسبة خاصة .  
وهي هكذا في سائر المصاحف وإن كانت قد وردت مرفوعة : « والمقيمون الصلاة » في  
مصحف عبدالله بن مسعود .

\* \* \*

## اليهود .. رسالة محمد ﷺ

ويستطرد السياق في مواجهة أهل الكتاب - واليهود منهم في هذا الموضع خاصة -  
وموقفهم من رسالة محمد ﷺ وزعمهم أن الله لم يرسله ، وتفريقهم بين الرسل ، وتعنتهم  
وهم يطلبون أمانة على رسالته : كتاباً ينزله عليهم من السماء .. فيقرر أن الوحي للرسول  
ليس بدعا ، وليس غريباً ، فهو سنة الله في إرسال الرسل جميعاً ، من عهد نوح إلى عهد  
محمد . وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار ؛ اقتضت هذا رحمة الله بعباده ، وأخذه  
الحجة عليهم ، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب .. وكلهم جاءوا بوحي واحد ، لهدف واحد ؛  
فالتفرقة بينهم تعنت لا يستند إلى دليل .. وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد  
- وكفى به شاهداً - والملائكة يشهدون .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل  
وإسحاق ويعقوب والإسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتيناداد ذبوراً .  
ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً .. رسلنا  
مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً » ..  
فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول ، ورسالة واحدة  
بهدي واحد للإنذار والتبشير .. موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر :  
نوح . وإبراهيم . وإسماعيل . وإسحاق . ويعقوب . والأسباط . وعيسى . وأيوب .



## الجزء السادس

ويونس . وهارون . وسليمان . وداود . وموسى .. وغيرهم ممن قصصهم الله على نبيه ﷺ في القرآن ، ومن لم يقصصهم عليه .. موكب من شتى الأقوام والأجناس ، وشتى البقاع والأرضين . في شتى الآونة والأزمان . لا يفرقهم نسب ولا جنس ، ولا ارض ولا وطن . ولا زمن ولا بيئة . كلهم آت من ذلك المصدر الكريم . وكلهم يحمل ذلك النور الهادي . وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير . وكلهم يحاول ان يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور .. سواء منهم من جاء لعشيرة . ومن جاء لقوم . ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر .. ثم من جاء للناس اجمعين : محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين .

كلهم تلقى الوحي من الله . فما جاء بشيء من عنده . وإذا كان الله كلم موسى تكليماً فهو لون من الوحي لا يعرف احد كيف كان يتم . لأن القرآن - وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى الشك إلى صحته - لم يفصل لنا في ذلك شيئاً . فلا نعلم إلا انه كان كلاماً . ولكن ما طبيعته ؟ كيف تم ؟ بأية حاسة او قوة كان موسى يتلقاه ؟ .. كل ذلك غيب من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن . وليس وراء القرآن - في هذا الباب - إلا اساطير لا تستند إلى برهان . اولئك الرسل - من قص الله على رسوله منهم ومن لم يقصص - اقتضت عدالة الله ورحمته ان يبعث بهم إلى عبادته يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان ؛ وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب .. كل ذلك :

« لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ..

ولله الحجة البالغة في الانفس والافاق ؛ وقد اعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الايمان في الانفس والافاق . ولكنه - سبحانه - رحمة منه بعباده ، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي اعطاها لهم - اداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته ان يرسل إليهم الرسل « مبشرين ومنذرين » يذكرونهم ويبصرونهم ؛ ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات ، التي تحجب عنها او تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الايمان في الانفس والافاق .

« وكان الله عزيزاً حكيماً » ..

عزيزاً : قادراً على اخذ العباد بما كسبوا . حكيماً : يدبر الأمر كله بالحكمة ويضع كل امر في نصابه .. والقدرة والحكمة لها عملها فيما يقدره الله في هذا الأمر وارتضاه ..

\*\*\*

العقل .. والوحي

ونقف من هذه اللفتة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » امام حشد من

## سورة النساء

الإحياءات اللطيفة العميقة ونختار منه ثلاثاً على سبيل الاختصار الذي لا يخرج بنا من الظلال .  
نقف منها : أولاً : امام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في اخطر قضايا «الإنسان»  
قضية الإيمان بالله ؛ التي تقوم عليها حياته في الأرض من جذورها ؛ بكل مقوماتها  
واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها ؛ كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي اكبر وابقى .

لو كان الله - سبحانه - وهو اعلم بالإنسان وطاقاته كلها ، يعلم ان العقل البشري ، الذي  
وهبه للإنسان ، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته ، في دنياه  
وآخرفته ، لو كله إلى هذا العقل وحده ؛ يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس  
والآفاق ، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته ، فتستقيم على الحق والصواب ؛  
ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ؛ ولما جعل حجته على عباده هي رسالة

الرسل إليهم وتبليغهم عن ربهم ، ولما جعل حجة الناس عنده - سبحانه - هي عدم مجيء  
الرسل إليهم : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .. ولكن لما علم الله  
- سبحانه - أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول الى الهدى  
- بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط - وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية  
يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ؛ وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة ..  
لما علم الله - سبحانه - هذا شئت حكمته وشئت رحمته أن يبعث للناس بالرسول ، وألا  
يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » ..  
وهذه تكاد تكون إحدى البديهيّات التي تبرز من هذا النص القرآني .. فإن لم تكن بديهية  
فهي إحدى المقتضيات الحتمية ..

إذن .. ما هي وظيفة هذا العقل البشري ؛ وما هو دوره في قضية الإيمان والهدى ؛  
وفي قضية منهج الحياة ونظامها ؟

إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول .  
ومهمة الرسول أن يبلغ ، ويبين ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام .  
وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ؛ وأن  
يرسم له منهج التلقي الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ؛ وأن يقيم له القاعدة التي ينهض  
عليها منهج الحياة العملية ، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة .

وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ،  
والقبول أو الرفض - بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ؛ وبعد أن يفهم المقصود



## الجزء السادس

بها : أي المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص — ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها — بعد إدراك مدلولها . لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول ! أو لا يريد أن يستجيب له — ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان .. فهو إذن ملازم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها ..

إن هذه الرسالة تخاطب العقل .. بمعنى أنها توقظه ، وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح .. لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها . ومتى ثبت النص كان هو الحكم ؛ وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه ؛ سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه ..

إن دور العقل — في هذا الصدد — هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص . وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح . وعند هذا الحد ينتهي دوره .. إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل . فهذا النص من عند الله ، والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة أو البطلان ، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله .

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير .. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة .. أو ممن يريدون إلغاء العقل ، ونفي دوره في الإيمان والهدى .. والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا .. من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها ؛ وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات ، وفي شؤون الحياة كلها . فإذا أدرك مقرراتها — أي إذا فهم ماذا يعني النص — لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ .. فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها . وهي كذلك لا تبيح له مناقشة مقرراتها متى أدرك هذه المقررات ، وفق مفهوم نصوصها .. مناقشتها ليقبلها أو يرفضها . ليحكم بصحتها أو خطئها .. وقد علم أنها جاءت من عند الله . الذي لا يقص إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير .

والمنهج الصحيح في التلقي عن الله ، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة — بعد أن يدرك المقصود بها — بمقررات له سابقة عليها ؛ كونها لنفسه من مقولاته « المنطقية » ! أو من ملاحظاته المحدودة ؛ أو من تجاربه الناقصة .. إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة ، ويكون منها مقرراته هو ! فهي أصح من مقرراته الذاتية ؛ ومنهجها أقوم من منهجه الذاتي — قبل أن يضبط بموازن النظر الدينية الصحيحة — ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين — متى صح عنده أنها من الله — إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص !

## سورة النساء

.. إن العقل ليس إلهاً ، ليحاكم بقراراته الخاصة مقررات الله ..  
إن له أن يعارض مفهوماً عقلياً بشرياً للنص بمفهوم عقلي بشري آخر له .. هذا مجاله ،  
ولا حرج عليه في هذا ولا حرج ما دام هنالك من الأصول الصحيحة مجال للتأول والأفهام  
المتعددة . وحرية النظر — على أصوله الصحيحة وبالضوابط التي يقررها الدين نفسه —  
مكفولة للعقول البشرية في هذا المجال الواسع . وليس هناك من هيئة ، ولا سلطة ، ولا  
شخص ، يملك الحجر على العقول ، في إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه تطبيقه  
— متى كان قابلاً لأوجه الرأي المتعددة ، ومتى كان النظر في حدود الضوابط الصحيحة  
والمنهج الصحيح ، المأخوذ من مقررات الدين — وهذا كذلك معنى أن هذه الرسالة  
تخاطب العقل ...

إن الإسلام دين العقل .. نعم .. بمعنى أنه يخاطب العقل بقضايا ومقرراته ؛ ولا  
يقهره بخارقة مادية لا مجال لها فيها إلا الإذعان . ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج  
النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموجيات الإيمان في الأنفس والآفاق ؛ ليرفع عن  
الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة ؛ وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة . ويخاطب  
العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ، ولا يفرض عليه أن  
يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه .. فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم  
المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، أو عدم التسليم بها فهو كافر .. وليس  
هو حكماً في صحتها أو بطلانها . وليس هو مأذوناً له في قبولها أو رفضها كما يقول من يبتغون  
أن يجعلوا من هذا العقل إلهاً ، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل ، ويرفض منها  
ما يرفض ، ويختار منها ما يشاء ، ويترك منها ما يشاء .. فهذا هو الذي يقول الله عنه :  
« أفئذ منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ » ويرتب عليه صفة الكفر ، ويرتب  
عليه كذلك العقاب ..

فإذا قرر الله — سبحانه — حقيقة في أمر الكون ، أو أمر الإنسان ، أو أمر الخلائق  
الأخرى . أو إذا قرر أمراً في الفرائض ، أو في النواهي .. فهذا الذي قرره الله واجب  
القبول والطاعة ممن يبلغ إليه . متى أدرك المدلول المراد منه ..  
إذا قال الله سبحانه « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » .. « أو  
لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناها وجعلنا من الماء كل  
شيء حي » .. « والله خلق كل دابة من ماء » .. « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » ،



## الجزء السادس

وخلق الجان من مارج من نار .. إلى آخر ما قال — سبحانه — عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء .. فالحق هو ما قال . وليس للعقل أن يقول — بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها — إنني لا أجد هذا في مقرراتي ، أو في علمي ، أو في تجاربي .. فكل ما يبلغه العقل في هذا معرض للخطأ والصواب . وما قرره الله — سبحانه — لا يحتمل إلا الحق والصواب .

وإذا قال الله سبحانه : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .. « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .. « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. » « وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن .. » .. إلى آخر ما قال في شأن منهج الحياة البشرية فالحق هو ما قال — سبحانه — وليس للعقل أن يقول : ولكنتي أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف عن أمر الله ، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس .. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب ، وتدفع إليه الشهوات والنزوات .. وما يقرره الله — سبحانه — لا يحتمل إلا الصحة والصلاح ..

وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات ، أو من منهج الحياة ونظامها ، سواء في موقف العقل إزاءه .. متى صح النص ، وكان قطعي الدلالة ؛ ولم يوقت بوقت .. فليس للعقل أن يقول : آخذ في العقائد والشعائر التعبدية ؛ ولكنتي أرى أن الزمن قد تغير في منهج الحياة ونظامها .. فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته . فما دام النص مطلقاً فإنه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان .. احترازاً من الجرأة على الله . ورمي علمه بالنقص والقصور — سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .. إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية ؛ لا في قبول المبدأ العام أو رفضه ، تحت أي مقولة من مقولات العقل في جيل من الأجيال !

وليس في شيء من هذا الذي تقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية .. فإن المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات المتجددة — بعد أن ينطبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح — وال المدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته ؛ وطبيعة الكائنات في الأحياء ؛ والارتفاع بما سخر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء ؛ وتنمية الحياة وتطويرها

## سورة النساء

وترقيتها - في حدود منهج الله - لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تضل العقل وتغطي الفطرة بالركام (١) ! .

\* \* \*

### التبليغ .. واجب الرسل والاتباع

ونقف من هذه اللفتة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وقفة أخرى : نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل - صلوات الله عليهم - ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم - تجاه البشرية كلها .. وهي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة .. إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبتابعهم من بعدهم . فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم . في الدنيا والآخرة .

إنه أمر هائل عظيم .. ولكنه كذلك .. ومن ثم كان الرسل - صلوات الله عليهم - يحسون بحسامة ما يكلفون . وكان الله - سبحانه - يبصرهم بحقيقة العبء الذي ينوطة بهم .. وهذا هو الذي يقول الله عنه لنبيه : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » .. ويعلمه كيف يتهيأ له ويستعد : « يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً .. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » .. « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » .. وهذا هو الذي يشعر به نبيه ﷺ وهو يأمره أن يقول وأن يستشعر حقيقة ما يقول : « قل : إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً .. إلا بلاغاً من الله ورسالاته » .. « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً .. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » ..

إنه الأمر الهائل العظيم .. أمر رقاب الناس .. أمر حياتهم ومماتهم .. أمر سعادتهم وشقائهم .. أمر ثوابهم وعقابهم .. أمر هذه البشرية ، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة . وإما أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى في الدنيا والآخرة . وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها ، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ !

(١) يراجع كذلك فصل « الربانية » في كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » القسم الأول منه .

## الجزء السادس

فأما رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل .. وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها - مع هذا - قدوة ممثلة في العمل ، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق .. سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك ، وضلالات تزين ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين . كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين . بما أنه المبلغ الأخير . وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات . فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان . إنما أزالها كذلك باللسان « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ..

وبقي الواجب الثقيل على من بعده .. على المؤمنين برسالته .. فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط - بعده - بأتباعه . ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة - تبعة إقامة حجة الله على الناس ؛ وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا - إلا بالتبليغ والأداء .. على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله ﷺ وأدى .. فالرسالة هي الرسالة ؛ والناس هم الناس .. وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات .. وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة ؛ وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة .. الموقف هو الموقف ؛ والعقبات هي العقبات ، والناس هم الناس .

ولا بد من بلاغ ، ولا بد من أداء . بلاغ بالبيان . وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون . وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة ؛ وتفتن الناس بالباطل وبالقوة .. وإلا فلا بلاغ ولا أداء ..

إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله .. وإلا فهي التبعة الثقيلة . تبعة ضلال البشرية كلها ؛ وشقوتها في هذه الدنيا ، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة ! وحمل التبعة في هذا كله ، وعدم النجاة من النار ..

فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة ؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل ؟ ! إن الذي يقول : إنه « مسلم » إما أن يبلغ ويؤدي هكذا . وإلا فلا نجاة له في دنيا ولا في أخرى .. إنه حين يقول : إنه « مسلم » ثم لا يبلغ ولا يؤدي .. كل ألوان البلاغ والأداء هذه ، إنما يؤدي شهادة ضد الإسلام الذي يدعيه ! بدلاً من أداء شهادة له ، تحقق فيه قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً<sup>(١)</sup> » ..

(١) يراجع كتاب : « شهادة الحق » للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ..



## سورة النساء

وتبدأ شهادته للإسلام ، من أن يكون هو بذاته . ثم ببيته وعائلته . ثم بأسرته وعشيرته ، صورة واقعية من الإسلام الذي يدعو إليه .. وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة - بعد دعوة البيت والأسرة والعشيرة - إلى تحقيق الإسلام في حياتها كلها .. الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .. وتنتهي شهادته بالجهاد لإزالة العوائق التي تضل الناس وتفتنهم من أي لون كانت هذه العوائق .. فإذا استشهد في هذا فهو إذن « شهيد » أدى شهادته لدينه ، ومضى إلى ربه .. وهذا وحده هو « الشهيد » .

\* \* \*

### رحمة الله بالإنسان

وفي نهاية المطاف نقف وقفة خاشعة أمام جلال الله وعظمته ؛ بمثابة في علمه ، وعدله ، ورعايته ، وفضله ، ورحمته وبره .. بهذا الكائن الإنساني الذي يحدد ويطنى .. نقف أمام عظمة العلم بهذا الكائن ؛ وما أودعه من القوى والطاقات ؛ وما ركب في كينونته من استعدادات الهدى والضلال . وما رتبته على هذا العلم حين لم يكله إلى عقله وحده .. على عظمة هذه الأداة التي وهبها له ؛ وعلى كثرة ما في الأنفس والآفاق من دلائل الهدى وموجبات الإيمان .. فلقد علم الله أن هذه الأداة العظيمة تنوشها الشهوات والنزوات ؛ وأن الدلائل المبثوثة في تضاعيف الكون وأطواء النفس قد يحجبها الغرض والهوى ، ويحجبها الجهل والقصور .. ومن ثم لم يكل إلى العقل البشري تبعة الهدى والضلال - إلا بعد الرسالة والبيان - ولم يكل إليه بعد البيان والاهتداء وضع منهج الحياة ، إنما وكل إليه تطبيق منهج الحياة الذي يقرره له الله .. ثم ترك له ما وراء ذلك - وهو ملك عريض - يبدع فيه ما شاء ، ويغير فيه ما شاء ، ويركب فيه ما شاء ، ويحلل فيه ما شاء ، منتفعاً بتسخير الله لهذا الملك كله لهذا الإنسان وهو الذي يخطيء عقله ويصيب ، وتعثر قدمه وتستقيم على الطريق !

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتب للناس حجة على الله - سبحانه - لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق ، ووحدانيتها ، وتدبيره وتقديره ، وقدرته وعلمه .. ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس .. ومع هبة العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج .. ولكن الله - سبحانه - بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها ، فتعطلها أو تفسدها ، أو تطمسها ، أو

## الجزء السادس

تدخل في حكمها الخطأ والشطط ، قد أعفى الناس من حجية الكون ، وحجية الفطرة ، وحجية العقل ، ما لم يرسل إليهم الرسل ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها بما قد يرين عليها ، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثل في الرسالة ، هذه الأجهزة ، فتصح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي .. وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع ؛ أو تسقط حجتها وتستحق العقاب ..

وتقف أمام عظمة الرعاية والفضل والرحمة والبر بهذا المخلوق الذي يكرمه الله ويختاره ، على ما يعلم به من ضعف ونقص ! فيكل إليه هذا الملك العريض .. خلافة الأرض .. وهو بالقياس إليه ملك عريض ! وإن كان في ملك الله ذرة تمسكها يد الله فلا تضيع في ملكه الكبير !

ثم تشاء رعايته وفضله ورحمته وبره ، ألا تدعه لما أودع في كينونته من فطرة هادية ولكنها تطمس ؛ ومن عقل هاد ولكنه يضل ؛ بل يتفضل عليه ربه فيرسل إليه الرسل تنري .. وهو يكذب ويعاند ؛ ويشرد وينأى ؛ فلا يأخذه ربه بأخطائه وخطاياها ؛ ولا يحبس عنه بره وعطاياها ، ولا يحرمه هداه على أيدي رسله الهداة .. ثم لا يأخذه بالعقاب في الدنيا أو في الآخرة حتى تبلغه الرسل ؛ فيعرض ويكفر ، ويموت وهو كافر لا يتوب ولا ينيب ..

ومن عجب أن يأتي على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه .. واستغنى عن رعايته وفضله ورحمته وبره .. استغنى عن هدايته ودينه ورسله .. استغنى بالإداعة التي علم ربه أنها لا تغنيه - ما لم تقوّم بمنهج الله - فلم يكتب عليه عقاباً إلا بعد الرسالة والبيان .. فيتمثل لنا الطفل الذي يحس ببعض القوة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده ، ليتكفأ ويتعثر ! غير أن الطفل في هذا المثال أرشد وأطوع للفطرة . إذ أنه بمحاولة الاستقلال عن اليد التي تسنده يحيب داعي الفطرة في استحثاث طاقات كامنة في كيانه ؛ وإنماء قدرات ممكنة النماء ؛ وتدريب عضلات وأعصاب تنمو وتقوى بالتدريب .. أما إنسان اليوم الذي يبعد عنه يد الله ، ويتنكب هداه ، فإن كينونته - بكل ما يكمن فيها من قوى - يعلم الله أنها لا تشتمل على قوة مكنونة تملك الاستغناء عن يد الله وهداه . وقصارى ما في قواه أنها ترشد وتضبط وتستقيم برسالة الله . وتضل وتختل وتضطرب إذا هي استقلت بنفسها ، وتنكبت هداه !

وخطأ وضلال - إن لم يكن هو الخداع والتضليل - كل زعم يقول : إن العقول

## سورة النساء

الكبيرة كانت حرية أن تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة .. فالعقل ينضبط - مع الرسالة - بمنهج النظر الصحيح ؛ فإذا أخطأ بعد ذلك في التطبيق كان خطؤه كخطأ الساعة التي تضبط ، ثم تغلبها عوامل الجو والمؤثرات ، وطبيعة معدنها الذي يتأثر بهذه المؤثرات ، لا كخطأ الساعة التي لم تضبط أصلاً ، وتركت للفوضى والمصادفة ! وشتان شتان !

وآية أن ما يتم بالرسالة - عن طريق العقل نفسه - لا يمكن أن يتم بغيرها ؛ فلا يغني العقل البشري عنها .. أن تاريخ البشرية لم يسجل أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية المتوسطة بالرسالة .. لا في تصور اعتقادي ؛ ولا في خلق نفسي ، ولا في نظام حياة ، ولا في تشريع واحد لهذا النظام .. إن عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً .. بل إنهم ليقولون : إن عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفته البشرية - بعيداً عن رسالة الله وهداه - فإذا نحن راجعنا تصوره لإله - كما وصفه - رأينا المسافة الهائلة التي تفصله عن تصور المسلم العادي لإله مهتدياً بهدي الرسالة .

وقد وصل أخناتون - في مصر القديمة - إلى عقيدة التوحيد - وحتى مع استبعاد تأثيره في هذا بإشعاع عقيدة التوحيد في رسالة إبراهيم ورسالة يوسف - فإن الفجوات والأساطير التي في عقيدة أخناتون تجعل المسافة بينها وبين توحيد المسلم العادي لإله بعيدة بعيدة . وفي الخلق نجد في الفترة التي هيمن فيها الإسلام في صدر الإسلام نماذج للأوساط ممن رباهم الرسول ﷺ لا تتناول إليها أعناق الأفذاذ على مدار التاريخ ممن لم تخرجهم رسالة سماوية .

وفي المبادئ والنظم والتشريعات لا نجد أبداً ذلك التناسق والتوازن ، مع السمو والرفعة التي نجدها في نظام الإسلام ومبادئه وتشريعاته . ولا نجد أبداً ذلك المجتمع الذي أنشأه الإسلام يتكرر لا في زمانه ولا قبل زمانه ولا بعد زمانه في أرض أخرى ، بتوازنه وتناسقه ويسر حياته وتناغمها ..

إنه ليس المستوى الحضاري المادي هو الذي يكون عليه الحكم . فالحضارة المادية تنمو بنمو وسائلها التي ينشئها « العلم » الصاعد .. ولكن ميزان الحياة في فترة من الفترات هو التناسق والتوازن بين جميع أجزائها وأجهزتها وأوضاعها .. هو التوازن الذي ينشئ السعادة والطمأنينة ، والذي يطلق الطاقات الإنسانية كلها لتعمل دون كبت ودون مغالة



## الجزء السادس

في جانب من جوانبها الكثيرة ... والفترة التي عاشت بالإسلام كاملاً لم تبلغها البشرية - بعيداً عن الرسالة - في أي عصر .. والخلقة وعدم الاتزان هو الطابع الدائم للحياة في غير ظل الإسلام ؛ مهما التمعت بعض الجوانب ؛ ومهما تضخمت بعض الجوانب . فإنما تلتهم لتتلفى جوانب أخرى . وإنما تتضخم على حساب الجوانب الأخرى .. والبشرية معها تتأرجح وتختار وتشقى<sup>(١)</sup> .



ونقف عند هذا الحد - المناسب لسياق الضلال - في الحديث عن الإيحاءات القوية العميقة ، التي يثيرها في النفس قول الله تعالى :

« رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ..

لنمضي بعدها مع السياق القرآني :

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك . أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً » فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة - وهي جارية على سنة الله ورسوله في إرسال الرسل لعباده « مبشرين ومنذرين » لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وأهل الكتاب يعترفون بالرسول قبل محمد ﷺ اليهود يعترفون بمن قبل عيسى - عليه السلام - والنصارى يعترفون بهم ، وبعيسى الذي ألوه كما سيجيء .. فإذا أنكروا رسالتك - يا محمد - فلا عليك منهم . فليذكروا :

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك . أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً » ..

وفي هذه الشهادة من الله .. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله .. إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب . فمن هم والله يشهد ؟ والملائكة تشهد ؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية ؟ !

وفي هذه الشهادة تسرية عن الرسول ﷺ وما يلقاه من كيد اليهود وعنتهم . وفيها كذلك تصديق وتثبيت وتطمين للمسلمين - في أول عهدهم بالإسلام بالمدينة - أمام حملة اليهود التي يدل على ضخامتها هذه الحملة القرآنية المتنوعة الأساليب والإيحاءات في ردها والقضاء عليها .



---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » فصل : « تحبط واضطراب » .

## سورة النساء

وعندئذ يجيء التهديد الرعيب للمكركين في موضعه ، بعد شهادة الله - سبحانه - وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم .  
« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً . وكان ذلك على الله يسيراً .. »

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات مع كونها عامة - تنطبق أول ما تنطبق على حال اليهود ، وتصور موقفهم من هذا الدين وأهله ؛ بل من الدين الحق كله ؛ سواء منهم من عاصروا فجر الدعوة في المدينة ، ومن سبقوهم منذ أيام موسى عليه السلام ، ومن جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا - إلا القلة القليلة النادرة المستثناة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله .

وهؤلاء - وكل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصد - قد ضلوا ضلالاً بعيداً . ضلوا عن هدى الله ؛ وضلوا طريقهم القويم في الحياة . ضلوا فكراً وتصوراً واعتقاداً ؛ وضلوا سلوكاً ومجتمعاً وأوضاعاً . ضلوا في الدنيا وضلوا في الآخرة . ضلوا ضلالاً لا يرتجى معه هدى .. « ضلوا ضلالاً بعيداً » ..

ويعيد السياق وصفهم بالكفر ، ليضم إليه الظلم :  
« إن الذين كفروا وظلموا » ..

والكفر في ذاته ظلم ؟ ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس .. والقرآن يعبر عن الكفر أحياناً بأنه الظلم كقوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » .. وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » بعدما قرر أنهم الكافرون في الآية السابقة عليها .. ( كما سيجيء في موضعه في هذا الجزء في سورة المائدة ) .. وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الشرك وحده ، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصد عن سبيل الله أيضاً ، فأمعنوا في الكفر .. أو أمعنوا في الظلم .. ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير :

« إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً - إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً » ..

فليس من شأن الله - سبحانه - أن يغفر لأمثال هؤلاء ، بعدما ضلوا ضلالاً بعيداً ، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة .. وليس من شأن الله - سبحانه - أن يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم . وقد قطعوا على أنفسهم كذلك كل طريق للهدى ، وأوعدوا في

## الجزء السادس

وجود أنفسهم كل طريق إلا طريق جهنم ، فأبعدوا فيه وأوغلوا ، واستحقوا الخلود المؤبد فيها بإبعادهم في الضلال والكفر والصد والظلم ، بحيث لا يرجى لهم من هذا الإبعاد مآب ! .

« وكان ذلك على الله يسيرا » ..

فهو القاهر فوق عباده . وليس بينه وبين أحد من العباد صهر ولا نسب ، يجعل أخذهم بهذا الجزاء العادل المستحق عليهم عسيرا . وليس لأحد من عباده قوة ولا حيلة تجعل أخذه عسيراً على الله أيضاً ..

ولقد كان اليهود - كما كان النصارى - يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه . وكانوا يقولون : « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات » . وكانوا يقولون : نحن شعب الله المختار ... فجاء القرآن لينفي هذا كله . ويضعهم في موضعهم . عباداً من العباد .. إن أحسنوا أثيبوا ، وإن أساءوا - ولم يستغفروا ويتوبوا - عذبوا .. وكان ذلك على الله يسيرا ..

### بيان للناس

ومن ثم دعوة شاملة إلى الناس كافة - بعد هذه البيانات كلها - أن هذا الرسول إنما جاءهم بالحق من ربهم . فمن آمن به فهو الخير . ومن كفر فإن الله غني عنهم جميعاً ، وقادر عليهم جميعاً ، وله ما في السماوات والأرض . وهو يعلم الأمر كله ، ويحريه وفق علمه وحكمته :

« يا أيها الناس ، قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم . فآمنوا خيراً لكم . وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً » ..

وهي دعوة سبقها دحض مفتريات أهل الكتاب ، وكشف جبهة اليهود ومناكرهم في تاريخهم كله ، وتصوير تغنتهم الأصيل ، حتى مع موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم ، كما سبقها بيان طبيعة الرسالة وغايتها . وهذه الغاية وتلك الطبيعة تقتضيان أن يرسل الله الرسل ، وتقتضيان أن يرسل الله محمداً حتماً . فهو رسول إلى العالمين . إلى الناس كافة - بعدما غبرت الرسائل كلها خاصة بقوم كل رسول - فلم يكن بد من تبليغ عام في ختام الرسائل ، يبلغ إلى الناس كافة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .. ولو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله . فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان ، وكانت هي الرسالة الأخيرة . فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى ، أو بعد عيسى



## سورة النساء

— عليه السلام — لا يتفق مع عدل الله ، في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ .. ولم يسبق أن كانت هناك رسالة عامة . ولم يكن بد من هذه الرسالة العامة .. فكانت بعدل الله ورحمته بالعباد .. وكان حقاً قول الله سبحانه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .. رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة . كما يتجلى من هذا البيان ..

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلَّمْتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ . فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً . انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ . إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ — سُبْحَانَهُ — أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ! لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ . وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ ، إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَيزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . »

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا » ..

### جولة مع النصارى

هذا الدرس جولة مع النصارى من أهل الكتاب ، كما كان الدرس الماضي جولة مع اليهود . منهم وهؤلاء وهؤلاء من أهل الكتاب ، الموجه إليهم هذا الخطاب . وفي الدرس الماضي أنصف القرآن عيسى بن مريم وأمه الطاهرة من افتراءات اليهود ، وأنصف العقيدة الصحيحة في حكاية صلب المسيح — عليه السلام — وأنصف الحق نفسه

## الجزء السادس

من يهود ، وأفاعيل يهود ، وعنت يهود !

وفي هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة ، وإنصاف عيسى بن مريم كذلك من غلو النصارى في شأن المسيح - عليه السلام - ومن الأساطير الوثنية التي تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام ، وشتى الملل ، التي احتكت بها النصرانية ؛ سواء في ذلك أساطير الإغريق والرومان ، وأساطير قدماء المصريين ، وأساطير الهنود ! ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير ؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين ، المتخلفة من بقايا الجنيقية دين إبراهيم - عليه السلام - في الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية !

لا بل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله للبشر أجمعين ؛ وينقذها من كل انحراف وكل اختلال ، وكل غلو ، وكل تفريط ، في تفكير البشر أجمعين ... فصحيح - فيما صحح - اختلافات تصور التوحيد في آراء أرسطو في أثينا قبل الميلاد ، وأفلاطون في الإسكندرية بعد الميلاد ؛ وما بينها وما تلاهما من شتى التصورات في شتى الفلسفات التي كانت تخبط في التيه ، معتمدة على ذبالة العقل البشري ، الذي لا بد أن تعينه الرسالة ، ليهتدي في هذا التيه<sup>(١)</sup> !

والقضية التي يعرض لها السياق في هذه الآيات ، هي قضية « التثليث » وما تتضمنه من أسطورة « بنوة المسيح » لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح . ولقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى - على اختلاف المذاهب - هي عقيدة أن الإله واحد في أقانيم ثلاثة : الآب ، والابن ، والروح القدس . والمسيح هو « الابن » .. ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح . هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية ؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط . وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين ؟ وهل هو قديم كآب أو مخلوق .. إلى آخر ما تفرقت به المذاهب ، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة .. ( وسيأتي شيء من تفصيل هذا الإجمال في مناسبه في سياق سورة المائدة ) .

والثابت من تتبع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية ، أن عقيدة التثليث ، وكذلك

---

(١) يراجع فصل : « تيه وركام » وفصل « الربانية » في كتاب : « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » .

## سورة النساء

عقيدة بنوة المسيح لله - سبحانه - ( ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم ، ودخولها في  
في التثليثات المتعددة الأشكال ) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى . إنما دخلت إليها على  
فترات متفاوتة التاريخ ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية ، وهم لم يبرأوا بعد من  
التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات  
المصرية القديمة ، من تثليث « أزوريس وإيزيس » و« حوريس » والتثليثات المتعددة في  
هذه الديانة ..

وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التي أنزلها بهم الأباطرة الرومان ،  
والجامع المقدسة الموالية للدولة ( الملوكانيون ) إلى ما بعد القرن السادس الميلادي على  
الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتعرب وتشرد بعيداً عن أيدي السلطات الرومانية !  
وما تزال فكرة « التثليث » تصدم عقول المثقفين من النصارى ، فيحاول رجال  
الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشق الطرق ، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لا ينكشف  
سرّها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض !  
يقول القس بوطر صاحب رسالة : « الأصول والفروع » أحد شراح العقيدة النصرانية ،  
في هذه القضية :

« قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل ،  
حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات والأرض<sup>(١)</sup> » .  
ولا نريد هنا أن ندخل في سرد تاريخي للأطوار وللطريقة التي تسالت بها هذه الفكرة  
إلى النصرانية . وهي إحدى ديانات التوحيد الأساسية . فنكتفي باستعراض الآيات  
القرآنية الواردة في سياق هذه الصورة . لتصحيح هذه الفكرة الدخيلة على ديانة  
التوحيد !

### رسول الله وكلمته

« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى  
ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فآمنوا بالله ورسوله ، ولا  
تقولوا ثلاثة . انتهوا خيراً لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد . له ما في  
السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلًا .. »

فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق ، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا

(١) نقلاً عن كتاب : « محاضرات في النصرانية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .



## الجزء السادس

على الله غير الحق ؛ فيزعموا له ولداً - سبحانه - كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة ..  
وقد تطورت عندهم فكرة البنوة ، وفكرة التثليث ، حسب رقي التفكير والمنحطاطه .  
ولكنهم قد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد لله ، والذي تزيد الثقافة  
العقلية ، أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر . ولكن عن « المحبة »  
بين الآب والابن . وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة .. بأنها « صفات » لله سبحانه في  
« حالات » مختلفة .. وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة  
إلى الإدراك البشري . فهم يحيلونها إلى معميات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب  
السموات والأرض ..

والله - سبحانه - تعالى عن الشراكة ؛ وتعالى عن المشابهة . ومقتضى كونه خالقاً  
يستتبع .. بذاته .. أن يكون غير الخلق . وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير  
بين الخالق والخلق . والمالك والمملك .. وإلى هذا يشير النص القرآني :  
« إنما الله إله واحد . سبحانه ! أن يكون له ولد ؟ له ما في السموات وما في  
الأرض .. »

وإذا كان مولد عيسى - عليه السلام - من غير أب عجيباً في عرف البشر ، خارقاً لما  
ألفوه ، فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المؤلف . والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود .  
والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سنة الله . والله يخلق السنة ويجريها ،  
ويصرفها حسب مشيئته . ولا حد لمشيئته .

والله - سبحانه - يقول - وقوله الحق - في المسيح :  
« إنما المسيح عيسى بن مريم ، رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه » ..  
فهو على وجه القصد والتحديد :  
« رسول الله » ..

شأنه في هذا شأن بقية الرسل . شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ، وبقية الرهط  
الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان ..  
« وكلمته ألقاها إلى مريم » .

وأقرب تفسير لهذه العبارة ، أنه سبحانه ، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر ، الذي  
يقول عنه في مواضع شتى من القرآن : إنه « كن .. فيكون » .. فلقد ألقى هذه الكلمة  
إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب - كما هو مألوف في حياة البشر غير

## سورة النساء

آدم - والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم ، لا عجب في أن تخلق عيسى - عليه السلام - في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله :

« وروح منه » ..

وقد نفخ الله في طينة آدم من قبل من روحه . فكان « إنسانا » .. كما يقول الله تعالى :  
« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .. وكذلك قال في قصة عيسى : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » .. فالأمر له سابقة .. والروح هنا هو الروح هناك .. ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله - إن آدم إله ، ولا أقنوم من أقانيم الإله . كما قالوا عن عيسى ؛ مع تشابه الحال - من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الحلقة كذلك .. بل إن آدم خلق من غير أب وأم ، وعيسى خلق مع وجود أم .. وكذلك قال الله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون .. »

يعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية التي عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله ، في أذهان أجيال وأجيال وهي كما يصورها القرآن - بسيطة بسيطة ، وواضحة مكشوفة .

إن الذي وهب لآدم .. من غير أبوين .. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه ، هو الذي وهب عيسى .. من غير أب .. هذه الحياة الإنسانية كذلك .. وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن ألوهية المسيح ، لمجرد أنه جاء من غير أب . وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك ! .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً :

« فآمنوا بالله ورسوله . ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيراً لكم » ..

وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسوله - ومن بينهم عيسى بوصفه رسولا ، ومحمد بوصفه خاتم النبيين - والانتفاء عن تلك الدعاوى والأساطير ، تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح :

« إنما الله إله واحد » ..

تشهد بهذا وحدة الناموس . ووحدة الخلق . ووحدة الطريقة : كن .. فيكون ويشهد بذلك العقل البشري ذاته . فالقضية في حدود إدراكه . فالعقل لا يتصور خالقاً

## الجزء السادس

يشبه مخلوقاته ، ولا ثلاثة في واحد . ولا واحداً في ثلاثة :  
« سبحانه أن يكون له ولد » ..

والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صورة النسل .. والله الباقي غني عن الامتداد في صورة الفانين ؛ وكل ما في السماوات وما في الأرض ملك له سبحانه على استواء :  
« له ما في السماوات وما في الأرض » ..

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود ؛ وهو يرعاهم أجمعين ، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم ! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة :

« وكفى بالله وكىلا » .

وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقيقة وتقريرها في شأن العقيدة . إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم ؛ وقيامه - سبحانه - عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم ؛ ليكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة ..

### ألوهية .. وعبودية

ويعضي السياق في البيان ؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح ، وهي الحقيقة الاعتقادية التي تنشأ في النفس من تقرير حقيقة الوجدانية .. حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق .. وأن هناك فقط : ألوهية وعبودية .. ألوهية واحدة ، وعبودية تشمل كل شيء ، وكل أحد ، في هذا الوجود .

ويصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى ، أو شركاً في الألوهية كشركته في الألوهية :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله - ولا الملائكة المقربون - ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ؛ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » ..

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وجدانية الله سبحانه ؛ وجدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور ؛ وعني بتقرير أن الله - سبحانه - ليس كمثل شيء . فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية . كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله - سبحانه - وكل شيء ( بما في ذلك كل حي ) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية .



## سورة النساء

ألوهية الله ، وعبودية كل شيء لله .. والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق - أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه - بحيث لا تدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض .

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هي الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون . فقررها في سيرة كل رسول ، وفي دعوة كل رسول ؛ وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام ، إلى عهد محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية - وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة - يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة ؛ وينسب لله - سبحانه - البنين والبنات ؛ أو ينسب لله - سبحانه - الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم ؛ اقتباساً من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات !

ألوهية وعبودية .. ولا شيء غير هذه الحقيقة . ولا قاعدة إلا هذه القاعدة . ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية ، وصلة العبودية بالألوهية ..

ولا تستقيم تصورات الناس - كما لا تستقيم حياتهم - إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش ، ومن كل شبهة ، ومن كل ظل !

أجل لا تستقيم تصورات الناس ، ولا تستقر مشاعرهم ، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم .. هو إله لهم وهم عبيده .. هو خالق لهم وهم مخلوق .. هو مالك لهم بمالك .. وهم كلهم سواء في هذه الصلة ، لا بنوة لأحد . ولا امتزاج بأحد .. ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه : التقوى والعمل الصالح .. وهذا في استطاع كل أحد أن يحاوله . فأما البنوة ، وأما الامتزاج فأنى بهما لكل أحد ؟ !

ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة ، إلا حين تستقر في أخلادهم إلى تلك الحقيقة : أنهم كلهم عبيد لرب واحد .. ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد .. فأما القربى إليه ففي تناول الجميع .. عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان ، لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان .. وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين الله والناس ؛ وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس .. وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام !

## الجزء السادس

فالمسألة - على هذا - ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين ، فحسب ، إنما هي كذلك مسألة نظام حياة ، وارتباطات مجتمع ، وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان .

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام .. ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد .. ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام « كنيسة » تستذل رقاب الناس ، بوصفها ممثلة لابن الله ، أم للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية ؛ المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم . ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم « بالحق الإلهي » زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله !

وقد ظل « الحق المقدس » للكنيسة والبابوات في جانب ؛ وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب .. ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم . حتى جاء « الصليبيون » إلى أرض الإسلام مغيرين . فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على « الحق المقدس » وكانت فيما بعد ثورات « مارتن لوثر » و « كالفن » و « زنجلي » المسماة بحركة الإصلاح .. على أساس من تأثير الإسلام ، ووضوح التصور الإسلامي ، ونفي القداسة عن بني الإنسان ؛ ونفي التفويض في السلطان .. لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام .. (١)

### كلمة الفصل

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته ؛ وألوهية روح القدس ( أحد الأقانيم ) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد الله ، أو ألوهية أحد مع الله ، في أي شكل من الأشكال .. يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبد الله ؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله . وأن الملائكة المقربين عبيد لله ؛ وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله . وأن جميع خلائقه ستحشر إليه . وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم . وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم .

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله - ولا الملائكة المقربون - ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فיעذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

(١) يراجع فصل « التوحيد » في كتاب « خصائص التصور الإسلامي »

## سورة النساء

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله . لأنه - عليه السلام - هو نبي الله ورسوله - خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ وأنها ماهيتان مختلفتان لا تتمزجان . وهو خير من يعرف أنه من خلق الله ؛ فلا يكون خلق الله كالله ؛ أو بعضاً من الله ! وهو خير من يعرف أن العبودية لله - فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة - لا تنقص من قدره . فالعبودية لله مرتبة لا يأبأها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء . وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله ، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده .. وكذلك الملائكة المقربون - وفيهم روح القدس جبريل - شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء - فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة ؟ !  
ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ..

فاستنكفهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه .. سلطان الألوهية على العباد .. شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين لله ..  
فأما الذين عرفوا الحق ، فأقروا بعبوديتهم لله ؛ وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار ؛ فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله .  
« وأما الذين استنكفوا واستكبروا فיעذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » ..

وما يريد الله - سبحانه - من عباده أن يقرؤا له بالعبودية ، وأن يعبدوه وحده ، لا لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم ، ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء . ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم ، كما تصح حالاتهم وأوضاعهم . فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر ، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع ، على أساس سليم قويم ، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار ، وما يتبع الإقرار من آثار ..

يريد الله - سبحانه - أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بينها في نفوس الناس وفي حياتهم ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض ؛ فلا يخضعوا إلا له ، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة ، وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه . يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ؛ ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه ؛ حين تعنوا له وحده الوجوه والجباه . يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطفاء ، حين يخرجون له راكعين ساجدين يذكرون الله ولا يذكرون أحداً

إلا الله . يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب . ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح ؛ فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربة إلى الله . يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فتكون لهم غيرة على سلطان الله في الأرض أن يدعو المدعون باسم الله أو باسم غير الله فيردون الأمر كله لله .. ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس ..

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة ؛ وتعليق أنظار البشر بالله وحده ؛ وتعليق قلوبهم برضاه ، وأعمالهم بتقواه ؛ ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه .. إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية ؛ وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض .. في هذه الحياة .. فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات ، في الآخرة ، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر . وفيض من عطاء الله . وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام ؛ وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعاً ؛ قبل أن يحرفها الأتباع ، وتشوها الأجيال .. يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان ؛ تتوافر له معه الكرامة والحرية ، والعدل والصلاح ، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء .

والذين يستنكفون من العبودية لله ، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي .. يذلون لعبودية الهوى والشهوة . أو عبودية الوهم والخرافة . ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم ، ويحنون لهم الجباه . ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله .. ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون الله .. هذا في الدنيا .. أما في الآخرة « فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » ..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان . وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان ..

برهان من الله

ومن ثم دعوة إلى الناس كافة - كتلك الدعوة التي أعقبت المواجهة مع أهل الكتاب



## سورة النساء

من اليهود في الدرس الماضي - أن الرسالة الأخيرة تحمل برهاناً من الله . وهي نور كشف للظلمات والشبهات . فمن اهتدى بها واعتصم بالله فسيجد رحمة الله تؤويه ؛ وسيجد فضل الله يشمله ؛ وسيجد في ذلك النور والهدى إلى صراط الله المستقيم :

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ؛ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً .. »

وهذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب الناس .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم . »

إن طابع الصنعة الربانية ظاهر فيه ؛ يفرقه عن كلام البشر وعن صنع البشر .. في مبناه وفي فحواه سواء . وهي قضية واضحة يدركها أحياناً من لا يفهمون من العربية حرفاً واحداً ، بصورة تدعو إلى العجب ..

كنا على ظهر الباخرة في عرض الاطلنطي في طريقنا إلى نيويورك ، حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب .. ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة وكثير من عمال المركب أهل النبوة . وألقيت خطبة الجمعة متضمنة آيات من القرآن في ثناياها . وسائر ركاب السفينة من جنسيات شتى متعلقون يشاهدون !

وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا - من بين من جاء يعبر لنا عن تأثيره العميق بالصلاة الإسلامية - سيدة يوغسلافية قارة من الشيوعية إلى الولايات المتحدة ! جاءتنا وفي عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفي صوتها رعشة . وقالت لنا في الإنجليزية ضعيفة : أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم .. ولكن ليس هذا ما جئت من أجله .. إنني لا أفهم من لغتكم حرفاً واحداً . غير أنني أحس فيها إيقاعاً موسيقياً لم أعهد في أية لغة .. ثم .. أن هناك فقرات مميزة في خطبة الخطيب . هي أشد إيقاعاً . ولها سلطان خاص على نفسي !!!

وعرفت طبعاً أنها الآيات القرآنية ، الميزة الإيقاع ذات السلطان الخاص !

لا أقول : إن هذه قاعدة عند كل من يسمع ممن لا يعرفون العربية .. ولكنها ولا شك ظاهرة ذات دلالة !

فأما الذين لهم ذوق خاص في هذه اللغة ، وحس خاص بأساليبها ، فقد كان من أمرهم ما كان ، يوم واجههم محمد ﷺ بهذا القرآن .. وقصة الأخنس بن شريق ، وأبي سفيان بن حرب ، وأبي جهل وعمر بن هشام ، في الاستماع سرّاً للقرآن ، وهم به

## الجزء السادس

مأخوذون قصة مشهورة<sup>(١)</sup> . وهي احدى القصص الكثيرة .. والذين لهم ذوق في اي جيل يعرفون ما في القرآن من خصوصية وسلطان وبرهان من هذا الجانب .. فأما فحوى القرآن .. التصور الذي يحمله . والمنهج الذي يقرره . والنظام الذي يرسمه . و «التصميم» الذي يضعه للحياة .. فلا نملك هنا ان نفصله .. ولكن فيه البرهان كل البرهان على المصدر الذي جاء منه ، وعلى انه ليس من صنع الانسان ، لانه يحمل طابع صنعة كاملة ليس هو طابع الانسان<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا القرآن نور :

« وانزلنا اليكم نوراً مبيناً » ..

نور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة ، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً مرسوماً .. في داخل النفس وفي الحياة سواء .. حيث تجدد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولاً ؛ فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحاً .. حيث يتلاشى الغبش وينكشف ؛ وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبدئية ؛ وحيث يعجب الانسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة ١٢

وحين يعيش الانسان بروحه في الجو القرآني فترة ؛ ويتلقى منه تصورات وقيم وموازنه ، يحس يسراً وبساطة ووضوحاً في رؤية الأمور . ويشعر أن مقررات كثيرة

---

(١) من الجزء الاول من السيرة لابن هشام ص ٣٣٧ : نشر المكتبة التجارية : مطبعة حجازي : قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري . انه حدث ، ان ابا سفيان ابن حرب رابا جهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ؛ خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - وهو يصلي من الليل في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ؛ وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلأموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفاهتهم لأوقعتم في نفسهم شيئاً . ثم انصرفوا . حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له . حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك .. ثم تفرقوا ... الى آخر الخبر .

(٢) يراجع في الظلال في مواضع متفرقة ما جاء عن هذا المنهج الذي يحمله القرآن على سبيل المثال ، مقدمة الجزء الاول من الطبعة الثانية بعنوان : «في ظلال القرآن» وسورة الحجرات ص ١٢٤ - ١٥١ جزء ٢٦ سورة الذاريات ص ٥ - جزء ٢٧ ، سورة العصر ص ٢٣٥ - ٢٤٥ جزء ٣٠ ويراجع كتاب « هذا الدين » للمؤلف ، وكتاب « منهج التربية الاسلامية » لمحمد قطب ، وكتاب « منهج التربية في القرآن » لمحمد شديد .

## سورة النساء

كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوء ؛ وتلتزم حقائقها في يسر ؛ وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة لتبدو في براءتها الفطرية ، ونصاعتها كما خرجت من يد الله ..

ومها قلت في هذا التعبير : « وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً » .. فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته ، لمن لم يذوق طعمه ولم يجده في نفسه ! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني ! ولا بد من التذوق الذاتي ! ولا بد من التجربة المباشرة !  
« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً » ..

والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به .. متى صح الإيمان ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له ؛ فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده . وهو صاحب السلطان والقدرة وحده .. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل . رحمة في هذه الحياة الدنيا - قبل الحياة الأخرى - وفضل في هذه العاجلة - قبل الفضل في الآجلة - فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الضلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشروع . كما انه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه ؛ في كرامة وحرية ونظافة واستقامة - كما أسلفنا - حيث يعرف كل انسان مكانه على حقيقته .. عبد لله وسيد مع كل من عداه .. وليس هذا في أي نظام آخر غير نظام الإيمان - كما جاء به الاسلام - هذا النظام الذي يخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . حين يوحد الألوهية ؛ ويسوي بين الخلائق جميعاً في العبودية . وحيث يجعل السلطان لله وحده والحاكية لله وحده ؛ فلا يخضع بشر لتشريع بشر مثله ، فيكون عبداً له مهما تحرر !

فالذين آمنوا في رحمة من الله وفضل ، في حياتهم الحاضرة وفي حياتهم الآجلة سواء ..  
« ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً » .

وكلمة « اليه » .. تخلع على التعبير حركة مصورة . اذ ترسم المؤمنين ويد الله تنقل خطاهم في الطريق الى الله على استقامة ؛ وتقربهم اليه خطوة خطوة .. وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن بالله على بصيرة ، فيعتصم به على ثقة .. حيث يحس في كل لحظة أنه يهتدي ؛ وتتضح أمامه الطريق ؛ ويقترّب فعلاً من الله كأنما هو يخطو اليه في طريق مستقيم .

انه مدلول يذاق .. ولا يعرف حتى يذاق !

« يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ : اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ . إِنْ أَمْرُوهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ . فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ . وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ . يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا . وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ..

وهكذا تختم السورة التي بدأت بعلاقات الأسرة ، وتكالفها الاجتماعي ؛ وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثناياها .. تختم بتكملة أحكام الكلالة - وهي على قول أبي بكر رضي الله عنه وهو قول الجماعة : ما ليس فيها ولد ولا والد .

وقد ورد شطر هذه الأحكام في أول السورة ، وهو الشطر المتعلق بوراثة الكلالة من جهة الرحم حين لا توجد عصبه . وقد كان نصه هناك : « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً - أَوْ امْرَأَةٌ - وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ . فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ - مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مِثْلِهَا - وَصِيَّةٍ مِنْ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ » ..

فالآن يستكمل الشطر الآخر في وراثه الكلالة .. فان كانت للمتوفى ، الذي لا ولد له ولا والد ، أخت شقيقة أو لأب ، فلها نصف ما ترك أخوها . وهو يرث تركتها - بعد أصحاب القروض - ان لم يكن لها ولد ولا والد كذلك . فان كانتا أختين شقيقتين أو لأب فلها الثلثان مما ترك . وان تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين - حسب القاعدة العامة في الميراث - والإخوة والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة لأب حين يحتممون .

وتختم آية الميراث ، وتختم معها السورة ، بذلك التعقيب القرآني الذي يرد الأمور كلها لله ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات ، والأموال وغير الاموال بشريعة الله : « يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ..

صيغة جامعة شاملة « بكل شيء » من الميراث وغير الميراث . من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات ، من الأحكام والتشريعات .. فإما اتباع بيان الله في كل شيء ، وأما

## سورة النساء

الضلال .. طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما : طريق بيان الله فهو الهدى . وطريق  
من عداه فهو الضلال ..  
وصدق الله : فماذا بعد الحق الا الضلال ؟



# سُورَةُ الْمَائِدَةِ

## مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاسُهَا ١٢٠

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### هذا القرآن

نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ لينشئ به أمة ؛ وليقيم به دولة ؛ ولينظم به مجتمعا ؛ وليربي به ضامرا وأخلاقا وعقولا ؛ وليحدد به روابط ذلك المجتمع ؛ فيما بينه ؛ وروابط تلك الدولة مع سائر الدول ؛ وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم .. وليربط ذلك كله برباط قوي واحد ، يجمع متفرقه ، ويؤلف أجزاءه ، ويشدها كلها الى مصدر واحد ، والى سلطان واحد ، والى جهة واحدة .. وذلك هو الدين ، كما هو في حقيقته عند الله ؛ وكما عرفه المسلمون . أيام كانوا « مسلمين » !

ومن ثم نجد في هذه السورة - كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها - موضوعات شتى ؛ الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه : انشاء أمة ، واقامة دولة ، وتنظيم مجتمع ؛ على أساس من عقيدة خاصة ، وتصور معين ، وبناء جديد .. الأصل فيه افراد الله - سبحانه - بالالوهية والربوبية والقوامة والسلطان ؛ وتلقي منهج الحياة وشريعته ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك ..

وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية ، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم .. الى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها ، وطبيعة طريقها ومآلها في هذا الطريق من مزالق وأشواك ، وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين .. الى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة ؛ وتربطها بربها . الى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعا ؛ والتشريعات الدولية التي تنظم علاقاتها بغيرها .. الى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح ؛ أو ألوانا من الأعمال

## سورة المائدة

والمسالك .. كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة يمثل معنى « الدين » كما أراده الله وكما فهمه المسلمون ، أيام كانوا مسلمين .

على أن السياق القرآني - كما يبدو في هذه السورة وكما رأيناه في سورتي آل عمران والنساء من قبل لا يكفي بهذا المعنى الضمني المستفاد من سوق هذه الموضوعات كلها في إطار سورة ؛ وسوقها كذلك في شتى سور القرآن المتفرقة التي تؤلف هذا الكتاب ، وتمثل المنهج الرباني الذي يتضمنه .. لا يكفي السياق القرآني هنا بهذا المعنى الضمني ؛ إنما ينص عليه نصاً ؛ ويؤكد تأكيده ؛ ويتكفى عليه اتكاءً شديداً وهو ينص على أن هذا كله هو « الدين » ؛ وأن الإقرار به كله هو « الإيمان » ؛ وأن الحكم به كله « هو الإسلام » .. وأن الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون . الظالمون . الفاسقون .. وأنهم - إذن - يبتغون حكم الجاهلية ولا يبتغي حكم الجاهلية المؤمنون المسلمون .

وهذا الأصل الكبير هو الذي يبرز في هذه السورة بوضوح واضحاً مقررأ منصوصاً عليه نصاً ، إلى جانب تصحيح التصور الاعتقادي الذي يقوم عليه هذا الأصل الكبير .. ويحسن أن نصور من سياق النصوص القرآنية في الصورة كيف برز هذان الأصلان الكبيران في سياقها كله ، وكيف يقوم هذا على ذاك قياماً طبيعياً ومنطقياً .

إن السياق القرآني يستند في تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو « الإسلام » ؛ وأن ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو « الدين » إلى أن الله هو « الإله الواحد » لا شريك له في ألوهيته ؛ وإلى أن الله هو الخالق الواحد لا شريك له في خلقه . وإلى أن الله هو المالك الواحد لا شريك له في ملكه .. ومن ثم يبدو حتمياً ومنطقياً ألا يقضى شيء إلا بشرعه وإذنه . فالخالق لكل شيء ، المالك لكل شيء ، هو صاحب الحق ، وصاحب السلطان في تقرير المنهج الذي يرتضيه للملك وخلقته .. هو الذي يشرع فيما يملك ؛ وهو الذي يطاع شرعه وينفذ حكمه ؛ وإلا فهو الخروج والمعصية والكفر .. إنه هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب ؛ كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواء بسواء . والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التي يقررها ؛ ويتبعون النظام الذي يرتضيه . هذه كتلك سواء بسواء . وهم يعبدونه بإقامة الشعائر ، ويعبدونه باتباع الشرائع ، بلا تفرقة بين الشعيرة والشرعية ؛ فكلتاهما من عند الله ، الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه . بما أنه هو الإله الواحد . المالك الواحد . العليم بما في السماوات والأرض جميعاً .. ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبي ؛ لأنه هو دين الله ، ولا دين سواه .

## الجزء السادس

ومن ثم تتوارد النصوص هكذا في ثنايا السورة ؛ في تقرير الألوهية الواحدة ونفي كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله - سبحانه - وبين غيره . أو بين خصائص الألوهية ، وخصائص العبودية على الإطلاق :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم . لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم : قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ والله ملك السماوات والأرض وما بينهما . يخلق ما يشاء . والله على كل شيء قدير . وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ! قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذب لمن يشاء . والله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير . يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شيء قدير » . . .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى بن مريم . وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . . . . »  
ولأن الله هو وحده الإله ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده المالك . . فهو وحده

الذي يشرع ، وهو وحده الذي يحلل ويحرم ، وهو وحده الذي يطاع فيما يشرع وفيما يحرم أو يحلل . كما أنه هو الذي يعبد ، وهو وحده الذي يتوجه إليه العباد بالشعائر . . . وقد أخذ الميثاق على عباده بهذا كله ؛ فهو يطالب الذين آمنوا أن يفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه ، ويحذرهم عواقب نقض الميثاق وخلف العقود ؛ كما وقع من بني إسرائيل قبلهم :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . . »

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً . . . . »

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ، إذ قلتم : سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا

## سورة المائدة

يحرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا • اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله • إن الله خير بما تعملون •

« ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ؛ وقال الله : إني معكم ، لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزرتوهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لا كفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار • فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل • فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به • ولا تزال تطلع على خائنة منهم – إلا قليلاً منهم – فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين • ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

ويتضمن سياق السورة أحكاماً شرعية متنوعة : منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد • ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام وفي المسجد الحرام • ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح • ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة • ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه • ومنها ما يتعلق بالحدود في السرقة وفي الخروج على الجماعة المسلمة • ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام • ومنها ما يتعلق بالكفارات في قتل الصيد مع الإحرام وفي اليمين • ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت • ومنها ما يتعلق بالجيرة والسائبة والوصيلة والحامي من الأنعام ، ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص في التوراة مما جعله الله كذلك شريعة للمسلمين • • وهكذا تلتقي الشرائع بالشعائر في سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل ! •

وإلى جوار هذه الأحكام الشرعية المتنوعة يجيء الأمر بالطاعة والتقيد بما شرعه الله وما أمر به ، والنهي عن التحريم والتحليل إلا بإذنه ، ويجيء النص على أن هذا هو الدين الذي ارتضاه الله للأمة المؤمنة بعد أن أكمله وأتم به نعمته :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً • • »

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا • • • »

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا • • • »

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً • • »

## الجزء السادس

ولا يدع السياق أمر الطاعة والاتباع في التحليل والتحريم مجملًا . إنما هو ينص نصًا على وجوب الحكم بما أنزل الله - دون سواه - وإلا فهو الكفر والظلم والفسق . . . وتتوارد النصوص القرآنية في هذا الأمر حاسمة جازمة على هذا النسق .

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون إلى الكفر؛ من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه ؛ يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه وإنا لم تؤتوه فاحذروا - ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا - أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أ كالون للسحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئًا . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . . . وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصداقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل ، فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . . . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه . . . فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . . . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ؛ ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . . . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . . . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإنا كثيرًا من الناس لفاسقون . . . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ » . . .

وهكذا تبين القضية . . . إله واحد . وخالق واحد . ومالك واحد . . . وإذن فحاكم



## سورة المائدة

واحد . ومشروع واحد . ومتصرف واحد .. وإذن فشرعية واحدة ، ومنهج واحد ، وقانون واحد .. وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله ، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله ، فهو كفر وظلم وفسوق .. وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعاً عليه ، وكما جاء به كل الرسل من عنده . أمة محمد والأمم قبلها على السواء ..

ولم يكن بد أن يكون « دين الله » هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله الا الله .

وهذه الحتمية : حتمية هذا التلازم بين « دين الله » و « الحكم بما أنزل الله » لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية . وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . إنما السبب الأول والرئيسي ، والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بالوهمية الله ، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عن عداه . وهذا هو « الإسلام » بمعناه اللغوي : « الاستسلام » وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان .. الإسلام لله .. والتجرد عن ادعاء الألوهية معه ؛ وادعاء أخص خصائص الألوهية ، وهي السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعييدهم بالشرعية والقانون .

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله . أو حتى شريعة الله نفسها بنصها ، إذا هم نسبوها لأنفسهم ، ووضعوا عليها شاراتهم ؛ ولم يردوها لله ؛ ولم يطبقوها باسم الله ، إذعائاً لسلطانه ، واعترافاً بألوهيته ؛ وبتفرده بهذه الألوهية . التفرد الذي يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية ، إلا تطبيقاً لشرعية الله ، وتقريراً لسلطانه في الأرض .

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات في سياق السورة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .. ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله - سبحانه - ورفضهم لإفراد الله - سبحانه - بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ؛ ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمم القرآن بالكفر والظلم والفسق ، أخذاً من رفضهم لألوهية الله - حين يرفضون حاكميته المطلقة ؛ وحين يجعلون لأنفسهم

## الجزء السادس

خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله .  
وعلى هذا المعنى يتكئ سياق السورة ونصوصها الواضحة الصريحة كذلك .

### دور الأمة المسلمة

شأن آخر يتناوله سياق السورة ؛ غير بناء التصور الاعتقادي الصحيح ، وبيان الانحرافات التي تتلبس به عند أهل الكتاب وأهل الجاهلية ؛ وغير بيان معنى «الدين» وأنه الاعتقاد الصحيح والطاعة والتلقي من الله وحده في التحريم والتحليل ، والحكم بما أنزل الله وحده دون تعديل أو تحريف أو تبديل .

ذلك هو شأن هذه الأمة المسلمة ؛ ودورها الحقيقي في هذه الأرض ؛ وموقفها تجاه أعدائها ؛ وكشف هؤلاء الأعداء ، وكيدهم لهذه الأمة ولهذا الدين ؛ وبيان ما هم عليه من الضلالة والانحراف في عقيدتهم ؛ وما هم عليه كذلك من العداء للجماعة المسلمة وإجماع الكيد لها .. إنها المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة ؛ والتي سبق الحديث عنها في السور الثلاث الطوال السابقة ..

إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر ؛ وهو يصدق ما بين يديه من الكتاب في أصل الاعتقاد والتصور ؛ ولكنه - بما أنه هو الكتاب الأخير - يهيمن على كل ما سبقه . وإليه تنتهي شريعة الله التي ارتضاها لعباده إلى يوم الدين ؛ فما أقره من شرائع أهل الكتاب قبله فهو من شرع الله ؛ وما شرعه فقد فقد صفته هذه وإن كان وارداً في كتاب من الكتب المنزلة :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ..  
« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه » ..  
ومن ثم فإن دور هذه الأمة هو أن تكون الوصية على البشرية ؛ تقيم العدل في الأرض ، غير متأثرة بمودة أو شئان ، وغير ناظرة في إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس فهذه هي تكاليف القوامه والوصاية والهيمنة .. وغير متأثرة كذلك بانحرافات الآخرين وأهوائهم وشهواتهم ؛ فلا تنحرف فيه شعرة عن منهجها وشريعتها وطريقها القويم ؛ لاسترضاء أحد أو لتأليف قلب ؛ وغير ناظرة إلا إلى الله وتقواه :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ؛ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » ..

## سورة المائدة

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ؛ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خير بما تعملون » .  
« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ؛ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » ..  
« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون » .

ومن مقتضيات أن هذه الأمة هي وارثة الرسالات ؛ وصاحبة الرسالة الأخيرة ، والدين الأخير ؛ وصاحبة الوصاية والقوامة على البشرية بهذا الدين الأخير .. ألا تتولى من يكفرون بهذا الدين ؛ ومن يتخذون فرائضه وشعائره هزوا ولعباً . إنما تتولى الله ورسوله ، ولا تترك إلى ولاية غير المؤمنين بالله ورسوله . فإنما هي أمة بعقيدتها لا بجنسها ، ولا بأرضها ، ولا بموروثاتها الجاهلية . إنما هي « أمة » بهذه العقيدة الجديدة ، وبهذا المنهج الرباني ، وبهذه الرسالة الأخيرة .. وهذه هي آصرة التجمع الوحيدة :

« اليوم ينشئ الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ؛ بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ..  
أما أعداء هذه الأمة فهم أعداء الهدى ، وأعداء منهج الله الصحيح دائماً . وهم لا يريدون رؤية الحق ؛ كما أنهم لا يريدون ترك العداء المستحكم في قلوبهم لهذا الحق من قبل ومن بعد . وعلى الأمة المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم ، من تاريخهم القديم مع رسل الله ؛ ومن موقفهم الجديد منها ومن رسولها ودينها القويم :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ؛ وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ؛ وقال الله : إني معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزرتوهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لا كفرن عنكم سيئاتكم ؛ ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم . فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين .. ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ؛ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .. »

« وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحد من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ؛ ولا تتردوا على أدباركم فتتقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلا عليهما الباب ؛ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون . قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ؛ فلا تأس على القوم الفاسقين .. »

... « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .. ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون .. »

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ؛ ومن الذين هادوا . سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ؛ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته قلن تملك له من الله شيئاً . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت ... الخ .. »

« قل : يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل

## سورة المائدة

من قبل ؛ وأن أكثركم فاسقون ؟ قل : هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت .. أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ..»

« وإذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ؛ والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون ! وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ! بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ؛ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ؛ ويسعون في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين . »

« قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين .. »

« لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً ؛ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا . ثم تاب الله عليهم . ثم عموا وصموا .. كثير منهم .. والله بصير بما يعملون . »

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون .. »

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قالوا قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون .. الخ . »

### موقف الامة المسلمة تجاه المعسكرات

وهذه الحملة الكاشفة على أعداء الجماعة المسلمة ؛ والتركيز فيها على اليهود والمشركين



## الجزء السادس

بصفة خاصة مع إشارات إلى المنافقين والنصارى أحياناً ، تؤدي بنا إلى شأن آخر مما تعالجه هذه السورة :

إنها تعالج موقفاً حاضراً في حياة الجماعة المسلمة في المدينة يومذاك .. كما تعالج موقف الأمة المسلمة ، في تاريخها كله تجاه المعسكرات المادية لها .. وإنها هي هي .. على مدار الزمان !

ففي أية فترة تاريخية من حياة الجماعة المسلمة في المدينة تنزلت هذه السورة ؟ في روايات كثيرة أن هذه السورة نزلت بعد سورة الفتح .. وسورة الفتح معروف أنها نزلت في الحديبية في العام السادس من الهجرة .. وفي بعض هذه الروايات أنها نزلت مرة واحدة فيما عدا الآية الثالثة ، التي فيها : « اليوم أكملت لكم دينكم ... » فإنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة ..

ولكن المراجعة الموضوعية للسورة مع أحداث السيرة تكاد تنفي هذه الرواية التي تقول : إن السورة نزلت بكاملها بعد « الفتح » ؛ فضلاً على أن هناك حادثة من حوادث السيرة في غزوة بدر ، تقطع بأن الآيات الخاصة بموقف بني إسرائيل مع موسى - عليه السلام - من دخول الأرض المقدسة ، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر في السنة الثانية الهجرية . وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن معاذ الأنصاري - رضي الله عنه - في رواية ، وعلى لسان المقداد بن عمرو في رواية ، وهو يقول لرسول الله ﷺ : « إذن والله لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .. » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون ... الخ » ..

أما المراجعة الموضوعية فتصور الموقف بأنه كانت لليهود - في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآيات الخاصة بهم - قوة ونفوذ وعمل في المدينة ، وفي الصف المسلم ؛ مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم . وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بني قريظة ، عقب غزوة الخندق ، وقد تطهرت الأرض من القبائل الثلاثة اليهودية القوية : بني قينقاع ، وبني النضير وبني قريظة . فلم يكن لهم بعد الحديبية ما يدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحد . ثم لقد كانت فترة المهادنة معهم والخطة السلمية قد انتهت ولم يعد لها موضع بعد الذي بدا منهم . فقول الله تعالى لنبيه الكريم : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم - إلا قليلاً منهم - فاعف عنهم واصفح .. » لا بد سابق على هذه الفترة . وكذلك أمره بالحكم بينهم أو الإعراض عنهم ..

## سورة المائدة

ومن هذه الملاحظات يترجح لدينا أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح ؛ بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك ، كما أن الآية التي فيها قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » لا بد أن تكون قد نزلت بعد ذلك . فقد كانت آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال . وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء في إحدى الروايات

وكما قلنا من قبل في تقديم سورة البقرة <sup>(١)</sup> ، وتقديم سورة آل عمران <sup>(٢)</sup> ، وتقديم سورة النساء <sup>(٣)</sup> ، نقول هنا عن المعركة التي كان القرآن يخوضها ، بالجماعة المسلمة ، مع أعداء هذه الجماعة ، وأعداء دينها ، وفي مقدمتهم اليهود والمشركون والمنافقون ، وذلك مع بناء التصور الإسلامي في نفوس المؤمنين ؛ ومع تنظيم المجتمع الإسلامي بالتوجيهات والتشريعات .. كل ذلك في وقت واحد ؛ وفي منهج واحد ؛ وفي نفس واحد !  
وأهم قواعد البناء : تخليص عقيدة التوحيد من كل غبش . وبيان معنى « الدين » وأنه هو منهج الحياة ؛ وأن الحكم بما أنزل الله وحده ، والتلقي في شئون الحياة كلها من الله وحده هو الإيمان ، وهو الإسلام ؛ وبغير هذا لا يكون هناك توحيد لله . وتوحيد الله هو إفراة - سبحانه - بالألوهية ؛ وبخصائص الألوهية بحيث لا يكون له فيها شريك . والحاكمة والتشريع للناس من خصائص الألوهية ، كعبيدهم بالعبادة الشعائرية سواء بسواء .. وهذه السورة أشد تركيزاً على هذه النقطة كما أسلفنا ..

### طابع التقرير والجسم

ومع تقارب الموضوعات التي تعالجها السور الطوال الثلاث السابقة مع الموضوعات التي تعالجها هذه السورة - كما يبدو من هذا الاستعراض السريع - فإنه تبقى لكل سورة « شخصيتها » وجوها وظلالها وأسلوبها الخاص في معالجة هذه الموضوعات ، والزوايا التي تعالجها منها ، والأضواء التي تسلطها عليها ؛ ونوع المؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ بحيث تتميز « شخصية » كل سورة تماماً ؛ ويبرز طابعها الخاص .  
والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التقرير والجسم في التعبير .. سواء في ذلك

(١) ص ٣٧-٣٠ من الجزء الأول الطبعة الثانية المنقحة .

(٢) ص ١١٩-١٣٢ من الجزء الثاني من الطبعة نفسها .

(٣) ص ٢٠١-٢٢٩ من الجزء الرابع .

## الجزء السادس

الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها التقرير والحسم في القرآن كله؛ أو المبادئ والتوجيهات، التي قد تتخذ في غير هذه السورة سوراً أخرى؛ ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة؛ في أسلوب التقرير الدقيق، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة.. من بدئها إلى منتهاها.

### شريعة خالدة

وقبل أن ننهي هذا التقديم للسورة لا يسعنا إلا أن نبرز الحقيقة التي تتضمنها الآية الثالثة منها.. فإن قول الله سبحانه لهذه الأمة: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».. يتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعتها، وشرائع ارتباطاتها ومصالحها إلى يوم القيامة، كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية؛ فلا تعديل فيها ولا تغيير؛ فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره. وتعديل شيء فيه كإنكاره كله؛ لأنه إنكار لما قرره الله من تمامه وكماله؛ وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه.. أما العدول عنه كله إلى منهج آخر، ونظام آخر، وشريعة أخرى؛ فلا يحتاج منا إلى وصف، فقد وصفه الله - سبحانه - في السورة. ولا زيادة بعد وصف الله - سبحانه - لمستزيد..

إن هذه الآية تقرر - بما لا مجال للجدال فيه - أنه دين خالد، وشريعة خالدة. وأن هذه الصورة التي رضىها الله للمسلمين ديناً هي الصورة الأخيرة.. إنها شريعة ذلك الزمان وشريعة كل زمان؛ وليس لكل زمان شريعة، ولا لكل عصر دين.. إنما هي الرسالة الأخيرة للبشر، وقد اكتملت وتمت، ورضيها الله للناس ديناً. فمن شاء أن يبدل، أو يحور، أو يغير، أو يطور! إلى آخر هذه التعبيرات التي تلاك في هذا الزمان، فليبتغ غير الإسلام ديناً.. «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه».

إن هذا المنهج الإلهي المشتمل على التصور الاعتقادي، والشعائر التعبدية، والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله؛ يحكم ويصرف ويهيمن على نشاط الحياة كله؛ وهو يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره وترتقي وتتطور؛ دون خروج على أصل فيه ولا فرع، لأنه لهذا جاء، ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين..

إن تطور الحياة في ظل هذا المنهج لا يعني مجافاتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع؛

## سورة المائدة

ولكن يعني أن طبيعة المنهج تحتوي كل الإمكانيات التي تسع ذلك التطور ؛ بلا خروج على أصل أو فرع . ويعني أن كل تطور في الحياة كان محسوباً حسابه في ذلك المنهج ؛ لأن الله - سبحانه - لم يكن يخفى عليه - وهو يضع هذا المنهج في صورته الأخيرة ، ويعلم إكاله وارتضائه للناس ديناً - أن هناك تطورات ستقع ، وأن هناك حاجات ستبرز ، وأن هناك مقتضيات ستطلبها هذه التطورات والحاجات . فلا بد إذن أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جميعاً ..

وما قدر الله حق قدره من يظن غير هذا في أمر من هذه الأمور ..  
وبهذا ننهي هذا التقديم العام المجمل للسورة ، ونأخذ في التفصيل ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةٌ أَلاَّ نَعَامَ - إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ - غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .  
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ، وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَلَا الْهَدْيَ ،  
 وَلَا الْقَلَائِدَ ، وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ،  
 وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ  
 الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ؛ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ؛ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ  
 وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ ، وَالْدَّمُ ، وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ،  
 وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ - إِلَّا مَا  
 ذَكَّيْتُمْ - وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ . ذَلِكَ فِسْقٌ .  
 الْيَوْمَ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ  
 لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . فَمَنِ اضْطُرَّ  
 فِي مَخْمَصَةٍ - غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ - فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« يَسْأَلُونَكَ : مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ؟ قُلْ : أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ  
 الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ،  
 وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . الْيَوْمَ  
 أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ  
 حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
 الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ - إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ ، غَيْرَ مُسَافِحِينَ .



وَلَا تُتَّخِذِي أُنْحَادًا - وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي  
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ  
إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُمْ  
جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى، أَوْ عَلَى سَفَرٍ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ  
الْمَخَائِطِ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً، فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا، فَامْسَحُوا  
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنْهُ . مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ،  
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .  
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ: سَمِعْنَا  
وَأَطَعْنَا، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ  
شَنَّانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . ائْتَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ  
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا  
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُؤْمِنُونَ ) .

ضوابط للحياة

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ..

## الجزء السادس

إنه لا بد من ضوابط للحياة .. حياة المرء مع نفسه التي بين جنبيه ؛ وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة .. الناس من الأقربين والأبعدين ، من الأهل والعشيرة ، ومن الجماعة والأمة ؛ ومن الأصدقاء والأعداء .. والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر .. والأشياء مما يحيط بالإنسان في هذا الكون العريض .. ثم .. حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهي أساس كل حياة .

والإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس . يقيمها ويحددها بدقة ووضوح ؛ ويربطها كلها بالله سبحانه ؛ ويكفل لها الاحترام الواجب ، فلا تنتهك ، ولا يستهزأ بها ؛ ولا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات المتقلبة ؛ ولا للمصالح العارضة التي يراها فرد ، أو تراها مجموعة ، أو تراها أمة ، أو يراها جيل من الناس فيحطمون في سبيلها تلك الضوابط .. فهذه الضوابط التي أقامها الله وحددها هي « المصلحة » ما دام أن الله هو الذي أقامها للناس .. هي المصلحة ولو رأى فرد ، أو رأت مجموعة أو رأت أمة من الناس أو جيل أن المصلحة غيرها ! فالله يعلم والناس لا يعلمون ! وما يقرره الله خير لهم مما يقررون ! وأدنى مراتب الأدب مع الله - سبحانه - أن يتهم الإنسان تقديره الذاتي للمصلحة أمام تقدير الله . أما حقيقة الأدب فهي ألا يكون له تقدير إلا ما قدر الله . وألا يكون له مع تقدير الله ، إلا الطاعة والقبول والاستسلام ، مع الرضى والثقة والاطمئنان ...

هذه الضوابط يسميها الله « العقود » .. ويأمر الذين آمنوا به أن يوفوا بهذه العقود .. وافتتاح هذه الصورة بالأمر بالوفاء بالعقود ، ثم المضي بعد هذا الافتتاح في بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح . وفي بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية . وفي بيان حقيقة العقيدة الصحيحة . وفي بيان حقيقة العبودية وحقيقة الألوهية . وفي بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنحل . وفي بيان تكاليف الأمة المؤمنة في القيام لله والشهادة بالقسط والوصاية على البشرية بكتابتها المهيمن على كل الكتب قبلها ، والحكم فيها بما أنزل الله كله ؛ والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله ؛ والحذر من عدم العدل تأثراً بالمشاعر الشخصية والمودة والشنآن ...

افتتاح السورة على هذا النحو ، والمضي فيها على هذا النهج يعطي كلمة « العقود » معنى أوسع من المعنى الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التي قررها الله .. وفي أولها عقد الإيمان بالله ؛ ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه ، ومقتضى العبودية لألوهيته .. هذا العقد الذي تنبثق منه ، وتقوم عليه سائر

## سورة المائدة

العقود ؛ وسائر الضوابط في الحياة .

وعقد الأيمان بالله ؛ والاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته ؛ ومقتضيات هذا الاعتراف من العبودية الكاملة والالتزام الشامل والطاعة المطلقة والاستسلام العميق .. هذا العقد أخذ به الله ابتداءً على آدم - عليه السلام - وهو يسلمه مقاليد الخلافة في الأرض ، بشرط وعقد هذا نصه القرآني : « قلنا : اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. فهي خلافة مشروطة باتباع هدى الله الذي ينزله في كتبه على رسله ؛ وإلا فهي المخالفة لعقد الخلافة والتبليغ . المخالفة التي تجعل كل عمل مخالف لما أنزل الله ، باطلاً بطلاناً أصلياً ، غير قابل للتصحيح المستأنف ! وتحتم على كل مؤمن بالله ، يريد الرفاء بعقد الله ، أن يرد هذا الباطل ، ولا يعترف به ؛ ولا يقبل التعامل على أساسه . وإلا فما أوفى بعقد الله .

ولقد تكرر هذا العقد - أو هذا العهد - مع ذرية آدم . وهم بعد في ظهور آبائهم . كما ورد في السورة الأخرى : « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل وكننا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » .. فهذا عقد آخر مع كل فرد ؛ عقد يقرر الله - سبحانه - أنه أخذ على بني آدم كلهم وهم في ظهور آبائهم .. وليس لنا أن نسأل : كيف ؟ لأن الله أعلم بخلقهم ؛ وأعلم كيف يخاطبهم في كل طور من أطوار حياتهم . بما يلزمهم الحجة . وهو يقول : إنه أخذ عليهم هذا العهد ، على ربوبيته لهم .. فلا بد أن ذلك كان ، كما قال الله سبحانه .. فإذا لم يفوا بتعاقدهم هذا مع ربهم لم يكونوا أوفياء !

ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل - كما سيجيء في السورة - يوم تتق الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم .. وسنعلم - من السياق - كيف لم يفوا بالميثاق ؛ وكيف نالهم من الله ما ينال كل من ينقض الميثاق .

والذين آمنوا بمحمد ﷺ قد تعاقدوا مع الله - على يديه - تعاقداً عاماً على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله .  
وبعضهم وقعت له بعد ذلك عقود خاصة قائمة على ذلك التعاقد العام .. ففي بيعة العقبة الثانية التي ترتبت عليها هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، كان هنا عقد مع

## الجزء السادس

نقباء الأنصار .. وفي الحديبية كانت هناك عقد الشجرة وهو « بيعة الرضوان » .  
وعلى عقد الإيمان بالله ، والعبودية لله ، تقوم سائر العقود .. سواء ما يختص منها  
بكل أمر وكل نهي في شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس والأحياء  
والأشياء في هذا الكون في حدود ما شرع الله - فكلها عقود ينادي الله الذين آمنوا ،  
بصفتهم هذه ، أن يوفوا بها . إذ أن صفة الإيمان ملازمة لهم بهذا الوفاء ، مستحثة لهم  
كذلك على الوفاء .. ومن ثم كان هذا النداء :  
« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ..  
ثم يأخذ في تفصيل بعض هذه العقود :

### حلال .. وحرام

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. أحلت لكم بهيمة الأنعام - إلا ما يتلى عليكم -  
غير محلي الصيد وأنتم حرم . إن الله يحكم ما يريد .. يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ،  
ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم  
ورضواناً . وإذا حللتم فاصطادوا ، ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام  
أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله .  
إن الله شديد العقاب . حرمت عليكم الميتة ، والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ،  
والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع - إلا ما ذكيتم - وما  
ذبح على نصب ، وأن تستقسموا بالأزلام . ذلكم فسق .. اليوم يئس الذين كفروا من  
دينكم ، فلا تخشوهم واخشون .. اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت  
لكم الإسلام ديناً .. فمن اضطر في نخمصة - غير متجانف لأثم - فإن الله غفور رحيم ..  
إن هذا التحريم والتحليل في الذبائح ، وفي الأنواع ، وفي الأماكن ، وفي الأوقات ..  
إن هذا كله من « العقود » .. وهي عقود قائمة على عقد الإيمان ابتداء . فالذين آمنوا  
يقتضيهم عقد الإيمان أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله وحده ؛ ولا يتلقوا في هذا شيئاً  
من غيره .. ومن ثم نودوا هذا النداء ، في مطلع هذا البيان .. وأخذ بعده في بيان  
الحلال والحرام :

« أحلت لكم بهيمة الأنعام - إلا ما يتلى عليكم - .. »

وبمقتضى هذا الإحلال من الله ؛ وبمقتضى إذنه هذا وشرعه - لا من أي مصدر آخر ولا

## سورة المائدة

استمداداً من أي أصل آخر - صار حلالاً لكم ومباحاً أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول « بهيمة الأنعام » من الذبائح والصيد - إلا ما يتلى عليكم تحريمه منها - وهو الذي سيورد ذكره محرماً .. إما حرمة وقتية أو مكانية ؛ وإما حرمة مطلقة في أي مكان وفي أي زمان . و بهيمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم ؛ ويضاف إليها الوحشي منها ، كالبحر الوحشي ، والحمر الوحشية والظباء .

ثم يأخذ في الاستثناء من هذا العموم .. وأول المستثنيات الصيد في حال الإحرام : « غير محلي الصيد وأنتم حرم » ..

والتحريم هنا ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها . فالإحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله في بيته الحرام ، الذي جعله الله مثابة الأمان .. ومن ثم ينبغي عنده الكف عن بسط الأكف إلى أي حي من الأحياء .. وهي فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية ؛ تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء في واهب الحياة ؛ وتؤمن فيها وتؤمن كذلك من كل اعتداء ؛ وتتخفف من ضرورات المعاش التي أحل من أجلها صيد الطير والحيوان وأكله ، لترتفع في هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها ، وتبتلع إلى هذا الأفق الرفاف الوضيء .

وقبل أن يمضي السياق في بيان المستثنيات من حكم الحل العام ، يربط هذا العقد بالعقد الأكبر ، ويذكر الذين آمنوا بمصدر ذلك الميثاق : « إن الله يحكم ما يريد » ..

طليقة مشيئته ، حاكمة إرادته ، متفرداً - سبحانه - بالحكم وفق ما يريد . ليس هنالك من يريد معه ؛ وليس هنالك من يحكم بعده ؛ ولا راد لما يحكم به .. وهذا هو حكمه في حل ما يشاء وحرمة ما يشاء ..

ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمة الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . ولا الشهر الحرام . ولا الهدي . ولا القلائد . ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً . وإذا حلتم فاصطادوا .. » . وأقرب ما يتجه إليه الذهن في معنى « شعائر الله » في هذا المقام أنها شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم للحج أو العمرة حتى ينتهي حجه بنحر الهدي الذي ساقه إلى البيت الحرام ؛ فلا يستحلها المحرم في فترة إحرامه ؛ لأن استحلها فيه استهانة بجرمة الله الذي شرع هذه الشعائر . وقد نسبها السياق القرآني إلى الله تعظيماً لها ،

وتحذيراً من استحلالها .

والشهر الحرام يعني الأشهر الحرم ؛ وهي رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم . وقد حرم الله فيها القتال - وكانت العرب قبل الإسلام تحرمها - ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء ؛ فينشئونها - أي يؤجلونها - بفتوى بعض الكهان ، أو بعض زعماء القبائل القوية ! من عام إلى عام . فلما جاء الإسلام شرع الله حرمتها ، وأقام هذه الحرمة على أمر الله ، يوم خلق الله السماوات والأرض كما قال في آية التوبة : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم . . » وقرر أن النسيء زيادة في الكفر . واستقام الأمر فيها على أمر الله . . ما لم يقع الاعتداء فيها على المسلمين ، فإن لهم حينئذ أن يردوا الاعتداء ؛ وألا يدعوا المعتدين يهتمون بالأشهر الحرم - وهم لا يرعون حرمتها - ويتترسون خلفها للنيل من المسلمين ، ثم يذهبون ناجين ! وبين الله حكم القتال في الأشهر الحرم كما مر بنا في سورة البقرة<sup>(١)</sup> .

والهدي وهو الذبيحة التي يسوقها الحاج أو المعتمرة ؛ وينحرها في آخر أيام الحج أو العمرة ، فينهي بها شعائر حجه أو عمرته . وهي ناقة أو بقرة أو شاة . . . وعدم حلها معناه ألا ينحرها لأي غرض آخر غير ما سقت له ؛ ولا ينحرها إلا يوم النحر في الحج وعند انتهاء العمرة في العمرة . ولا ينتفع من لحومها وجلودها وأشعارها وأوبارها بشيء ؛ بل يجعلها كلها للفقراء .

والقلائد . وهي الأنعام المقلدة التي يقلدها أصحابها - أي يضعون في رقبتها قلادة - علامة على نذرها لله ؛ ويطلقونها ترعى حتى تنحر في موعد النذر ومكانه - ومنها الهدي الذي يُشعر : أي يعلم بعلامة الهدي ويطلق إلى موعد النحر - فهذه القلائد يحرم إحلالها بعد تقليدها ؛ فلا تنحر إلا لما جعلت له . . وكذلك قيل : إن القلائد هي ما كان يتقلد به من يريدون الأمان من ثار أو عدو أو غيره ؛ فيتخذون من شجر الحرم ما يتقلدون به ، وينطلقون في الأرض لا يبسط أحد يده إليهم بعدوان - وأصحاب هذا القول قالوا : إن ذلك قد نسخ بقول الله فيما بعد . « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » . . وقوله : « فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم » . . والأظهر القول الأول ؛ وهو أن القلائد هي الأنعام المقلدة للنذور لله ؛ وقد جاء ذكرها بعد ذكر الهدي المقلد للنحر للحج أو العمرة ، للمناسبة بين هذا وذاك .

(١) راجع الجزء الأول من هذه الطبعة الثانية الزيدة المنقحة من الظلال ص ١٦٢ - ص ١٦٦ .



## سورة المائدة

كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً .. وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله .. حجاجاً أو غير حجاج .. وأعطاهم الأمان في حرمة بيته الحرام .  
ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام ، في غير البيت الحرام ، فلا صيد في البيت الحرام :

« وإذا حلتم فاصطادوا » ..

إنها منطقة الأمان يقيمها الله في بيته الحرام ؛ كما يقيم فترة الأمان في الأشهر الحرم .. منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى . وأن يروعها العدوان .. إنه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت ؛ استجابة لدعوة إبراهيم - أبي هذه الأمة الكريم - ويرفرف على الأرض كلها أربعة أشهر كاملة في العام - في ظل الإسلام - وهو سلام يتذوق القلب البشري حلاوته وطمأنينته وأمنه ؛ ليحرص عليه - بشروطه - وليحفظ عقد الله وميثاقه ، وليحاول أن يطبقه في الحياة كلها على مدار العام ، وفي كل مكان ..

وفي جو الحرمات وفي منطقة الأمان ، يدعو الله الذين آمنوا به ، وتعاهدوا معه ، أن يوفوا بعقدهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الذي ناطه بهم .. دور القوامة على البشرية ؛ بلا تأثر بالمشاعر الشخصية ، والعواطف الذاتية ، والملابسات العارضة في الحياة .. يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام في عام الحديبية ؛ وقبله كذلك ؛ وتركوا في نفوس المسلمين جروحاً وندوباً من هذا الصد ؛ وخلفوا في قلوبهم الكره والبغض . فهذا كله شيء ؛ وواجب الأمة المسلمة شيء آخر . شيء يناسب دورها العظيم :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » ..

إنها قمة في ضبط النفس ؛ وفي سماحة القلب .. ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهدئها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء .

إنها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس .. التبعة التي لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجاً من السلوك الذي يحققه

## الجزء السادس

الإسلام ، ومن التسامي الذي يصنعه الإسلام . وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة ؛ تجذب الناس إليه وتحببهم فيه .

وهو تكليف ضخم ؛ ولكنه - في صورته هذه - لا يعنت النفس البشرية ، ولا يحملها فوق طاقتها . فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب ، ومن حقها أن تكره . ولكن ليس من حقها أن تعتدي في فورة الغضب ودفعة الشنآن .. ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى ؛ لا في الإثم والعدوان ؛ ويخوفها عقاب الله ، ويأمرها بتقواه ، لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط ، وعلى التسامي والتسامح ، تقوى الله ، وطلباً لرضاه .

ولقد استطاعت التربية الإسلامية ، بالمنهج الرباني ، أو تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية ، والاعتياد لهذا السلوك الكريم . وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوى وعن هذا الاتجاه .. كان المنهج العربي السلوك والمبدأ العربي المشهور : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .. كانت حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية . كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى ؛ وكان الحلف على النصر ، في الباطل قبل الحق . ونذر أن قام في الجاهلية حلف للحق . وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بالله ، ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله . يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلي المشهور : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي في صورة أخرى ، وهو يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

ثم جاء الإسلام .. جاء المنهج الرباني للتربية .. جاء ليقول للذين آمنوا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » .. جاء ليربط القلوب بالله ؛ وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله . جاء ليخرج العرب - ويخرج البشرية كلها - من حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية ، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء .. وولد « الإنسان » من جديد في الجزيرة العربية .. ولد الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله .. وكان هذا هو المولد الجديد للعرب ؛ كما كان هو المولد الجديد للإنسان في سائر الأرض .. ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء !

## سورة المائدة

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء !

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية ، وأفق الإسلام ؛ هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . وقول الله العظيم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

وشتان شتان !

### محرمات من الانعام

ثم يأخذ السياق في تفصيل ما استثناه في الآية الأولى من السورة من حل بهيمة الأنعام: « حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، الموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع - إلا ما ذكيت - وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام .. ذلكم فسق .. اليوم يثس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .. فمن اضطر في نخمصة - غير متجانف لإثم - فإن الله غفور رحيم » .

والميتة والدم ولحم الخنزير ، سبق بيان حكمها ، وتعليل هذا الحكم في حدود ما يصل إليه العلم البشري بحكمة التشريع الإلهي ، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات ( ص ٥٦ - ص ٥٨ من الجزء الثاني من الظلال الطبعة الثانية المنقحة ) وسواء وصل العلم البشري إلى حكمة هذا التحريم أم لم يصل ، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة ؛ وهذا وحده يكفي . فالله لا يحرم إلا الخبائث . وإلا ما يؤدي الحياة البشرية في جانب من جوانبها . سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه .. وهل علم الناس كل ما يؤدي وكل ما يفيد ؟!

وأما ما أهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداء الإيمان . فالإيمان بوحدة الله ، ويفرده - سبحانه - بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته . وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل ؛ وأن يهل باسمه - وحده - في كل عمل وكل حركة ؛ وأن تصدر باسمه - وحده - كل حركة وكل عمل . فما يهل لغير الله به ؛ وما يسمى عليه بغير اسم الله ( وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد ) حرام ؛ لأنه ينقض الإيمان من أساسه ؛ ولا يصدر ابتداءً عن إيمان .. فهو خبيث من هذه الناحية ؛ يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير .

## الجزء السادس

وأما المنخنقة ( وهي التي تموت خنقاً ) والموقوذة ( وهي التي تضرب بعصاً أو خشبة أو حجر فتموت ) والمتردية ( وهي التي تتردى من سطح أو جبل أو تتردى في بئر فتموت ) والنطيحة ( وهي التي تنطحها بهيمة فتموت ) وما أكل السبع ( وهي الفريسة لأي من الوحش ) .. فهي كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح : ( إلا ما ذكيت ) فحكمها هو حكم الميتة .. إنما فصل هنا لنفي الشبهة في أن يكون لها حكم مستقل .. على أن هناك تفصيلاً في الأقوال الفقهية واختلافاً في حكم «التذكية» ، ومتى تعتبر البهيمة مذكاة ؛ فبعض الأقوال يخرج من المذكاة ، البهيمة التي يكون ما حل بها من شأنه أن يقتلها سريعاً - أو يقتلها حتماً - فهذه حتى لو أدركت بالذبح لا تكون مذكاة . بينما بعض الأقوال يعتبرها مذكاة متى أدركت وفيها الروح ، أياً كان نوع الإصابة .. والتفصيل يطلب في كتب الفقه المختصة ..

وأما ما ذبح على النصب - وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية ، ومثلها غيرها في أي مكان - فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام - حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله .. ويبقى الاستقسام بالأزلام . والأزلام : قداح كانوا يستشيرونها في الإقدام على العمل أو تركه .. وهي ثلاثة في قول ، وسبعة في قول . وكانت كذلك تستخدم في الميسر المعروف عند العرب ؛ فتقسم بواسطتها الجزور - أي الناقة التي يتقامرون عليها - إذ يكون لكل من المتقامين قدح ، ثم تدار ، فإذا خرج قدح أحدهم كان له من الجزور بقدر ما خصص لهذا القدح .. فحرم الله الاستقسام بالأزلام - لأنه نوع من الميسر المحرم - وحرّم اللحوم التي تقسم عن هذا الطريق ..

.. فمن اضطر في نعمة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم .  
فالمضطر من الجوع - وهو النخصة - الذي يخشى على حياته التلف ، له أن يأكل من هذه المحرمات ؛ ما دام أنه لا يعتمد الإثم ، ولا يقصد مقارفة الحرام . وتختلف آراء الفقهاء في حد هذا الأكل : هل هو مجرد ما يحفظ الحياة . أو هو ما يحقق الكفاية والشبع . أو هو ما يدخر كذلك لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام .. فلا ندخل نحن في هذه التفصيلات .. وحسبنا أن ندرك ما في هذا الدين من يسر ، وهو يعطي للضرورات أحكامها بلا عنت ولا حرج . مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة ؛ والتقوى الموكولة إلى الله .. فمن أقدم مضطراً ، لانية له في مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب .

## سورة المائدة

« فإن الله غفور رحيم » ..

وننتهي من بيان المحرم من المطاعم لنقف وقفة خاصة امام ما تخلل آية التحريم من قوله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ..  
وهي آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ليعلن كال الرسالة ، وتنام النعمة ، فيحس عمر - رضي الله عنه - ببصيرته النافذة وبقلبه الواصل - ان ايام الرسول ﷺ على الأرض معدودة . فقد ادى الأمانة ، وبلغ الرسالة ؛ ولم يعد إلا لقاء الله . فيبكي - رضوان الله عليه - وقد أحس قلبه دنو يوم الفراق .

هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية موضوعها التحريم والتحليل لبعض الذبائح ؛ وفي سياق السورة التي تضم تلك الأغراض التي أسلفنا بيانها .. ما دلالة هذا ؟ إن بعض دلالة أن شريعة الله كل لا يتجزأ . كل متكامل . سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام ؛ وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية . وأن هذا في مجموعه هو « الدين » الذي يقول الله عنه في هذه الآية : إنه أكمله . وهو « النعمة » التي يقول الله للذين آمنوا : إنه أتمها عليهم . وأنه لا فرق في هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام ؛ وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية . فكلها في مجموعها تكوّن المنهج الرباني الذي ارتضاه الله للذين آمنوا ؛ والخروج عن هذا المنهج في جزئية منه ، كالخروج عليه كله ، خروج على هذا « الدين » وخروج من هذا الدين بالتبعية ..

والأمر في هذا يرجع إلى ما سبق لنا تقريره ؛ من أن رفض شيء من هذا المنهج ، الذي رضيه الله للمؤمنين ، واستبدال غيره به من صنع البشر ؛ معناه الصريح هو رفض ألوهية الله - سبحانه - وإعطاء خصائص الألوهية لبعض البشر ؛ واعتداء على سلطان الله في الأرض ، وادعاء للألوهية بادعاء خصيصة الكبرى .. الحاكمة .. وهذا معناه الصريح الخروج على هذا الدين ؛ والخروج من هذا الدين بالتبعية ..

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » ..

يئسوا أن يبطلوه ، أو ينقصوه ، أو يحرفوه . وقد كتب الله له الكمال ؛ وسجل له البقاء .. ولقد يغلبون على المسلمين في موقعة ، أو في فترة ، ولكنهم لا يغلبون على هذا

## الجزء السادس

الدين . فهو وحده الدين الذي بقي محفوظاً لا يناله الدثور ، ولا يناله التحريف أيضاً ؛ على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه ؛ وعلى شدة ما كادوا له ، وعلى عمق جهالة أهله به في بعض العصور .. غير أن الله لا يخلي الأرض من عصابة مؤمنة ؛ تعرف هذا الدين ؛ وتناضل عنه ، ويبقى فيها كاملاً مفهوماً محفوظاً ؛ حتى تسلمه إلى من يليها . وصدق وعد الله في يأس الذين كفروا من هذا الدين !

« فلا تخشوم واخشون » ..

فما كان الذين كفروا أن ينالوا من هذا الدين في ذاته أبداً . وما كان لهم أن ينالوا من أهله إلا أن ينحرف أهله عنه ؛ فلا يكونوا هم الترجمة الحية له ؛ ولا ينهضوا بتكاليفه ومقتضياته ؛ ولا يحققوا في حياتهم نصوصه وأهدافه ..

وهذا التوجيه من الله للجماعة المسلمة في المدينة ، لا يقتصر على ذلك الجيل ؛ إنما هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان وفي كل مكان .. نقول : للذين آمنوا .. « الذين يرتضون ما رضى الله لهم من هذا الدين ، بمعناه الكامل الشامل ؛ الذين يتخذون هذا الدين كله منهجاً للحياة كلها .. وهؤلاء - وحدهم - هم المؤمنون ..

« اليوم أكملت لكم دينكم . واتممت عليكم نعمتي . ورضيت لكم الإسلام ديناً » .. اليوم .. الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع .. أكمل الله هذا الدين . فما عادت فيه زيادة لمستزيد . واتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل . ورضي لهم « الإسلام » ديناً ؛ فمن لا يرتضيه منهجاً لحياته - إذن - فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين .

نعمة الله بالكمال الدين

ويقف المؤمن امام هذه الكلمات الهائلة ؛ فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة ، وتوجيهات عميقة ، ومقتضيات وتكاليف ..

إن المؤمن يقف أولاً : امام إكمال هذا الدين ؛ يستعرض موكب الإيمان ، وموكب الرسالات ، وموكب الرسل ، منذ فجر البشرية ، ومنذ اول رسول - آدم عليه السلام - إلى هذه الرسالة الأخيرة . رسالة النبي الأمي إلى البشر اجمعين .. فماذا يرى ؟ .. يرى هذا الموكب المتطاوّل المتواصل . موكب الهدى والنور . ويرى معالم الطريق ، على طول الطريق . ولكنه يجد كل رسول - قبل خاتم النبيين - إنما ارسل لقومه . ويرى كل رسالة - قبل الرسالة الأخيرة - إنما جاءت لمرحلة من الزمان .. رسالة خاصة ، لمجموعة



## سورة المائدة

خاصة ، في بيئة خاصة .. ومن ثم كانت كل تلك الرسائل محكمة بظروفها هذه ؛ متكيفة بهذه الظروف .. كلها تدعو إلى إله واحد - فهذا هو التوحيد - وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الدين - وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الإسلام - ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر ؛ أرسل إلى الناس كافة ، رسولا خاتم النبيين برسالة « للإنسان » لا لمجموعة من الأناس في بيئة خاصة ، في زمان خاص ، في ظروف خاصة .. رسالة تخاطب « الإنسان » من وراء الظروف والبيئات والأزمنة ؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .. وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة « الإنسان » من جميع أطرافها ، وفي كل جوانب نشاطها ؛ وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ؛ وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان .. وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة « الإنسان » منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان ؛ من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر ، وتنمو ، وتتطور ، وتتجدد ؛ حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. وقال الله - سبحانه - للذين آمنوا :

« اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتي . ورضيت لكم الإسلام ديناً » .. فأعلن لهم إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معاً .. فهذا هو الدين .. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين - بمعناه هذا - نقصاً يستدعي الإكمال . ولا قصوراً يستدعي الإضافة . ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير .. وإلا فما هو بمؤمن ؛ وما هو بمقر بصدق الله ؛ وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين !

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن ، هي شريعة كل زمان ، لأنها - بشهادة الله - شريعة الدين الذي جاء « للإنسان » في كل زمان وفي كل مكان ؛ لا لجماعة من بني الإنسان ، في جيل من الأجيال ، في مكان من الأماكن ، كما كانت تجيء الرسل والرسالات ، الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي . والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان ؛ دون أن تخرج عليه ، إلا أن تخرج من

## إطار الإيمان !

والله الذي خلق « الإنسان » ويعلم من خلق ؛ هو الذي رضي له هذا الدين ؛ المحتوي على هذه الشريعة . فلا يقول : إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم ، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان ؛ وبأطوار الإنسان !

ويقف المؤمن ثانياً : أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين ، بإكمال هذا الدين ؛ وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة . النعمة التي تمثل مولد « الإنسان » في الحقيقة ، كما تمثل نشأته وإكتماله . « فالإنسان » لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له . وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين . وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه ، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضي له ربه . و « الإنسان » لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده ؛ وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه .

إن معرفة « الإنسان » بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد « الإنسان » .. إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوى ؛ يمكن أن يكون « حيواناً » أو أن يكون « مشروع إنسان » في طريقه إلى التكوين ! ولكنه لا يكون « الإنسان » في أكمل صورة للإنسان ، إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن .. والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة ، وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان (١) !

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية ، هو الذي يحقق « للإنسان » « إنسانيته » كاملة .. يحققها له وهو يخرج بالتصور الاعتقادي ، في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات ، إلى دائرة « التصور » الإنساني ، الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات .. عالم الشهادة وعالم الغيب .. عالم المادة وعالم ما وراء المادة .. وينتقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود (٢) ! ويحققها له وهو يخرج بتوحيد الله ، من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده ، والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه . فإلى الله وحده يتجه بالعبادة ، ومن الله وحده يتلقى المنهج

(١) تراجع مقدمة الجزء الأول من هذه الطبعة الثانية المنقحة ص ٣ - ص ١٢ وكتاب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته »

(٢) تراجع تفسير سورة الفاتحة ص ١٣ - ص ١٦ وتفسير مطلع سورة البقرة . ص ٣٩ - ص ٤١ من هذه الطبعة .

## سورة المائدة

والشريعة والنظام ، وعلى الله وحده يتوكل ومنه وحده يخاف <sup>(١)</sup> .. ويحققها له ، بالمنهج الرباني ، حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه ، ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء ، والاستعلاء على نوازع الحيوان ، ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام ! <sup>(٢)</sup>

ولا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين ، ولا يقدرها قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذوق ويلاتها - والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها .. ويلاتها في التصور والاعتقاد ، وويلاتها في واقع الحياة .. هو الذي يحس ويشعر ، ويرى ويعلم ، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله في هذا الدين .

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى ، وويلات الحيرة والتمزق ، وويلات الضياع والخواء ، في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان .. هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان <sup>(٣)</sup> .

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى ، وويلات التخبط والاضطراب ، وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية ، هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام <sup>(٤)</sup> .

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه الكلمات . لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم ، في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن ..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية .. ذاقوا تصوراتها الاعتقادية . وذاقوا أوضاعها الاجتماعية . وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية . وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة الله عليهم بهذا الدين ؛ وحقيقة فضل الله عليهم ومنته بالإسلام .

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية ؛ وسار بهم في الطريق الصاعد ، إلى القمة

---

«١» راجع كتاب « هذا الدين » ص ١٥ - ص ٢٠ .

«٢» راجع تفسير قوله تعالى . « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » الجزء الثاني من الظلال

ص ١٣٤ - ١٤١ .

«٣» يراجع فصل « تيه وركام » في كتاب . « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » .

(٤) يراجع فصل : « تخبط واضطراب » في كتاب « الاسلام ومشكلات الحضارة » .

## الجزء السادس

السامقة - كما فصلنا ذلك في مستهل سورة النساء<sup>(١)</sup> - فإذا هم على القمة ينظرون من على إلى سائر أمم الأرض من حولهم ؛ نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك .

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام ، والملائكة ، والجن ، والكواكب ، والأسلاف ؛ وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة ؛ لينقلهم إلى أفق التوحيد . إلى أفق الإيمان بإله واحد ، قادر قاهر ، رحيم ودود ، سميع بصير ، عليم خبير . عادل كامل . قريب مجيب . لا واسطة بينه وبين أحد ؛ والكل له عباد ، والكل له عبيد .. ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة ، ومن سلطان الرياسة ، يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة ..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعية . من الفوارق الطبقيّة ؛ ومن العادات الزرية ؛ ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان ( لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية ! ) .

« فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال . وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحاً مبالغاً في القدح حين استضعف مهجوه ، لأن :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل  
وما كان حجر بن الحارث إلا ملكاً عربياً حين سام بني أسد أن يستعبدهم بالعصا ،  
وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول :

أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة  
ذلوا لسوطك مثلاً ذل الأشيقر ذو الخزامه

« وكان عمرو بن هند ملكاً عربياً حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ؛ وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره .

« وكان النعمان بن المنذر ملكاً عربياً حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوماً للرضى يندق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ؛ ويوماً للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء .

« وقد قيل عن عزة كليب وائل : إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه

(١) يراجع مقدمة الحديث عن سورة النساء في الجزء الرابع من الظلال من هذه الطبعة ص ٢٠١

## سورة المائدة

الصيد ، فلا يحسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه . وقيل : « لا حر بوادي عوف » لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره . فكلهم أحرار في حكم العبيد<sup>(١)</sup> .»

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلوات الاجتماعية .. كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة ، والمرأة المنكودة ، والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية . والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها ، والثرارات والغارات والنهب والسلب ، مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي ، كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة ، وتحاذل وخذلان القبائل كلها ، هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا<sup>(٢)</sup> !

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة ؛ تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح ، في كل جانب من جوانب الحياة . في جيل واحد . عرف السفح و عرف القمة . عرف الجاهلية و عرف الإسلام . ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول الله لهم :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .. ويقف المؤمن ثالثاً : أمام ارتضاء الله الإسلام ديناً للذين آمنوا .. يقف أمام رعاية الله - سبحانه - وعنايته بهذه الأمة ، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه .. وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها ، حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئاً ثقيلاً ، يكافئ هذه الرعاية الجليلة .. استغفر الله .. فما يكافئ هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه .. وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة ، ومعرفة المنعم .. وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطيع منه ، وطئب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه .

إن ارتضاء الله الإسلام ديناً لهذه الأمة ليقضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار . ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار .. وإلا فما أنكد وما أحق من يهمل - بله أن يرفض - ما رضى الله له ، ليختار لنفسه غير

(١) من كتاب : « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » للأستاذ العقاد ص ١٥٠ - ص ١٥١ .

(٢) يراجع تفسير سورة الفيل في الجزء الثلاثين من الظلال ؛ وكذلك الجزء الرابع من الطبعة المنقحة

من ص ١١٧ - ص ١٣٥ .

## الجزء السادس

ما اختاره الله ! .. وإنها - إذن لجريمة نكدة ؛ لا تذهب بغير جزاء ، ولا يترك صاحبها يمضي ناجياً أبداً وقد رفض ما ارتضاه له الله .. ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام ديناً لهم ، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين .. فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه .. واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله .. فلن يتركهم الله أبداً ولن يمهلهم أبداً ، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون ! ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في هذه الوقفات أمام تلك الكلمات الهائلة . فسالأمر يطول . فنقنع بهذه اللوحات ، في هذه الظلال ، ونمضي مع سياق السورة إلى مقطع جديد :

### طيبات .. احلها الله

« يسألونك : ماذا أحل لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم . واذكروا اسم الله عليه . واتقوا الله ، إن الله سريع الحساب . اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم - إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان - ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين » ..

إن هذا السؤال من الذين آمنوا عما أحل لهم ؛ يصور حالة نفسية لتلك الجماعة المختارة ، التي سعدت بخطاب الله تعالى لها أول مرة ؛ ويشي بما خالج تلك النفوس من التخرج والتوقى من كل ما كان في الجاهلية ؛ خشية أن يكون الإسلام قد حرمه ؛ وبالحاجة إلى السؤال عن كل شيء للتثبت من أن المنهج الجديد يرتضيه ويقره .

والناظر في تاريخ هذه الفترة يلمس ذلك التغيير العميق الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية .. لقد هزها هزاً عنيفاً نفّض عنها كل رواسب الجاهلية .. لقد أشعر المسلمين - الذين التقطهم من سفح الجاهلية ليرتفع بهم إلى القمة السامقة - أنهم يولدون من جديد ؛ وينشأون من جديد . كما جعلهم يحسون إحساساً عميقاً بضخامة النقلة ، وعظمة الوثبة ، وجلال المرتقى ، وجزالة النعمة . فأصبح همهم أن يتكيفوا وفق هذا المنهج الرباني الذي لمسوا بركته عليهم . وأن يحذروا من مخالفته .. وكان التخرج والتوجس من كل ما ألفوه في الجاهلية هو ثمرة هذا الشعور العميق ، وثمره تلك الهزة العنيفة .

لذلك راجوا يسألون الرسول ﷺ بعد ما سمعوا آيات التحريم :



## سورة المائدة

« ما أحل لهم ؟ » .

ليكونوا على يقين من حله قبل أن يقربوه .

وجاءهم الجواب :

« قل : أحل لكم الطيبات ... » ..

وهو جواب يستحق التأمل... إنه يلقي في حسهم هذه الحقيقة : إنهم لم يحرموا طيباً ، ولم يمنعوا عن طيب ؛ وإن كل الطيبات لهم حلال ، فلم يحرم عليهم إلا الخبائث .. والواقع أن كل ما حرمه الله هو ما تستقذره الفطرة السليمة من الناحية الحسية . كالميتة والدم ولحم الخنزير . أو ينفر منه القلب المؤمن كالذي أهلّ لغير الله به أو ما ذبح على النصب ، أو كان الاستقسام فيه بالأزلام . وهو نوع من الميسر .

ويضيف إلى الطيبات - وهي عامة - نوعاً منها يدل على طيبته تخصيصه بالذكر بعد التعميم ؛ وهو ما تمسكه الجوارح المعلمة المدربة على الصيد كالصقر والبازي ، ومثلها كلاب الصيد ، أو الفهود والأسود . مما علمه أصحابه كيف يكلب الفريسة : أي يكبلها ويصطادها : « وما علمتم من الجوارح مكليين ، تعلمونهم مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ، إن الله سريع الحساب » ..

وشروط الحل فيما تمسكه هذه الجوارح المكعبة المعلمة المدربة ، أن تمسك على صاحبها : أي أن تحتفظ بما تمسكه من الصيد ؛ فلا تأكل منه عند صيده ؛ إلا إذا غاب عنها صاحبها ، فجاعت . فإنها إن أكلت من الفريسة عند إمساكها لها ، لا تكون معلمة ؛ وتكون قد اصطادت لنفسها لا لصاحبها فلا يحل له صيدها . ولو تبقى منها معظم الصيد لم تأكله ؛ ولو جاءت به حياً ولكنها كانت أكلت منه ؛ فلا يذكي ؛ ولو ذبح ما كان حلالاً ..

والله يذكّر المؤمنين بنعمته عليهم في هذه الجوارح المكعبة ؛ فقد علموها مما علمهم الله . فالله هو الذي سخر لهم هذه الجوارح ؛ وأقدرهم على تعليمها ؛ وعلمهم هم كيف يعلمونها .. وهي لفظة قرآنية تصور أسلوب التربية القرآني وتشبي بطبيعة المنهج الحكيم الذي لا يدع لحظة تمر ، ولا مناسبة تعرض ، حتى يوقظ في القلب البشري الإحساس بهذه الحقيقة الأولى : حقيقة أن الله هو الذي أعطى كل شيء . هو الذي خلق ، هو الذي علم ، وهو الذي سخر ؛ وإليه يرجع الفضل كله ، في كل حركة وكل كسب وكل إمكان ، يصل إليه المخلوق .. فلا ينسى المؤمن لحظة ، أن من الله ، وإلى الله ، كل شيء في كيانه هو نفسه ؛ وفيما حوله من الأشياء والأحداث ؛ ولا يغفل المؤمن لحظة عن رؤية يد الله وفضله في كل

## الجزء السادس

عزمة نفس منه ، وكل هزة عصب ، وكل حركة جارحة .. ويكون بهذا كله « ربانياً » على الاعتبار الصحيح .

والله يعلم المؤمنين أن يذكروا اسم الله على الصيد الذي تمسك به الجوارح . ويكون الذكر عند إطلاق الجارح إذ أنه قد يقتل الصيد بنابه أو ظفره ؛ فيكون هذا كالذبح له ؛ واسم الله يذكر عند الذبح ، فهو يذكر كذلك عند إطلاق الجارح سواء .

ثم يردهم في نهاية الآية إلى تقوى الله ؛ ويخوفهم حسابهم السريع .. فيربط أمر الحل والحرمة كله بهذا الشعور الذي هو المحور لكل نية وكل عمل في حياة المؤمن ؛ والذي يحول الحياة كلها صلة بالله ، وشعوراً مجلاله ، ومراقبة له في السر والعلانية :

« واتقوا الله إن الله سريع الحساب » ..

ويستطرد في بيان ما أحل لهم من الطعام ويلحق به ما أحل لهم من النكاح :  
« اليوم أحل لكم الطيبات . وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم . وطعامكم حل لهم . والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » ..  
وهكذا يبدأ ألوان المتاع الحلال مرة أخرى بقوله :

« اليوم أحل لكم الطيبات » ..

فيؤكد المعنى الذي أشرنا إليه ؛ ويربط بينه وبين الألوان الجديدة من المتاع . فهي من الطيبات .

وهنا نطلع على صفحة من صفحات السباحة الإسلامية ؛ في التعامل مع غير المسلمين ، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي « في دار الإسلام » ، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد ، من أهل الكتاب ..

إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية ؛ ثم يعتزلهم ، فيصحبوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين — أو منبوذين — إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية ، والمودة ، والمجاملة والخلطة . فيجعل طعامهم حلالاً للمسلمين وطعام المسلمين حلالاً لهم كذلك . ليم التزاور والتضاييف والمؤاكلة والمشاركة ، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسباحة .. وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم — وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر — طيبات للمسلمين ، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات . وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل . فإن الكاثوليكي المسيحي ليتحرج من

## سورة المائدة

نكاح الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية ، أو المارونية المسيحية . ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة !

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي ، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية ؛ ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة ، التي تظلمها راية المجتمع الإسلامي . فيما يختص بالعشرة والسلوك ( أما الولاء والنصرة فلها حكم آخر سيجيء في سياق السورة ) .

وشرط حل الحصنات الكتابيات ، هو شرط حل الحصنات المؤمنات :  
« إذا آتيتموهن أجورهن محصنين ، غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان » .  
ذلك أن تؤدي المهور ، بقصد النكاح الشرعي ، الذي يحصن به الرجل امرأته ويصونها ، لا أن يكون هذا المال طريقاً إلى السفاح أو المخادنة .. والسفاح هو أن تكون المرأة لأي رجل ؛ والمخادنة أن تكون المرأة لثنين خاص بغير زواج .. وهذا وذاك كانا معروفين في الجاهلية العربية ، ومعتزفاً بهما من المجتمع الجاهلي ، قبل أن يطهره الإسلام ، ويزكيه ، ويرفعه من السفح الهابط إلى القمة السامقة ..

ويعقب على هذه الأحكام تعقيباً فيه تشديد ، وفيه تهديد :  
« ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين » ..  
إن هذه التشريعات كلها منوطة بالإيمان ؛ وتنفيذها كما هي هو الإيمان ؛ أو هو دليل الإيمان . فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويحجده . والذي يكفر بالإيمان يبطل عمله ويصبح رداً عليه لا يقبل منه ، ولا يقرأ عليه .. والحبوط مأخوذ من انتفاخ الدابة وموتها إذا رعت مرعى ساماً .. وهو تصوير لحقيقة العمل الباطل . فهو ينتفخ ثم ينعدم أثره كالدابة التي تتسمم وتنتفخ وتموت .. وفي الآخرة تكون الخسارة فوق حبوط العمل وبطلانه في الدنيا ..

وهذا التعقيب الشديد ، والتهديد الخفيف ، يجيء على أثر حكم شرعي يختص بحلال وحرام في المطاعم والمناكح .. فيدل على ترابط جزئيات هذا المنهج ؛ وأن كل جزئية فيه هي « الدين » الذي لا هوادة في الخلاف عنه ، ولا قبول لما يصدر مخالفاً له في الصغير أو في الكبير .

### طيبات الروح

وفي ظل الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء يجيء ذكر الصلاة ،

وأحكام الطهارة للصلاة .

« يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم ، وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنباً فاطهروا . وإن كنتم مرضى ، أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ، فتييموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ..

\*\*\*

إن الحديث عن الصلاة والطهارة إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء . وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام .. إن هذا لا يجيء اتفاقاً ومصادفة لمجرد السرد ، ولا يجيء كذلك بعيداً عن جو السياق وأهدافه .. إنما هو يجيء في موضعه من السياق ، ولحكمته في نظم القرآن .

إنها — أولاً — لفظة إلى لون آخر من الطيبات .. طيبات الروح الخالصة .. إلى جانب طيبات الطعام والنساء .. لون يجد فيه قلب المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع . إنه متاع اللقاء مع الله ، في جو من الطهر والخشوع والنقاء .. فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة ؛ استكمالاً لألوان المتاع الطيبة في حياة الإنسان .. والتي بها يتكامل وجود « الإنسان » .

ثم اللفظة الثانية .. إن أحكام الطهارة والصلاة ؛ كأحكام الطعام والنكاح ؛ كأحكام الصيد في الحل والحرمة ؛ كأحكام التعامل مع الناس في السلم والحرب .. كبقية الأحكام التالية في السورة .. كلها عبادة الله . وكلها دين الله . فلا انفصام في هذا الدين بين ما اصطلاح أخيراً — في الفقه — على تسميته « بأحكام العبادات » ، وما اصطلاح على تسميته « بأحكام المعاملات » ..

هذه التفرقة — التي اصطنعها « الفقه » حسب مقتضيات « التصنيف » و « التبويب » — لا وجود لها في أصل المنهج الرباني ، ولا في أصل الشريعة الإسلامية .. إن هذا المنهج يتألف من هذه وتلك على السواء . وحكم هذه كحكم تلك في أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه ؛ وليست هذه بأولى من تلك في الطاعة والاتباع . لا ، بل إن أحد الشطرين لا يقوم بغير الآخر . والدين لا يستقيم إلا بتحقيقهما في حياة الجماعة المسلمة على السواء .

## سورة المائدة

كلها « عقود » من التي أمر الله المؤمنين في شأنها بالوفاء . وكلها « عبادات » يؤدنها المسلم بنية القربى إلى الله . وكلها « إسلام » وإقرار من المسلم بعبوديته لله . ليس هنالك « عبادات » وحدها و « معاملات » وحدها .. إلا في « التصنيف الفقهي » .. وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا الاصطلاحي .. كلها « عبادات » و « فرائض » و « عقود » مع الله . والإخلال بشيء منها إخلال بعقد الإيمان مع الله<sup>(١)</sup> ! وهذه هي اللفظة التي يشير إليها النسق القرآني ؛ وهو يوالي عرض هذه الأحكام المتنوعة في السياق .

### مقدمات الصلاة

« يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ... » .. إن الصلاة لقاء مع الله ، ووقوف بين يديه - سبحانه - ودعاء مرفوع إليه ، ونجوى وإسرار فلا بد لهذا الموقف من استعداد . لا بد من تطهر جسدي يصاحبه تهيو روعي . ومن هنا كان الوضوء - فيما نحسب والعلم لله - وهذه هي فرائضه المنصوص عليها في هذه الآية :

غسل الوجه . وغسل الأيدي إلى المرافق . ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين .. وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيرة .. أهمها هل هذه الفرائض على الترتيب الذي ذكرت به ؟ أم هي تجزىء على غير ترتيب ؟ قولان .. هذا في الحديث الأصغر .. أما الجنبابة - سواء بالمباشرة أو الاحتلام - فتوجب الاغتسال .. ولما فرغ من بيان فرائض الوضوء ، والغسل ، أخذ في بيان حكم التيمم . وذلك في الحالات الآتية :

حالة عدم وجود الماء للمحدث على الإطلاق .. وحالة المريض المحدث حدثاً أصغر يقتضي الوضوء ، أو حدثاً أكبر يقتضي الغسل والماء يؤذيه ..

وحالة المسافر المحدث حدثاً أصغر أو أكبر .. وقد عبر عن الحدث الأصغر بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » .. والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه .. والمجيء من الغائط كناية عن قضاء الحاجة

---

(١) يراجع فصل : « الشمول » في كتاب ، « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » ..

تبولاً أو تبرزاً .

وعبر عن الحدث الأكبر بقوله : « أو لامستم النساء » .. لأن هذا التعبير الرقيق يكفي في الكناية عن المباشرة ..

ففي هذه الحالات لا يقرب المحدث - حدثاً أصغر أو أكبر - الصلاة ، حتى يتيمم .. فيقصد صعيداً طيباً .. أي شيئاً من جنس الأرض طاهراً - يعبر عن الطهارة بالطيبة - ولو كان تراباً على ظهر الدابة ، أو الحائط . فيضرب بكفيه ، ثم ينفضهما ، ثم يمسح بهما وجهه ، ثم يمسح بهما يديه إلى المرفقين .. ضربة للوجه واليدين . أو ضربتين .. قولان .. وهناك خلافات فقهية حول المقصود بقوله تعالى : « أو لامستم النساء » .. أهو مجرد الملامسة ؟ أم هي المباشرة ؟ وهل كل ملامسة بشهوة ولذة أم بغير شهوة ولذة ؟ خلاف .. كذلك هل المرض بإطلاقه يحيز التيمم ؟ أم المرض الذي يؤذيه الماء ؟ خلاف .. ثم .. هل برودة الماء من غير مرض ؟ وخوف المرض والأذى يحيز التيمم .. الأرجح نعم ..

وفي ختام الآية يحیی هذا التعقيب :

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون » ..

والتطهر حالة واجبة للقاء الله - كما أسلفنا - وهو يتم في الوضوء والغسل جسمًا وروحًا . فأما في التيمم فيتم الشطر الأخير منه ؛ ويجزىء في التطهر عند عدم وجود الماء ، أو عندما يكون هناك ضرر في استعمال الماء . ذلك أن الله - سبحانه - لا يريد أن يعنت الناس ، ويحملهم على الحرج والمشقة والتكاليف . إنما يريد أن يطهرهم ، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة ؛ وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة ، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها .. فهو الرفق والفضل والواقعية في هذا المنهج اليسير القويم .

وتقودنا حكمة الوضوء والغسل والتيمم التي كشف النص عنها هنا :

« ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ..

تقودنا إلى تلك الوحدة التي يحققها الإسلام في الشعائر والشرائع على السواء . فليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف للجسد ، ليقول متفلسفة هذه الأيام : إننا لسنا في حاجة إلى هذه الإجراءات ، كما كان العرب البدائيون ! لأننا نستحم وننظف أعضائنا بحكم الحضارة ! إنما هي محاولة مزدوجة لتوحيد نظافة الجسم وطهارة الروح في عمل واحد ؛ وفي عبادة



## سورة المائدة

واحدة يتوجه بها المؤمن إلى ربه . وجانب التطهر الروحي أقوى . لأنه عند تعذر استخدام الماء ، يستعاض بالتيمم ، الذي لا يحقق إلا هذا الشطر الأقوى .. وذلك كله فضلاً على أن هذا الدين منهج عام ليواجه جميع الحالات ، وجميع البيئات ، وجميع الأطوار ، بنظام واحد ثابت ، فتتحقق حكمته في جميع الحالات والبيئات والأطوار؛ في صورة من الصور ، بمعنى من المعاني ؛ ولا تبطل هذه الحكمة أو تتخلف في أية حال .

فلنحاول أن نتفهم أسرار هذه العقيدة قبل أن نفق فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ولنحاول أن نكون أكثر أدباً مع الله ؛ فيما نعلم وفيما لا نعلم على السواء <sup>(١)</sup> .

و كذلك يقودنا الحديث عن التيمم للصلاة عند تعذر الطهارة بالوضوء أو الغسل أو ضررها إلى لفظة أخرى عن الصلاة ذاتها . عن حرص المنهج الإسلامي على إقامة الصلاة ؛ وإزالة كل عائق يمنع منها .. فهذا الحكم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى كالصلاة عند الخوف والصلاة في حالة المرض من قعود أو من استلقاء حسب الإمكان .. كل هذه الأحكام تكشف عن الحرص البالغ على إقامة الصلاة ؛ وتبين إلى أي حد يعتمد المنهج على هذه العبادة لتحقيق أغراضه التربوية في النفس البشرية ، إذ يجعل من لقاء الله والوقوف بين يديه وسيلة عميقة الأثر ، لا يفرط فيها في أدق الظروف وأحرجها ؛ ولا يجعل عقبة من العقبات تحول بين المسلم وبين هذا الوقوف وهذا اللقاء : لقاء العبد بربه .. وعدم انقطاعه عنه لسبب من الأسباب .. إنها نداوة القلب ، واسترواح الظل ، وبشاشة اللقاء ..

### تذكير بميثاق الله

ويعقب على أحكام الطهارة ، وعلى ما سبقها من الأحكام بتذكير الذين آمنوا بنعمة الله عليهم بالإيمان ، وبميثاق الله معهم على السمع والطاعة ، وهو الميثاق الذي دخلوا به في الإسلام - كما تقدم - كما يذكرهم تقوى الله ، وعلمه بما تنطوي عليه الصدور : « واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم : سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » ..

وكان المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعرفون - كما قدمنا - قيمة نعمة الله عليهم بهذا الدين . إذ كانوا يجدون حقيقتها في كيانهم ، وفي حياتهم ، وفي مجتمعاتهم ، وفي مكانهم من البشرية كلها من حولهم . ومن ثم كانت الإشارة - مجرد الإشارة - إلى هذه النعمة تكفي ،

(١) كذلك الحال في الزكاة والضرائب المالية . فهذه غير تلك ، ولا تغني غناها .. وسيجيء شيء عن هذا في هذا الجزء .

## الجزء السادس

إذ كانت توجه القلب والنظر إلى حقيقة ضخمة قائمة في حياتهم ملموسة .  
كذلك كانت الإشارة إلى ميثاق الله الذي واثقهم به على السمع والطاعة ، تستحضر  
لتوها حقيقة مباشرة يعرفونها . كما كانت تثير في مشاعرهم الاعتزاز حيث تفهم من الله ذي  
الجلال موقف الطرف الآخر في تعاقد مع الله ، وهو أمر هائل جليل في حس المؤمن ، حين  
يدرك حقيقته هذه ويتملاها ..

ومن ثم يكلمهم الله في هذا إلى التقوى . إلى إحساس القلب بالله ، ومراقبته في خطراته  
الخافية :

« واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » ..

والتعبير « بذات الصدور » تعبير مصور معبر موح ، نمر به كثيراً في القرآن الكريم .  
فيحسن أن ننبه إلى ما فيه من دقة وجمال وإيجاء . وذات الصدور : أي صاحبة الصدور ،  
الملازمة لها ، اللاصقة بها . وهي كناية عن المشاعر الخافية ، والخواطر الكامنة ، والأسرار  
الدفينة ، التي لها صفة الملازمة للصدور والمصاحبة . وهي على خفائها وكنائها مكشوفة  
لعلم الله ، المطلع على ذات الصدور ..

عدل .. مع الشنآن

ومن الميثاق الذي واثق الله به الأمة المسلمة ، القوام على البشرية بالعدل .. العدل  
المطلق الذي لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن ؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى  
في حال من الأحوال . العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات ..  
والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور .. ومن ثم فهذا النداء :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على  
ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خير بما تعملون » ..

لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام ، على  
الاعتداء . وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي  
الرباني القويم . فهاهم أولاء يُنهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل .. وهي قمة  
أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق . فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ؛  
تتجاوز إلى إقامة العدل مع الشعور بالكراهة والبغض ! إن التكليف الأول أيسر لأنه  
إجراء سلمي ينتهي عند الكف عن الاعتداء . فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء  
إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبعوضين المشنئين !

## سورة المائدة

والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة . فيقدم له بما يعين عليه :  
« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ... »  
ويعقب عليه بما يعين عليه أيضاً :

« واتقوا الله ، إن الله خير بما تعملون .. »

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله . حين تقوم لله ، متجردة عن كل ما عداه . وحين تستشعر تقواه ، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدر .

وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق ، عليه . وما غير القيام لله ، والتعامل معه مباشرة ، والتجرد من كل اعتبار آخر ، ويثبتها يملك أن يستوي بهذه النفس على هذا المرتقى .

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوثين ، كما يكفله لهم هذا الدين ؛ حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر ؛ وأن يتعاملوا معه ، متجردين عن كل اعتبار .

وبهذه المقومات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير ؛ الذي يتكفل نظامه للناس جميعاً - معتنقيه وغير معتنقيه - أن يتمتعوا في ظله بالعدل ؛ وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه ، يتعاملون فيها مع ربهم ، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن ..

وإنها لفريضة الأمة القوامية على البشرية مهما يكن فيها من مشقة وجهاد .

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامية ؛ وأدت تكاليفها هذه ؛ يوم استقامت على الإسلام . ولم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا ، ولا مجرد مثل عليا ، ولكنها كانت واقعاً من الواقع في حياتها اليومية ، واقعاً لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد ، ولم تعرفه في هذا المستوى إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة .. والأمثلة التي وعها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة ، تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية ، قد استحالت في حياة هذه الأمة منهجاً في عالم الواقع يؤدي ببساطة ، ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة .. إنها لم تكن مثلاً علياً خيالياً ، ولا غماز كاذباً فردياً . إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن هناك طريقاً آخر سواه .

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها - بما فيها

## الجزء السادس

جاهلية العصور الحديثة - ندرك المدى المتطاوّل بين منهج يصنعه الله للبشر ، ومنهج يصنعه الناس للناس . ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة .

إن الناس قد يعرفون المبادئ ؛ ويهتفون بها .. ولكن هذا شيء ، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر .. وهذه المبادئ التي يهتف بها الناس للناس طبيعي ألا تتحقق في عالم الواقع .. فليس المهم أن يُدعى الناس إلى المبادئ ؛ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها .. المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة .. المهم هو سلطان هذه الدعوة .. على الضمائر والسرائر .. المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدهم لتحقيق هذه المبادئ ..

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادئ التي تدعو إليها ، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله . فما يقوله فلان وعلان علام يستند ؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر ؟ وماذا يملك للناس حين يعودون إليه بكدهم وكدهم في تحقيق هذه المبادئ ؟

يهتف ألف هاتف بالعدل . وبالتطهر . وبالتحرر . وبالتسامي . وبالسماحة . وبالحب . وبالتضحية . وبالإيثار ... ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس ؛ ولا يفرض نفسه على القلوب . لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان !

ليس المهم هو الكلام .. ولكن المهم من وراء هذا الكلام ! ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادئ والمثل والشعارات - مجردة من سلطان الله - ولكن ما أثرها ؟ إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم . تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور . فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس . فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان ! ولا يكون لها في كيانهن من هزة ، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر !

ثم إن قيمة هذه « الوصايا » في الدين ، أنها تتكامل مع « الإجراءات » لتكيف الحياة . فهو لا يلقيها مجردة في الهواء .. فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا ؛ وإلى مجرد شعائر ؛ فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق ! كما نرى ذلك الآن في كل مكان .

إنه لا من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين ؛ وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه . ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات ! .. وهذا هو « الدين » في المفهوم الإسلامي دون سواه .. الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة .

## سورة المائدة

وحين تحقق « الدين » بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة ؛ والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة ؛ كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء .. وحين تحول « الدين » إلى وصايا على المنابر ؛ وإلى شعائر في المساجد ؛ وتخلي عن نظام الحياة .. لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة !  
جزاء المؤمنين .. وجزاء الكافرين

ولا بد من جزاء للمؤمنين من الله ، الذي يتعاملون معه وحده ؛ يشجع ويقوي على النهوض بتكاليف القوامه ؛ وعلى الوفاء بالميثاق . ولا بد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله :  
« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة وأجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » ..

إنه الجزء الذي يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا—وهم ينهضون بالتكاليف العليا — والذي تصغر معه تكاليف القوامه على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها في هذه الأرض .. ثم هو العدل الإلهي الذي لا يسوي بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار !  
ولا بد من تعليق قلوب المؤمنين وأنظارهم بهذا العدل وبذلك الجزاء ، لتعامل مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة من ملابسات الحياة .. وبعض القلوب يكفيها أن تشعر برضاء الله ؛ وتتذوق حلاوة هذا الرضى ؛ كما تتذوق حلاوة الوفاء بالميثاق .. ولكن المنهج يتعامل مع الناس جميعاً . مع الطبيعة البشرية . والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم . وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين ! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة . يطمئنها على مصيرها وجزائها ؛ ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين ! وبخاصة إذا كانت مأمورة بالعدل مع من تكره من هؤلاء ! بعد أن تلقى منهم ما تلقى من الكيد والإيذاء .. والمنهج الرباني يأخذ الطبيعة البشرية بما يعلمه الله من أمرها ؛ ويهتف لها بما تتفتح له مشاعرها ، وتستجيب له كينونتها .. ذلك فوق أن المغفرة والأجر العظيم دليل رضى الله الكريم ؛ وفيها مذاق الرضى فوق مذاق النعيم .

ويمضي السياق يقوي في الجماعة المسلمة روح العدل والقسط والسباحة ، ويكفكف فيها شعور العدوان والميل والانتقام .. فيذكر المسلمين نعمة الله عليهم في كف المشركين عنهم ؛ حين هموا في عام الحديبية — أو في غيره — أن يبسطوا أيديهم بالعدوان :

## الجزء السادس

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . إذ همّ قوم أن يبطسوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم . واتقوا الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..  
وتختلف الروايات في من تعنيهم هذه الآية . ولكن الأرجح أنها إشارة إلى حادثة المجموعة التي همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبالمسلمين ، فتأخذهم على غرة . فأوقعهم الله أسارى في أيدي المسلمين ( كما فصلنا في تفسير سورة الفتح ) (١) .

وأيا ما كان الحادث ، فإن عبرته في هذا المقام هي المنشودة في المنهج التربوي الفريد ، وهي إماتة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم في صدور المسلمين ، كي يفيثوا إلى الهدوء والطمأنينة وهم يرون أن الله هو راعيهم وكالئهم . وفي ظل الهدوء والطمأنينة يصبح ضبط النفس ، وسماحة القلب ، وإقامة العدل ميسورة . ويستحي المسلمون أن لا يفوا بميثاقهم مع الله ، وهو يرعاهم ويكلؤهم ، ويكف الأيدي المبسوطة إليهم .

ولا ننسى أن نقف وقفة قصيرة أمام التعبير القرآني المصور :

« إذ همّ قوم أن يبطسوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم » ..

في مقام : إذ همّ قوم أن يبطشوا بكم ويعتدوا عليكم فحماكم الله منهم ..

إن صورة و«حركة» بسط الأيدي وكفها أكثر حيوية من ذلك التعبير المعنوي الآخر والتعبير القرآني يتبع طريقة الصورة والحركة ، لأن هذه الطريقة تطلق الشحنة الكاملة في التعبير ، كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى ، مصاحباً للواقعة الحسية التي يعبر عنها . مبرزاً لها في صورتها الحية المتحركة .. وتلك طريقة القرآن (٢) .

(١) ص ٨١ - ١٢٢ جزء ٢٦

(٢) «راجع بتوسع : «فصل طريقة القرآن» في كتاب : «التصوير الفني في القرآن» ، وفصل القيم التعبيرية» في كتاب : «النقد الأدبي . أصوله ومناهجه» .



« وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ،  
وَقَالَ اللَّهُ : إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي  
وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ،  
وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ؛ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ  
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ،  
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ؛ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ  
عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .  
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ،  
فَاغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا  
كَانُوا يَصْنَعُونَ .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ  
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي  
بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ : فَمَنْ  
يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ  
جَمِيعًا ؟ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . قُلْ :  
فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا ، وَ إِلَيْهِ  
الْمَصِيرُ .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ،  
أَنْ تَقُولُوا : مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَٱللّٰهُ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ  
فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ، وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ،  
يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ ٱللّٰهُ لَكُمْ ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ  
فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ، وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا  
حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا ، فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ  
يَخَافُونَ ٱللّٰهَ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ  
غَالِبُونَ ، وَعَلَىٰ ٱللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّا لَن  
نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .  
قَالَ : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .  
قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى  
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » ..

#### اهل الكتاب .. ونقض المواثيق

في نهاية الدرس الماضي ، ذكر الله المسلمين بميثاقهم الذي واثقهم به ، وذكرهم نعمته  
التي أنعم بها عليهم في هذا الميثاق . ذلك كي يؤدوا من جانبهم ما استحفظوا عليه ،

## سورة المائدة

ويتقوا أن ينقضوا ميثاقهم معه .

فالآن يستغرق هذا الدرس كله في استعراض مواقف أهل الكتاب من مواعيدهم ، واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواعيد ، لتكون هذه - من جانب - تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم ، وليكشف الله - من جانب - عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً . ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم ، وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم ، وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم ، التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم ، وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل ، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه ..

ويحتوي هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى ، عند إنقاذهم من النذل في مصر ، ثم نقضهم لهذا الميثاق ، وما حاق بهم نتيجة نقضهم له ، وما أصابهم من اللعنة والطرده من مجال الهدى والنعمة .. وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا : إنا نصارى ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة . ثم على استعراض موقف اليهود أمام الأرض المقدسة التي أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها ، فنكصوا على أعقابهم وجبنوا عن تكاليف ميثاق الله معهم . وقالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ..

ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق ومواقف أهل الكتاب منها ، كشف لما وقع في عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة نقضهم لهذه المواعيد ، التي عاهدهم الله فيها على توحيده والإسلام له ، في مقابل ما أعطاهم من النعم ، وما ضمن لهم من التمكين ، فأبوا ذلك كله على أنفسهم ، فباءوا باللعنة والفرقة والتشريد .

كذلك يتضمن دعوتهم من جديد إلى الهدى .. الهدى الذي جاءتهم به الرسالة الأخيرة ، وجاءهم به الرسول الأخير ، ودحض ما قد يدعونه من حجة في أنه طال عليهم الأمد ، ومرت بهم فترة طويلة منذ آخر أنبيائهم ، فنسوا ولبس عليهم الأمر .. فهاهو ذا قد جاءهم بشير ونذير . فسقطت الحجة ، وقام الدليل .

ومن خلال هذه الدعوة ، تتبين وحدة دين الله - في أساسه - ووحدة ميثاق الله مع جميع عباده : ان يؤمنوا به ، ويوحدوه ، ويؤمنوا برسوله دون تفريق بينهم ، وينصروهم ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وينفقوا في سبيل الله من رزق الله .. فهو الميثاق الذي يقرر العقيدة الصحيحة ، ويقرر العبادة الصحيحة ، ويقرر أسس النظام الاجتماعي

الصحيح ..

فالآن نأخذ في استعراض هذه الحقائق كما وردت في السياق القرآني الكريم :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا . وقال الله : إني معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزرتوهم ؛ وأقرضتم الله قرضاً حسناً .. لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل .. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ؛ وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم - إلا قليلاً منهم - فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين ..

« ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ؛ فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ..

لقد كان ميثاق الله مع بني إسرائيل ميثاقاً بين طرفين ؛ متضمناً شرطاً وجزاء . والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه ، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده .. لقد كان عقداً مع نقيباء بني إسرائيل الاثني عشر ، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب - وهو إسرائيل - وهم ذرية الأسباط - أحفاد يعقوب - وعدتهم اثنا عشر سبطاً .. وكان هذا نصه :

وقال الله : إني معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزرتوهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً .. لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ..

« إني معكم » .. وهو وعد عظيم . فمن كان الله معه ، فلا شيء إذن ضده . ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود - في الحقيقة - له ولا أثر . ومن كان الله معه فلن يضل طريقه ، فإن معية الله - سبحانه - تهديه كما أنها تكفيه . ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى ، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده .. وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن ، وقد وصل ، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم .

ولكن الله - سبحانه - لم يجعل معيته لهم جزافاً ولا محاباة ؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده .. إنما هو عقد .. فيه شرط وجزاء .

شرطه : إقامة الصلاة .. لا مجرد أداء الصلاة .. إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب ؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم ؛ ونهاياً

## سورة المائدة

عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر ! وإيتاء الزكاة .. اعترافاً بنعمة الله في الرزق ؛ وملكيته ابتداء للمال ؛ وطاعة له في التصرف في هذا المال وفق شرطه - وهو المالك والناس في المال وكلاء - وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن ؛ وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وألا يكون تكدس المال في أيدي قليلة سبباً في الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته ؛ كما يفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب ، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع بشتى ألوانه .. كل هذا الشر الذي تحول دونه الزكاة ؛ ويحول دونه منهج الله في توزيع المال ؛ وفي دورة الاقتصاد ..

والإيمان برسل الله .. كلهم دون تفرقة بينهم . فكلهم جاء من عند الله ؛ وكلهم جاء بدين الله . وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعاً ، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعاً .. وليس هو مجرد الإيمان السليبي ، إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل ، وشد أزركم فيما ندينهم الله له ، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه .. فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به ، وليقيم في الأرض ، وليحققه في حياة الناس . فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي ، ولا مجرد شعائر تعبدية . إنما هو منهج واقعي للحياة . ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة . والمنهج والنظام في حاجة إلى نصرة ، وتعزيز ، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولمايته بعد تحقيقه .. وإلا فما وفي المؤمن بالميثاق . وبعد الزكاة إنفاق عام .. يقول عنه الله - سبحانه - إنه قرض لله .. والله هو المالك ، وهو الواهب .. ولكنه - فضلاً منه ومنة - يسمى ما ينفقه الموهوب له - متى أنفقه الله - قرضاً لله ..

ذلك كان الشرط . فأما الجزاء فكان :

تكفير السيئات .. والإنسان الذي لا يني يخطيء ؛ ولا يني يندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة .. تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة ؛ وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره ..

وجنة تجري من تحتها الأنهار .. وهي فضل خالص من الله ؛ لا يبلغه الإنسان بعمله ؛ إنما يبلغه بفضل من الله ؛ حين يبذل الجهد ؛ فيما يملك وفيما يطيق .. وكان هنالك شرط جزائي في الميثاق :

## الجزء السادس

« فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ..  
فلا هدى له بعد ذلك ؛ ولا أوبة له من الضلال . بعد إذ تبين له الهدى ؛ وتحدد معه العقد ؛ ووضح له الطريق ؛ وتأكد له الجزاء ..  
ذلك كان ميثاق الله مع نقيباء بني إسرائيل .. عمن وراءهم . وقد ارتضوه جميعا ؛ فصار ميثاقا مع كل فرد فيهم ؛ وميثاقا مع الأمة المؤلفة منهم .. فماذا كان من بني إسرائيل !

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق ؛ وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام - وهو آخر أنبيائهم - وحرفوا كتابهم التوراة - ونسوا شرائعها فلم ينفذوها ؛ ووقفوا من خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - موقفا لئima ما كرا غنيذا ؛ وخانوه وخانوا مواعيدهم معه . فباءوا بالطرد من هدى الله ؛ وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى ..

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ... »

وصدق الله . فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم .. لعنة تبدو على سيامهم ، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية .. وقسوة تبدو في ملاحظهم الناضبة من بشاشة الرحمة وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية ، ومهما حاولوا - مكرا - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة ، والنعمومة في الملمس عند الكيد والوقية ، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشى بجفاف القلوب والأفئدة .. وطابعهم الأصل هو تحريف الكلم عن مواضعه . تحريف كتابهم أولا عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله ! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث ! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم ، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم ، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، إلا قليلا منهم .. » ..

وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة . فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانية متواترة . بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم

## سورة المائدة

في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ . على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم ، ورفع عنهم الاضطهاد ، وعاملهم بالحسنى ، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه . ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضم المكر والخيانة ، ولا تفي بتمكر وتغدر . إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد ، وتآمروا مع كل عدو لهم ، حتى تحين الفرصة ، فينقضوا عليهم ، قساة جفاة لا يرحمونهم ، ولا يراعون فيهم إلا ولا ذمة .. أكثرهم كذلك .. كما وصفهم الله سبحانه في كتابه ؛ وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم .

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة ، تعبير طريف :

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم » ..

الفعلة الخائنة ، والنية الخائنة ، والكلمة الخائنة ، والنظرة الخائنة .. يحملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة .. « خائنة » .. لتبقى الخيانة وحدها مجردة ؛ تملأ الجو ؛ وتلقي ظلالها وحدها على القوم .. فهذا هو جوهر جبلتهم ؛ وهذا هو جوهر موقفهم ؛ مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة ..

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله . ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها وتسمع توجيهاته ؛ وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها ، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام .. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة ، وتعاويز ورقى وأدعية ! أصابها ما أصابها .

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرود وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه ، حين نقضوا ميثاقهم مع الله ، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله ، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد ، ناقض للعقد .. فلما غفلت عن هذا التحذير ، وسارت في طريق غير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية ؛ وتركها هكذا ذيلاً في القافلة ! حتى تثوب إلى ربها ؛ وحتى تستمسك بعهداها ، وحتى توفى بعهداها . فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس . وإلا بقيت



## الجزء السادس

هكذا ذيلًا للقافلة .. وعد الله لا يخلف الله وعده ..  
ولقد كان توجيه الله لنبيه في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية :  
« فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين » ..  
والعفو عن قبائحهم إحسان ، والصفح عن خيانتهم إحسان ..  
ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان . فأمر الله نبيه ﷺ أن يحليهم  
عن المدينة . ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها . وقد كان ..

### النصارى .. والتوحيد

كذلك يقص الله - سبحانه - على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، أنه أخذ ميثاق  
الذين قالوا : إنا نصارى من أهل الكتاب . ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك . فنالهم جزاء  
هذا النقض للميثاق :

ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ؛ فنسوا حظاً مما ذكروا به ؛ فأغرينا  
بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .  
ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة :

« ومن الذين قالوا : إنا نصارى » ..

ودلالة هذا التعبير : أنهم قالوها دعوى ، ولم يحققوها في حياتهم واقعاً .. ولقد كان  
أساس هذا الميثاق هو توحيد الله . وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية في خط النصرانية  
التاريخي . وهذا هو الحظ الذي نسوا مما ذكروا به ؛ ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى  
كل انحراف كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق ،  
التي لا تكاد تعد . في القديم وفي الحديث ( كما سنبين إجمالاً بعد قليل ) وبينها ما بينها من  
العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة .. جزاء وفاقاً على  
نقض ميثاقهم معه ، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به .. ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم  
الله بما كانوا يصنعون ؛ وعندما يحزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون !

ولقد وقع بين الذين قالوا : إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في  
التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله - سبحانه - في كتابه الصادق الكريم ؛  
وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسلم من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله .  
سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة ؛ أو بسبب الخلافات على الرياسة  
الدينية ؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفي خلال القرون الطويلة

## سورة المائدة

لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تحمد هذه الحروب والجراحات .. وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين ، جزاء على نقضهم ميثاقهم ، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به من عهد الله ، وأول بند فيه هو بند التوحيد ، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام . لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل<sup>(١)</sup> .

### دعوة أهل الكتاب للإسلام

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله .. وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعاً .. هؤلاء وهؤلاء .. لإعلانهم برسالة خاتم النبیین ؛ وأنها جاءت إليهم - كما جاءت للعرب الأميين ، وللناس أجمعين . فهم مخاطبون بها ، مأمورون باتباع الرسول الأخير - وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سلف - وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذي بين أيديهم ؛ والذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه ، ولم تعد هناك ضرورة له في الشريعة الجديدة .. ثم يتعرض لبعض الانحرافات التي جاء الرسول الأخير ليقومها في معتقداتهم : كقول النصارى : إن المسيح عيسى بن مريم هو الله . وكقولهم هم واليهود نحن أبناء الله وأحباؤه .. ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عند الله ، بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة ؛ ولن يكون لهم أن يقولوا : إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ؛ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .. لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ والله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير .. وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ؛ والله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير .. يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم - على فترة من الرسل - أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير .

«١»راجع كتاب . «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . كما يراجع الجزء الثالث من الظلال الطبعة الجديدة ص - ١٤١ - ص ١٤٢ .

والله على كل شيء قدير ..

لقد كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهم إلى الإسلام نبي ليس منهم .. نبي من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعاملون؛ لأنهم هم أهل الكتاب وهؤلاء أميون! فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة؛ الشاملة للبشر أجمعين . وعلم هؤلاء الأميين ، فإذا هم أعلم أهل الأرض ؛ وأرقاهم تصوراً واعتقاداً؛ وأقومهم منهجاً وطريقاً، وأفضلهم شريعة ونظاماً، وأصلحهم مجتمعاً وأخلاقاً.. وكان هذا كله من فضل الله عليهم ؛ ومن إنعامه بهذا الدين وارتضائه لهم .. وما كان للأميين أن يكونوا أوصياء على هذه البشرية لولا هذه النعمة وما كان لهم - وليس لهم بعد - من زاد يقدمونه للبشرية إلا ما يزودهم به هذا الدين ..

وفي هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب ، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام . مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأيينه ، كما أخذ عليهم ميثاقه . ويسجل عليهم شهادته - سبحانه - بأن هذا النبي الأمي هو رسوله إليهم - كما أنه رسول إلى العرب ، وإلى الناس كافة - فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً ؛ ولا مجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب ، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانياً :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا، يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » ..

فهو رسول الله إليكم . ودوره معكم .. أن يبين لكم ويوضح ويكشف ، ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معكم .. سواء في ذلك اليهود والنصارى .. وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين .. التوحيد .. وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة ؛ كرجم الزاني ، وتحريم الربا كافة . كما أخفوا جميعاً خبر بعثة النبي الأمي « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » .. كما أنه - صلى الله عليه وسلم - يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه ؛ مما لم يرد به شرعه . فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعد له عمل في المجتمع الإنساني ، مما كانت له وظيفة وقتية في المجتمعات الصغيرة الخاصة ، التي بعث إليها الرسل من قبل ولفترة محدودة - في علم الله - من الزمان ، قبل أن تجيء الرسالة الشاملة الدائمة ، وتستقر - وقد أكملها الله وأتم بها نعمته ورضيها للناس ديناً - فلم يعد فيها نسخ ولا تبديل ولا تعديل .

ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول ، ووظيفته في الحياة البشرية ، وما قدر الله من أثره في حياة الناس .

## سورة المائدة

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام .  
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ..  
وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب .. القرآن .. وعلى طبيعة هذا  
المنهج .. الإسلام .. من أنه « نور » ..

إنها حقيقة يحدها المؤمن في قلبه وفي كيانه وفي حياته وفي رؤيته وتقديره للأشياء  
والأحداث والأشخاص .. يحدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان في قلبه .. « نور » نور  
تشرق به كينوته فتشف وتخف وترف . ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويتكشف  
ويستقيم .

ثقله الطين في كيانه ، وظلمة التراب ، وكثافة اللحم والدم ، وعرامة الشهوة والنزوة ..  
كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى .. تخف الثقل ، وتشرق الظلمة ، وترق الكثافة ،  
وترف العرامة ..

واللبس والغبش في الرؤية ، والتأرجح والتردد في الخطوة ، والحيرة والشروذ في  
الاتجاه والطريق البهم الذي لا معالم فيه .. كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى .. يتضح  
الهدف ويستقيم الطريق إليه وتستقيم النفس على الطريق ..

« نور . وكتاب مبين » .. وصفان للشيء الواحد .. لهذا الذي جاء به الرسول  
الكريم ..

« يهدي به الله - من اتبع رضوانه - سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور  
بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ..

لقد رضى الله الإسلام دينا .. وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما  
رضيه الله له .. يهديه .. « سبل السلام » ..

وما أدق هذا التعبير وأصدق ؛ إنه « السلام » هو ما يكسبه هذا الدين في الحياة  
كلها .. سلام الفرد . و سلام الجماعة . و سلام العالم .. سلام الضمير ، و سلام العقل ،  
و سلام الجوارح .. سلام البيت والأسرة ، و سلام المجتمع والأمة ، و سلام البشر والإنسانية ..  
السلام مع الحياة . و السلام مع الكون . و السلام مع الله رب الكون والحياة .. السلام  
الذي لا تجده البشرية - ولم تجده يوماً - إلا في هذا الدين ؛ وإلا في منهجه ونظامه  
وشريعته ، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته .

حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضى به ، من يتبع رضوان الله ، « سبل السلام » ..

## الجزء السادس

سبل السلام كلها في هذه الجوانب جميعها .. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب في الجاهليات القديمة أو الحديثة .. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية في أعماق الضمير . وحرب القلق الناشئ من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها في أوضاع الحياة .

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا السلام . إذ كانوا يذوقونه مذاقاً شخصياً ؛ ويلتذون هذا المذاق المريح ..

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة ؛ والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيب البشرية الويلات .. من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قروناً بعد قرون !

وما أحوجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام فترة من تاريخنا ؛ ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا ، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا ، وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا .. بينما نملك الدخول في السلم التي منحها الله لنا ؛ حين نتبع رضوانه ؛ ونرضى لأنفسنا ما رضى الله لنا !

إننا نعاني من ويلات الجاهلية ؛ والإسلام منا قريب . ونعاني من حرب الجاهلية وسلام الإسلام في متناول أيدينا لو نشاء .. فأية صفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى ؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام ؟ إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة في شتى الصور والألوان . ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية ، قبل أن نتخذ نحن أنفسنا ، وقبل أن نفىء ظلال السلام ، حين نفىء إلى رضوان الله وتتبع ما ارتضاه . فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم إنه يهديهم سبل السلام<sup>(١)</sup>.

« ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه » ..

والجاهلية كلها ظلمات .. ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات . وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات في التيه . وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس . وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازن .. والنور هو النور .. هو ذلك النور الذي تحدثنا عنه آنفاً في الضمير وفي العقل وفي الكيان

---

«١» يراجع بتوسع في معنى السلام الذي يهدي إليه الله من اتبع رضوانه .. كتاب : « السلام العالمي والاسلام » وكتاب : . الاسلام ومشكلات الحضارة . وفي الظلال تفسير قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة . ص ١٣٤ - ص ١٤٢ من الجزء الثاني الطبعة المنقحة ..

## سورة المائدة

وفي الحياة وفي الأمور ..

« ويهديهم إلى صراط مستقيم » ..

مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التي تحكمها . مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التي تصرفه . مستقيم إلى الله لا يلتوي ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات ..  
إن الله الذي خلق الإنسان وفطرته ؛ وخلق الكون ونواميسه ؛ هو الذي وضع للإنسان هذا المنهج ؛ وهو الذي رضي للمؤمنين هذا الدين . فطبيعي وبديهي أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم . حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجاهل الفانين !

وصدق الله العظيم . الغني عن العالمين . الذي لا يناله من هداهم أو ضلالهم شيء ولكنه بهم رحيم !

ذلك هو الصراط المستقيم . فأما القول بأن الله هو المسيح بن مريم فهو الكفر ؛ وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباءه ، فهو الافتراء الذي لا يستند إلى دليل .. وهذا وذلك من مقولات أهل الكتاب ، التي تخفي نصاعة التوحيد ؛ والتي جاءهم الرسول الأخير ليكشف عن الحقيقة فيها ، ويرد الشاردين المنحرفين عن هذه الحقيقة إليها :

### مناقشة لعقائد النصارى

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ والله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير » ..

إن الذي جاء به عيسى - عليه السلام - من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول . والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول .. لكن هذه العقيدة الناصية أدخلت عليها التحريفات ؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية ؛ وحرصهم على روايتهم الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد ، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها .

ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة ؛ ولكنها دخلت على فترات ؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى ؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير ، الذي تحار فيه العقول . حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها

المؤمنين بها !

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح - عليه السلام - في تلامذته وفي أتباعهم .  
وأحد الأنجيل الكثيرة التي كتبت - وهو إنجيل برقايا - يتحدث عن عيسى - عليه السلام -  
بوصفه رسولاً من عند الله . ثم وقعت بينهم الاختلافات . فمن قائل : إن المسيح رسول  
من عند الله كسائر الرسل . ومن قائل : إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة . ومن  
قائل : إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب ، ولكنه على هذا مخلوق لله . ومن قائل : إنه  
ابن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القدم كالآب ...

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية « مجمع نيقية » الذي اجتمع فيه  
ثمانية وأربعون ألفاً من البطارقة والأساقفة . قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي  
النصرانية :

« وكانوا مختلفين في الآراء والأديان . فمنهم من كان يقول : إن المسيح وأمه إلهان  
من دون الله . وهم « البربرانية » .. ويسمون : « الريميتيين » . ومنهم من كان يقول : إن  
المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية  
منها . وهي مقالة « سابليوس » وشيعته . ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة  
أشهر ، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب ، لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت  
من حيث يخرج الولد من ساعتها . وهي مقالة « إيليان » وأشياعه . ومنهم من كان يقول :  
إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم ،  
وإنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي ، صحبتته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالحبة  
والمشيئة ، ولذلك سمي « ابن الله » ويقولون : إن الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم  
واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس . وهي مقالة  
« بولس الشمشاطي » بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم « البوليقانيون » . ومنهم من كان  
يقول : إنهم ثلاثة آلهة لم تزل : صالح ، وطالح ، وعدل بينها . وهي مقالة « مرقيون »  
اللعين وأصحابه ! وزعموا أن « مرقيون » هو رئيس الحواريين وأنكروا « بطرس » .  
ومنهم من كانوا يقولون بألوهية المسيح . وهي مقالة « بولس الرسول » ومقالة الثلاثمائة  
وثمانية عشر أسقفاً (١) ..

(١) نقلا عن كتاب محاضرات في النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .. وسائر ما تلخصه عن هذه  
الجماع فهو عن هذا المصدر والمصادر التي رجع إليها .



## سورة المائدة

وقد اختار الإمبراطور الروماني «قسطنطين» الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية ولم يكن يدري شيئاً من النصرانية ! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم ، وشرّد أصحاب سائر المذاهب ؛ وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده ، وناسوتية المسيح .

وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه :  
« إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه . وأنه لم يوجد قبل أن يولد . وأنه وجد من لا شيء . أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب . وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول : إنه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران » .

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع « آريوس » وقد غلبت على القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبابل ، والإسكندرية ، ومصر .

ثم ثار خلاف جديد حول « روح القدس » فقال بعضهم : هو إله ، وقال آخرون : ليس بإله ! فاجتمع « مجمع القسطنطينية الأول » سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر . وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع ، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية :  
« قال ثيموثاوس بطريك الإسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئاً غير حياته . فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن روح الله مخلوق . وإذا قلنا : إن روح الله مخلوق ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة . وإذا قلنا : إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حي . وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به . ومن كفر به وجب عليه اللعن » !!

وكذلك تقرر ألوهية روح القدس في هذا المجمع ، كما تقرر ألوهية المسيح في مجمع نيقية . وتم « الثالوث » من الآب . والابن . وروح القدس .

ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية . أو اللاهوت والناسوت كما يقولون . . فقد رأى « نسطور » بطريك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة . فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه ؛ وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم ، فمريم أم الإنسان - في المسيح - وليست أم الإله ! ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم - كما نقله عنه ابن البطريق :

« إن هذا الإنسان الذي يقول : إنه المسيح . . بالحبة متحد مع الابن . . ويقال إنه

الله وابن الله ، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة ..

ثم يقول : « إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمرا إداً »

وخالفه في هذا الرأي أسقف رومة ، وبطريق الإسكندرية ، وأساقفة أنطاكية ، فاتفقوا على عقد مجمع رابع . وانعقد « مجمع أفسس » سنة ٤٣١ ميلادية . وقرر هذا المجمع - كما يقول ابن البطريق - :

« أن مريم العذراء والدة الله . وأن المسيح إله حق وإنسان ، معروف بطبيعتين ، متوحد في الأقنوم » .. ولعنوا نسطور !

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد ، انعقد له « مجمع أفسس الثاني » وقرر :

« أن المسيح طبيعة واحدة ، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت » ولكن هذا الرأي لم يسلم ؛ واستمرت الخلافات الحادة ؛ فاجتمع مجمع « خلقيدونية » سنة ٤٥١ وقرر : أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة . وأن اللاهوت طبيعة وحدها والناسوت طبيعة وحدها ، التقتا في المسيح » .. ولعنوا مجمع أفسس الثاني !

ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع . ووقعت بين المذهب المصري « المنوفيسية » والمذهب « الملوكاني » الذي تبنته الدولة الإمبراطورية ما وقع من الخلافات الدامية ، التي سبق أن أثبتنا فيها مقالة : « سير . ت . و . أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » في مطالع تفسير سورة آل عمران<sup>(١)</sup> ..

ونكتفي بهذا القدر في تصوير بحمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح ؛ والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف ، وما تزال إلى اليوم قائمة .. وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق في هذه القضية ؛ ولتقول كلمة الفصل ؛ ويحيى الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم » .. « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » .. ( كما سيحيى في السورة ) .

ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع :

« قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم ، وأمه ، ومن في

(١) ص ١٤١ - ص ١٤٢ من الجزء الثالث من هذه الطبعة .

## سورة المائدة

الأرض جميعاً ٢ .

يفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشئته وسلطانه ، وبين ذات عيسى - عليه السلام - وذات أمه ، وكل ذات أخرى . في نصاعة قاطعة حاسمة . فذات الله - سبحانه - واحدة . ومشئته طليقة ، وسلطانه متفرد ، ولا يملك أحد شيئاً في رد مشئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ..

وهو - سبحانه - مالك كل شيء ، وخالق كل شيء ، والخالق غير المخلوق . وكل شيء مخلوق :

« والله ملك السماوات والأرض وما بينها ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير » .. وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية ، ووضوحها وبساطتها .. وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية . في تقرير حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين . بلا غبش ولا شبهة ولا غموض .. واليهود والنصارى يقولون : إنهم أبناء الله وأحباؤه :

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه » ..

فزعموا الله - سبحانه - أبوة ، على تصور من التصورات ، إلا تكن أبوة الجسد فهي أبوة الروح . وهي أياً كانت تلقي ظلاً على عقيدة التوحيد ؛ وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية . هذا الفصل الذي لا يستقيم التصور ، ولا تستقيم الحياة ، إلا بتقريره . كي تتوحد الجهة التي يتوجه إليها العباد كلهم بالعبودية ؛ وتتوحد الجهة التي تشرع للناس ؛ وتضع لهم القيم والموازن والشرائع والقوانين ، والنظم والأوضاع ، دون أن تتداخل الاختصاصات ، بتداخل الصفات والخصائص ، وتداخل الألوهية والعبودية .. فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب ، إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف !

واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، كانوا يقولون - تبعاً لهذا - إن الله لن يعذبهم بذنوبهم ! وإنهم لن يدخلوا النار - إذا دخلوا - إلا أياماً معدودات . ومعنى هذا أن عدل الله لا يجري مجراه ! وأنه - سبحانه - مجابي فريقاً من عباده ، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ! فأى فساد في الحياة

يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور ؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف ؟!

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور ، وكل ما يمكن أن ينشئه من الفساد في الحياة ، ويقرر عدل الله الذي لا يحابي ؛ كما يقرر بطلان ذلك الادعاء : « قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » .. بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان . يقرر بطلان ادعاء النبوة ؛ فهم بشر ممن خلق . ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد . على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه . لا بسبب بنوة أو صلة شخصية ! ثم يكرر أن الله هو المالك لكل شيء ، وأن مصير كل شيء إليه : « والله ملك السماوات والأرض وما بينها وإليه المصير » ..

والمالك غير المملوك . تتفرد ذاته - سبحانه - وتتفرد مشيئته ، ويصير إليه الجميع ..



وينتهي هذا البيان بتكرار النداء الموجه إلى أهل الكتاب ، يقطع به حجتهم ومعذرتهم ويقفهم أمام « المصير » وجهاً لوجه ، بلا غش ولا عذر ، ولا غموض : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل .. أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير .. فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شيء قدير » .. وبهذه المواجهة الحاسمة ، لا تعود لأهل الكتاب جميعاً حجة من الحجج .. لا تعود لهم حجة في أن هذا الرسول الأمي لم يرسل إليهم . فالله - سبحانه - يقول : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا » ..

ولا تعود لهم حجة في أنهم لم ينبهوا ولم يبشروا ولم يندروا في مدى طويل ؛ يقع فيه النسيان ويقع فيه الانحراف .. فقد جاءهم - الآن - بشير ونذير .. ثم يذكرهم أن الله لا يعجزه شيء .. لا يعجزه أن يرسل رسولا من الأميين . ولا يعجزه كذلك أن يأخذ أهل الكتاب بما يكسبون : « والله على كل شيء قدير » ..

وتنتهي هذه الجولة مع أهل الكتاب ؛ فتكشف انحرافاتهم عن دين الله الصحيح الذي جاءتهم به رسلهم من قبل . وتقرر حقيقة الاعتقاد الذي يرضاه الله من المؤمنين . وتبطل حجتهم في موقفهم من النبي الأمي ؛ وتأخذ عليهم الطريق في الاعتذار يوم الدين ..

## سورة المائدة

وبهذا كله تدعوهم إلى الهدى من ناحية ؛ وتضعف تأثير كيدهم في الصف المسلم من ناحية أخرى . وتنير الطريق للجماعة المسلمة ولطلاب الهدى جميعاً .. إلى الصراط المستقيم .. على أبواب الأرض المقدسة

وفي نهاية الدرس يصل السياق إلى الموقف الأخير لبني إسرائيل مع رسولهم ومنقذهم - موسى عليه السلام - على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله ؛ وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم ؛ وكيف تقضوه ؛ وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق الوثيق : « وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ؛ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدباركم فتقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين ؛ وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلا عليهما الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ؛ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون . قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين . »

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل .. ذلك لحكمة متشعبة الجوانب ..

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الاول . هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة ؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة والمسلمين معاً . وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة . وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم ؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة . وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة .. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها . ما طبيعتهم ؟ وما تاريخهم ؟ وما وسائلهم ؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم ؟ ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كلها ؛ كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله . فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً ؛ ووسائلهم كلها مكشوفة .

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة ؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ؛ ووقع منهم النقص المتكرر لميثاق الله معهم ؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقص وهذا الانحراف ، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم .. فاقترضوا هذا أن تلم الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بحملتها - بتاريخ القوم ، وتقلبات هذا التاريخ ؛ وتعرف مزالق الطريق ، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم ، لتضم هذه التجربة - في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها ؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنتفع على مدار القرون . ولتتقي - بصفة خاصة - مزالق الطريق ، ومداخل الشيطان ، وبوادر الانحراف ، على هدى التجارب الأولى .

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل . وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها ؛ وتنحرف أجيال منها ؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل ؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجدي الدعوة في أجيالها الكثيرة ، نماذج من العقابيل التي تنم بالأمم ؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت ! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة ، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها ، وينفض عنها الركام ، لجذته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة : فأما القلوب التي نوديت من قبل ، فالنداء الثاني لا تكون له جذته ، ولا تكون له هزته ؛ ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته ، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف ، وإلى الصبر الطويل ! وجوانب شتى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل ، وعرضها مفصلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين ؛ القوام على البشر أجمعين .. جوانب شتى لا غلظك هنا الماضي معها أكثر من هذه الإشارات السريعة .. لنعود إلى هذه الحلقة ، في هذا الدرس ، في هذه السورة :

« وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » ..  
 .. وإننا لنلمح في كلمات موسى - عليه السلام - إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على

## سورة المائدة

الأعقاب . فقد جربهم من قبل في «مواطن كثيرة» في خط سير الرحل الطويل .. جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر؛ وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذي فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده . فإذا هم يمشون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فيقولون « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » .. وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه حتى يتخذ السامري من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجباً ذهباً له خوار؛ ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته ! .. وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر - أرض الذل بالنسبة لهم - فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام وحياة في سبيل العز والخلاص ، والهدف الأسمى ، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ! .. وجربهم في قصة البقرة التي أمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ .. « فذبحوها وما كادوا يفعلون » ! وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده . فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمشوا العهد مع ربهم - بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا - ولم يطعوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوفاً فوق رؤوسهم ، « وظنوا أنه واقع بهم » ! .. لقد جربهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل .. ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا . الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته ..

لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيها ألمع الذكريات ، وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات :

« يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » ..

نعمة الله . ووعدته الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً . وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ . والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله . فهي إذن يقين .. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده . وهذا وعده الذي هم عليه قادمون .. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين .. ولكن إسرائيل .. هي إسرائيل !! الجبن . والتمحل . والنكوص على الأعقاب .



ونقض الميثاق :

« قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين ؛ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون » ..

إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجميل . ذلك أنهم أمام الخطر ؛ فلا بقية إذن من تجميل ؛ ولا محاولة إذن للتشجيع ، ولا مجال كذلك للتمحل . إن الخطر ماثل قريب ؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى !

« إن فيها قوماً جبارين .. وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها .. فإن يخرجوا منها فإننا داخلون » ..

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود ! وهي فارغة القلوب من الإيمان ! « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليها : ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه .. فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ! ويرزقها شجاعة في وجه الخطر الموهوم ! وهذان هما يشهدان بقولتها هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة ؛ وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس . فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين : مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس .. والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ؛ ولا يخاف شيئاً سواه ..

« ادخلوا عليهم الباب . فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » ..

قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب .. أقدموا واقتحموا . فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم ؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ..

« وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » ..

فعلى الله - وحده - يتوكل المؤمن . وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته ؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ..

ولكن لمن يقولان هذا الكلام ؟ لبني إسرائيل ؟!

« قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا

## سورة المائدة

ها هنا قاعدون ..

وهكذا يخرج الجبناء فيتوقعون؛ ويفزعون من الخطر أمامهم فيفسون بأرجلهم كالحر ولا يقدمون ! والجبن والتوقع ليسا متناقضين ولا متباعيين ؛ بل إنها لصنوان في كثير من الأحيان . يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن . فيخرج بأنه ناكل عن الواجب ، فيسب هذا الواجب ؛ ويتوقع على دعوته التي تكلفه ما لا يريد !

« فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون .. »

هكذا في وقاحة العاجز ، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان !

« فاذهب أنت وربك » ...!

فليس برهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال !

« أنا ها هنا قاعدون .. »

لا نريد ملكاً ، ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد .. ودونها لقاء الجبارين ! هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام . نهاية الجهد الجهيد . والسفر الطويل . واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل !

نعم ها هي ذي نهاية المطاف .. نكوصاً عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها . ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق .. فماذا يصنع ؟ وبمن يستجير ؟ « قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » .. دعوة فيها الألم . وفيها الالتجاء . وفيها الاستسلام . وفيها - بعد ذلك - المفارقة والحسم والتصميم !

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . ولكن موسى في ضعف الإنسان المخدول . وفي إيمان النبي الكليم . وفي عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجهاً إلا الله . يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين . فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق . ما يربطه بهم نسب . وما يربطه بهم تاريخ . وما يربطه بهم جهد سابق . إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله ، وهذا الميثاق مع الله . وقد فصلوه . فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق . وما عاد يربطه بهم رباط .. إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون .. إنه متمسك بميثاق الله وهم ناكصون .

هذا هو أدب النبي . وهذه هي خطة المؤمن . وهذه هي الأصرة التي يجتمع عليها أو

## الجزء السادس

يتفرق المؤمنون .. لا جنس .. لا نسب .. لا قوم .. لا لغة .. لا تاريخ .. لا وشيجة من كل وشائج الأرض ؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة ؛ وإذا اختلف المنهج والطريق .. واستجاب الله لنبيه .. وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ..

« قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض .. فلا تأس على القوم الفاسقين » ..

وهكذا أسلمهم الله - وهم على أبواب الأرض المقدسة - للتيه ؛ وحرّم عليهم الأرض التي كتبها لهم .. والأرجح أنه حرّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة ؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل .. جيل يعتبر بالدرس ، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود .. جيل غير هذا الجيل الذي أقسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل ! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب ..

ويتركهم السياق هنا - في التيه - لا يزيد على ذلك .. وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني ، على طريقة القرآن في التعبير<sup>(١)</sup> ..



ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - بما قصه الله عليهم - من القصص - فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر ، قالوا لنبيهم - ﷺ - إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم : « فاذهب أنت وربك فقاتل إنا ها هنا قاعدون » لكن نقول : اذهبت أنت وربك فقاتل فإننا معكم مقاتلون ..

وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة ؛ وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل ..

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا، فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ : لَا قُتْلُكَ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

(١) يراجع : فصل « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » للمؤلف وكتاب « منهج الفن الاسلامي » لمحمد قطب .

رَبِّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ  
النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ  
أَخِيهِ ، قَالَ : يَا وَيْلَتَا ! أَعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ، فَأُوَارِي  
سَوْأَةَ أَخِي ؟ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ  
فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا  
النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ  
فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ،  
أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ  
الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ  
تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِي  
سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا  
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ . يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ - وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا - وَلَهُمْ عَذَابٌ  
مُقِيمٌ .

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا - نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ - وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

يأخذ هذا الدرس في بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية في الحياة البشرية . وهي الأحكام المتعلقة بحماية النفس والحياة في المجتمع المسلم المحكوم بمنهج الله وشريعته . وحماية النظام العام وصيافته من الخروج عليه ، وعلى السلطة التي تقوم عليه بأمر الله ، في ظل شريعة الله ؛ وعلى الجماعة المسلمة التي تعيش في ظل الشريعة الإسلامية والحكم الإسلامي . وحماية المال والملكية الفردية في هذا المجتمع ، الذي يقوم نظامه الاجتماعي كله على شريعة الله . .

وتستغرق هذه الأحكام المتعلقة بهذه الأمور الجوهرية في حياة المجتمع هذا الدرس ؛ مع مقدمة لهذه الأحكام بقصة « بني آدم » التي تكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية ؛ كما تكشف عن بشاعة الجريمة وفجورها ؛ وضرورة الوقوف في وجهها والعقاب لفاعلها ؛ ومقاومة البواعث التي تحرك النفس للإقدام عليها . . وتبدو القصة وأحداثها ملتحمة التحاماً قوياً مع الأحكام التالية لها في السياق القرآني . ويحس القارئ المتأمل للسياق بوظيفة هذه القصة في موضعها ؛ وبعمق الإيحاء الإقناعي الذي تسكبه في النفس وترسبه ؛ والاستعداد الذي تنشئه في القلب والعقل لتلقي الأحكام المشددة التي يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء على النفس والحياة ؛ والاعتداء على النظام العام ؛ والاعتداء على المال والملكية الفردية ؛ في ظل المجتمع الإسلامي ؛ القائم على منهج الله ؛ المحكوم بشريعته .

والمجتمع المسلم يقيم حياته كلها على منهج الله وشريعته ؛ وينظم شؤونه وارتباطاته وعلاقاته على أسس ذلك المنهج وعلى أحكام هذه الشريعة . . ومن ثم يكفل لكل فرد - كما يكفل للجماعة - كل عناصر العدالة والكفاية والاستقرار والطمأنينة ، ويكف عنه كل عوامل الاستفزاز والإثارة ، وكل عوامل الكبت والقمع ، وكل عوامل الظلم والاعتداء ، وكل عوامل الحاجة والضرورة . . وكذلك يصبح الاعتداء في مثل هذا المجتمع الفاضل

## سورة المائدة

العادل المتوازن المتكافل - على النفس والحياة، أو على النظام العام، أو على الملكية الفردية؛ جريمة بشعة منكورة، مجردة عن البواعث المبررة - أو المخففة - بصفة عامة .. وهذا يفسر التشدد ضد الجريمة والمجرمين، بعد تهيئة الظروف المساعدة على الاستقامة عند الأسوياء من الناس؛ وتنحية البواعث على الجريمة من حياة الفرد وحياة الجماعة .. وإلى جانب هذا كله، ومع هذا كله؛ يكفل النظام الإسلامي للمجرم المعتدي كل الضمانات لسلامة التحقيق والحكم؛ ويدراً عنه الحدود بالشبهات؛ ويفتح له كذلك باب التوبة التي تسقط الجريمة في حساب الدنيا في بعض الحالات، وتسقطها في حساب الآخرة في كل الحالات ..

.. وسنرى نماذج من هذا كله في هذا الدرس، وفيما تضمنه من أحكام .. ولكن قبل أن نأخذ في المضي مع السياق وفي الحديث المباشر عن هذه الأحكام التي تضمنها لا بد أن نقول كلمة عامة؛ عن البيئة التي تنفذ فيها هذه الأحكام؛ والشروط التي تجعل لها قوة النفاذ ..

إن هذه الأحكام الواردة في هذا الدرس - سواء فيما يتعلق بالاعتداء على النفس أو الاعتداء على النظام العام؛ أو الاعتداء على المال - شأنها شأن سائر الأحكام الواردة في الشريعة، في جرائم الحدود؛ والقصاص؛ والتعازير .. كلها إنما تكون لها قوة التنفيذ في « المجتمع المسلم » في « دار الإسلام » .. ولا بد من بيان ما تعنيه الشريعة بدار الإسلام :

ينقسم العالم في نظر الإسلام وفي اعتبار المسلم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما :

الأول : « دار الإسلام » .. وتشمل كل بلد تطبق فيه أحكام الإسلام، وتحكمه شريعة الإسلام، سواء كان أهله كلهم مسلمين، أو كان أهله مسلمين وذميين .. أو كان أهله كلهم ذميين ولكن حكمهم مسلمون يطبقون فيه أحكام الإسلام، ويحكمونه بشريعة الإسلام<sup>(١)</sup> .. أو كانوا مسلمين، أو مسلمين وذميين ولكن غلب على بلادهم حربيون، غير أن أهل البلد يطبقون أحكام الإسلام ويقضون بينهم حسب شريعة الإسلام .. فالمدار كله في اعتبار بلد ما « دار إسلام » هو تطبيقه لأحكام الإسلام وحكمه بشريعة الإسلام ..

الثاني : دار الحرب .. وتشمل كل بلد لا تطبق فيه أحكام الإسلام، ولا يحكم بشريعة الإسلام .. كائناً أهله ما كانوا .. سواء قالوا : إنهم مسلمون، أو إنهم أهل كتاب، أو

(١) لا يلزم الذمي بكل أحكام الإسلام .. إنما يلزم فقط بما لا يتعارض مع عقيدته من أحكام الإسلام ..

إنهم كفار . فالمدار كله في اعتبار بلد ما « دار حرب » هو عدم تطبيقه لأحكام الإسلام وعدم حكمه بشريعة الإسلام ، وهو يعتبر « دار حرب » بالقياس للمسلم وللجماعة المسلمة . والمجتمع المسلم هو المجتمع الذي يقوم في دار الإسلام بتعريفها ذاك .

وهذا المجتمع القائم على منهج الله ، المحكوم بشريعته ، هو الذي يستحق أن تصان فيه الدماء ، وتصان فيه الأموال ؛ ويصان فيه النظام العام ؛ وأن توقع على الخلق بأمنه ، المعتدين على الأرواح والأموال فيه العقوبات التي تنص عليها الشريعة الإسلامية ، في هذا البرزخ وفي سواه . . . ذلك أنه مجتمع رفيع فاضل ؛ ومجتمع متحرر عادل ؛ ومجتمع مكفولة فيه ضمانات العمل و ضمانات الكفاية لكل قادر وكل عاجز ؛ ومجتمع تتوافر فيه الحوافز على الخير وتقل فيه الحوافز على الشر من جميع الوجوه . فمن حقه إذن على كل من يعيش فيه أن يرعى هذه النعمة التي يسبغها عليه النظام ؛ وأن يرعى حقوق الآخرين كلها من أرواح وأموال وأعراض وأخلاق ؛ وأن يحافظ على سلامة « دار الإسلام » التي يعيش فيها آمناً سالماً غانماً مكفول الحقوق جميعاً ، معترفاً له بكل خصائصه الإنسانية ، وبكل حقوقه الاجتماعية - بل مكلفاً بحماية هذه الخصائص والحقوق - فمن خرج بعد ذلك كله على نظام هذه الدار - دار الإسلام - فهو معتد أثم شرير يستحق أن يؤخذ على يده بأشد العقوبات ؛ مع توفير كل الضمانات له في أن لا يؤخذ بالظن ، تدراً عنه الحدود بالشبهات .

فأما « دار الحرب » بتعريفها ذاك . . . فليس من حقها ولا من حق أهلها أن يتمتعوا بما توفره عقوبات الشريعة الإسلامية من ضمانات ، لأنها ابتداء لا تطبق شريعة الإسلام ، ولا تعترف بحاكمية الإسلام . . . وهي - بالنسبة للمسلمين ( الذين يعيشون في دار الإسلام ويطبقون على حياتهم شريعة الإسلام ) - ليست حمى . فأرواحها وأموالها مباحة ، ولا حرمة لها عند الإسلام - إلا بعهد من المسلمين ؛ حين تقوم بينها وبين دار الإسلام المعاهدات - كذلك توفر الشريعة هذه الضمانات كلها للأفراد الحربيين ( القادمين من دار الحرب ) إذا دخلوا دار الإسلام بعهد أمان ؛ مدة هذا العهد ؛ وفي حدود « دار الإسلام » التي تدخل في سلطان الحاكم المسلم ( والحاكم المسلم هو الذي يطبق شريعة الإسلام ) . وعلى ضوء هذا البيان نستطيع أن نغضي مع السياق :

« وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ؛ إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما



## سورة المائدة

أنا بياسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين : إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ، ليريه كيف يواري سوءة أخيه . قال : يا ويلتنا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوءة أخي ؟ فأصبح من النادمين ...»

### قصة ابني آدم

هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان ؛ ونموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له . كما تقدم نموذجاً لطبيعة الخير والسباحة ؛ ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة . وتقفها وجهاً لوجه ، كل منها يتصرف وفق طبيعته .. وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر ، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير ؛ ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء ؛ وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة ؛ فإذا ارتكبها - على الرغم من ذلك - وجد الجزاء العادل ، المكافئ للفعلة المنكرة . كم تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه . فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش ، وأن تصان ، وأن تـأمن ؛ في ظل شريعة عادلة رادعة .

ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة .. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن « قابيل وهابيل » وأنها هما ابنا آدم في هذه القصة ؛ وورود تفصيلات عن القضية بينها ، والنزاع على أختين لها .. فإننا نؤثر أن نستبقي القصة - كما وردت - بحالة بدون تحديد . لأن هذه الروايات كلها موضع شك في أنها مأخوذة عن أهل الكتاب - والقصة واردة في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذي تذكره هذه الروايات - والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل . وهو من رواية ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » .. رواه الإمام أحمد في مسنده : حدثنا أبو معاوية وو كيع قالوا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود .. وأخرجه الجماعة - سوى أبي داود - من طرق عن الأعمش .. وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الحادث وقع في فترة طفولة الإنسان ، وأنه كان أول حادث قتل عدواني متعمد ، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث ..

## الجزء السادس

وبقاء القصة بجملة - كما وردت في سياقها القرآني - يؤدي الغرض من عرضها ؛ ويؤدي الإيجاءات كاملة ؛ ولا تضيف التفاصيل شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية .. لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله ..

« وائل عليهم نبأ ابني آدم - بالحق - إذ قربا قربانا . فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين » ..

وائل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية - بعد ما تلوت من قصة بني إسرائيل مع موسى - اتله عليهم بالحق . فهو حق وصدق في روايته ؛ وهو ينبيء عن حق في الفطرة البشرية ؛ وهو يحمل الحق في ضرورة الشريعة العادلة الرادعة .

إن ابني آدم هذين في موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء في نفس طيبة .. فهما في موقف طاعة بين يدي الله . موقف تقديم قربان ، يتقربان به إلى الله : « إذ قربا قربانا » ..

« فتقبل أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر » ..

والفعل مبني للمجهول ؛ ليشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية ؛ وإلى كيفية غيبية .. وهذه الصياغة تفيدنا أمرين : الأول ألا نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير « العهد القديم » .. والثاني الإيجاء بأن الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله ، فالأمر لم يكن له يد فيه ؛ وإنما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية ؛ تعلو على إدراك كليها وعلى مشيئته .. فما كان هناك مبرر ليحرق الأخ على أخيه ، وليجيش خاطر القتل في نفسه ! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال .. مجال العبادة والتقرب ، ومجال القدرة الغيبية الخفية التي لا دخل لإرادة أخيه في مجالها ..

« قال : لأقتلنك » ..

وهكذا يبدو هذا القول - بهذا التأكيد المنبئ عن الإصرار - نائياً مثيراً للاستنكار لأنه ينبعث من غير موجب ؛ اللهم إلا ذلك الشعور الخبيث المنكر . شعور الحسد الأعمى ؛ الذي لا يعمر نفساً طيبة ..

وهكذا نجدنا منذ اللحظة الأولى ضد الاعتداء ؛ بإيجاء الآية التي لم تكمل من السياق .. ولكن السياق يمضي يزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة ؛ بتصوير استجابة النموذج

## سورة المائدة

الآخر ؛ ووداعته وطيبة قلبه :

« قال : إنما يتقبل الله من المتقين » .

هكذا في براءة ترد الأمر إلى وضعه وأصله ؛ وفي إيمان يدرك أسباب القبول ؛ وفي توجيه رفيق للمعتدي أن يتقي الله ؛ وهداية له إلى الطريق المؤدي إلى القبول ؛ وتعريض لطيف به لا يصرح بما يחדشه أو يستثيره ..

ثم يمضي الأخ المؤمن التقي الوديع المسالم يكسر من شره الشر الهائج في نفس أخيه الشرير :

« لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين » ..

وهكذا يرسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى ؛ في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني ؛ وحماة للمعتدي عليه ضد المعتدي ؛ وإعجاباً بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء ؛ وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين .

ولقد كان في هذا القول اللين ما يفتأ الحقد ؛ ويهدئ الحسد ، ويسكن الشر ، ويمسح على الأعصاب المهتاجة ؛ ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة ، وبشاشة الإيمان ، وحساسية التقوى .

أجل . لقد كان في ذلك كفاية .. ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير :  
« إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » ..  
إذا أنت مددت يدك إليّ لتقتلني ، فليس من شأني ولا من طبعي أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك . فهذا الخاطر - خاطر القتل - لا يدور بنفسي أصلاً ، ولا يتجه إليه فكري إطلاقاً خوفاً من الله رب العالمين .. لا عجزاً عن إتيانه .. وأنا تاركك تحمل إثم قتلي وتضيفه إلى إثمك الذي جعل الله لا يتقبل منك قربانك ؛ فيكون إثمك مضاعفاً ، وعذابك مضاعفاً .. « وذلك جزاء الظالمين » ..

وبذلك صور له إشفاقه هو من جريمة القتل ، ليثنيه عما تراوده به نفسه ، وليخجله من هذا الذي تحدثه به نفسه تجاه أخ مسالم وديع تقى .

وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منه ، ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف ، بالخوف من الله رب العالمين ؛ وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان في صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان ..

## الجزء السادس

ولكن النموذج الشرير لا تكمل صورته ، حتى نعلم كيف كانت استجابته :  
« فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ..  
بعد هذا كله . بعد التذكير والعظة والمسألة والتحذير . بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة ، فوقعت الجريمة . وقعت وقد ذلت له نفسه كل عقبة ، وطوعت له كل مانع ..  
طوعت له نفسه القتل .. وقتل من ؟ قتل أخيه .. وحق عليه النذير :  
« فأصبح من الخاسرين » ..

خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك . وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق . وخسر دنياه فما تنهأ للقاتل حياة . وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير ..  
ومثلت له سوءة الجريمة في صورتها الحسية . صورة الجثة التي فارقها الحياة وباتت لما يسري فيه العفن ، فهو سوءة لا تطيقها النفوس .  
وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه — وهو الباطش القاتل الفاتك — عن أن يوارى سوءة أخيه . عجزه أن يكون كالغراب في أمة الطير :  
« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه » . قال : يا ويلتنا !  
أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخي ؟ فأصبح من النادمين » ..  
وتقول بعض الروايات : إن الغراب قتل غراباً آخر ، أو وجد جثة غراب أو جاء ومعه جثة غراب ، فجعل يحفر في الأرض ، ثم واره وأهال عليه التراب .. فقال القاتل قوله : وفعل مثلاً رأى الغراب يفعل ..

وظاهر أن القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتاً يدفن — وإلا لفعل — وقد يكون ذلك لأن هذا كان أول ميت في الأرض من أبناء آدم . أو لأن هذا القاتل كان حدثاً ولم ير من يدفن ميتاً .. والاحتمالان قائمان . وظاهر كذلك أن ندمه لم يكن ندم التوبة — وإلا لقبّل الله توبته — وإنما كان الندم الناشئ من عدم جدوى فعلته ، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق . كما أن دفن الغراب لأخيه الغراب ، قد يكون من عادات الغربان كما يقول بعض الناس . وقد يكون حدثاً خارقاً أجراه الله .. وهذه كتلك سواء .. فالذي يودع الأحياء غرائزهم هو الذي يجري أي حدث على يد أي حي .. هذا من قدرته ، وهذا من قدرته على السواء ..

وهنا يلتقط السياق الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل ، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم ؛ أو للقصاص العادل

## سورة المائدة

إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره :  
« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل ؛ إنه من قتل نفساً - بغير نفس أو فساد في الأرض - فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ؛ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون . »  
من أجل ذلك .. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية .. من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين للخيرين الطيبين ، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً .. ومن أجل أن الموعدة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر ؛ وأن المسالمة والمواعدة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس .. من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة ، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً ؛ وجعلنا العمل على دفع القتل واستيحاء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً .. وكتبنا ذلك على بني إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة (وسيأتي في الدرس التالي في سياق السورة بيان شريعة القصاص مفصلة ) .

إن قتل نفس واحدة - في غير قصاص لقتل ، وفي غير دفع فساد في الأرض - يعدل قتل الناس جميعاً . لأن كل نفس ككل نفس ؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس . فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته ؛ الحق الذي تشترك فيه كل النفوس . كذلك دفع القتل عن نفس ، واستيحائها بهذا الدفع - سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى - هو استيحاء للنفوس جميعاً ، لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً .

وبالرجوع إلى البيان الذي قدمنا به لهذه الأحكام ، يتبين أن هذا التقرير ينطبق - فقط - على أهل دار الإسلام - من مسلمين وذميين ومستأمنين - فأما دم أهل دار الحرب فهو مباح - ما لم تقم بينهم وبين أهل دار الإسلام معاهدة - وكذلك ما لهم . فيحسن أن نكون دائماً على ذكر من هذه القاعدة التشريعية ؛ وأن نتذكر كذلك أن دار الإسلام هي الأرض التي تقام فيها شريعة الإسلام ، ويحكم فيها بهذه الشريعة ، وأن دار الحرب هي الأرض التي لا تقام فيها شريعة الله ، ولا يحكم فيها بهذه الشريعة ...

ولقد كتب الله ذلك المبدأ على بني إسرائيل ؛ لأنهم كانوا - في ذلك الحين - هم أهل الكتاب ؛ الذين يمثلون « دار الإسلام » ما أقاموا بينهم شريعة التوراة بلا تحريف ولا التواء .. ولكن بني إسرائيل تجاوزوا حدود شريعتهم - بعد ما جاءتهم الرسل بالبينات

الواضحة - وكانوا على عهد رسول الله ﷺ وما يزالون يكثرون فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم . والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والاعتداء ؛ بغير عذر؛ ويسجل عليهم كذلك انقطاع حجتهم على الله وسقوطها بمجيء الرسل إليهم وببيان شريعتهم لهم :

« ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ؛ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون . »  
 وهل من إسراف أشد من تجاوز حدود الله ؛ والتعدي على شريعته ، بالتغيير أو بالإهمال ؟

### عقوبة الفساد في الأرض

وفي الآية السابقة قرن الله قتل النفس بالفساد في الأرض؛ وجعل كلا منها مبرراً للقتل، واستثناء من صيانة حق الحياة ، وتقطيع جريمة إزهاق الروح .. ذلك أن أمن الجماعة المسلمة في دار الإسلام، وصيانة النظام العام الذي تستمتع في ظله بالأمان، وتزاول نشاطها الخير في طمأنينة .. ذلك كله ضروري كأمن الأفراد .. بل أشد ضرورة ؛ لأن أمن الأفراد لا يتحقق إلا به ؛ فضلاً على صيانة هذا النموذج الفاضل من المجتمعات ، وإحاطته بكل ضمانات الاستقرار ؛ كما يزاول الأفراد فيه نشاطهم الخير ، وكما تترقى الحياة الإنسانية في ظله وتثمر، وكما تتفتح في جوه براعم الخير والفضيلة والإنتاج والنماء .. وبخاصة أن هذا المجتمع يوفر للناس جميعاً ضمانات الحياة كلها ، وينشر من حولهم جواً تنمو فيه بذور الخير وتذوي بذور الشر ، ويعمل على الوقاية قبل أن يعمل على العلاج ، ثم يعالج ما لم تتناوله وسائل الوقاية . ولا يدع دافعاً ولا عذراً للنفس السوية أن تميل إلى الشر وإلى الاعتداء .. فالذي يهدد أمنه - بعد ذلك كله - هو عنصر خبيث يجب استئصاله ؛ ما لم يثب إلى الرشد والصواب ...

فالآن يقرر عقوبة هذا العنصر الخبيث ، وهو المعروف في الشريعة الإسلامية بجد الحرابية :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .. ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » ..

وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص ، هي الخروج على الإمام المسلم الذي

## سورة المائدة

يحكم بشريعة الله ، والتجمع في شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهل دار الإسلام ؛ وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرمااتهم . ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيداً عن مدى سلطان الإمام . ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة ، وأخذها في الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقاً عليها . سواء خارج المصر أو داخله . وهذا هو الأقرب للواقع العملي ومجاہته بما يستحقه .

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله ؛ المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة ( سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد ) لا يحاربون الحاكم وحده ، ولا يحاربون الناس وحدهم . إنما يحاربون الله ورسوله . حينما يحاربون شريعته ، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة ، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة . كما أنهم يحربهم الله ورسوله ، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها ، يسعون في الأرض فساداً .. فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله ، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة ..

إنهم يحاربون الله ورسوله .. وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم . فهم قطعاً لا يحاربون الله - سبحانه - بالسيف ، وقد لا يحاربون شخص رسول الله - بعد اختياره الرفيق الأعلى - ولكن الحرب لله ورسوله متحققة ، بالحرب لشريعة الله ورسوله ، وللجماعة التي ارتضت شريعة الله ورسوله ، وللدار التي تنفذ فيها شريعة الله ورسوله .

كما أن للنص - في صورته هذه - مفهوماً آخر متعيناً كهذا المفهوم - هو أن السلطان الذي يحق له - بأمر الله - أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة ، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله ، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله .. وليس أي سلطان آخر لا تتوافر فيه هذه الصفة ، في أية دار أخرى لا يتوفر لها هذا الوصف ..

نقرر هذا بوضوح ، لأن بعض أذئاب السلطة في كل زمان ، كانوا يفتنون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة ، ولا يحققون وجود دار إسلام في بلادهم ، ولو زعموا أنهم مسلمون .. كانوا يفتنون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات - باسم شريعة الله - بينما كانت هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله



ورسوله ؛ بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله ..

إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام ، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله .. وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه؛ فإلها تتحكك بقانون الله وتدعيه؟!

.. إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلحة ، التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله ؛ وتروع عباد الله في دار الإسلام ، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرمتهم .. أن يقتلوا تقتيلاً عادياً . أو أن يصلبوا حتى يموتوا ( وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب ) أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى .. من خلاف ..

ويختلف الفقهاء اختلافاً واسعاً حول هذا النص : إن كان للإمام الخيار في هذه العقوبات ، أم أن هناك عقوبة معينة لكل جريمة تقع من الخارجين .

« ويرى الفقهاء في مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد أن العقوبات مرتبة على حسب الجناية التي وقعت . فمن قتل ولم يأخذ مالا قتل ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطع ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن أخاف السبيل ولكنه لم يقتل ولم يأخذ مالا نفي :

« وعند مالك أن المحارب إذا قتل فلا بد من قتله ، وليس للإمام تخيير في قطعه ولا في نفيه ، وإنما التخيير في قتله أو صلبه ، وأما إن أخذ المال ولم يقتل فلا تخيير في نفيه ، وإنما التخيير في قتله أو صلبه أو قطعه من خلاف . وأما إذا أخاف السبيل فقط ، فالإمام مخير في قتله أو صلبه أو قطعه أو نفيه .. ومعنى التخيير عند مالك أن الأمر راجع في ذلك إلى اجتهاد الإمام . فإن كان المحارب ممن له الرأي والتدبير فوجه الاجتهاد قتله أو صلبه ، لأن القطع لا يدفع ضرره . وإن كان لا رأي له وإنما هو ذو قوة وبأس قطعه من خلاف . وإن كان ليس له شيء من هاتين الصفتين أخذ بأيسر ذلك وهو النفي والتعزير »<sup>(١)</sup>

ونحن نختار رأي الإمام مالك في الفقرة الأخيرة منه ، وهي أن العقوبة قد توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل . لأن هذا إجراء وقائي المقصود منه أولاً منع وقوع الجريمة ، والتغليظ على المفسدين في الأرض الذين يروعون دار الإسلام ؛ ويفزعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار . وهي أجدر جماعة وأجدر دار بالأمن والطمأنينة والسلام .

(١) عن كتاب : « التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي » لعبد القادر عودة .

## سورة المائدة

كذلك يختلفون في معنى النفي من الأرض.. هل هو النفي من الأرض التي ارتكب فيها جريمته ؟ أم هو النفي من الأرض التي يملك فيها حرية وذلك بحبسه . أم هو النفي من الأرض كلها ولا يكون ذلك إلا بالموت ؟

ونحن نختار النفي من أرض الجريمة ، إلى مكان ناء يحس فيه بالغرابة والتشريد والضعف ؛ جزاء ما شرد الناس وخوفهم وطمع بقوته فيهم . حيث يصبح في منفاه عاجزاً عن مزاوله جريمته بضعف عصبية ، أو بعزله عن عصابته !

« ذلك لهم خزي في الدنيا .. ولهم في الآخر عذاب عظيم » ..

فالجزاء الذي يلقونه إذن في الدنيا لا يسقط عنهم العذاب في الآخرة ، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى . وهذا كذلك تغليظ للعقوبة ، وتبشيع للجريمة .. ذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة . وذلك أن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة . فهذا هو الوسط الخير الرفيع الذي يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره . وهذا هو النظام العدل الكامل الذي يجب أن يسان من المساس به ..

فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وفسادهم ، نتيجة استشعارهم نكارة الجريمة ، وتوبة منهم إلى الله ورجوعاً إلى طريقه المستقيم - وهم ما يزالون في قوتهم ، لم تنلهم يد السلطان - سقطت جريمتهم وعقوبتها معاً ، ولم يعد للسلطان عليهم من سبيل ، وكان الله غفوراً لهم رحيماً بهم في الحساب الأخير :

« إلا الذين تابوا - من قبل أن تقدرُوا عليهم - فاعلموا أن الله غفور رحيم » ..

والحكمة واضحة في إسقاط الجريمة والعقوبة في هذه الحالة عنهم من ناحيتين :

الأولى : تقدير توبتهم - وهم يملكون العدوان - واعتبارها دليل صلاح واهتداء .

والثانية : تشجيعهم على التوبة ، وتوفير مؤنة الجهد في قتالهم من أيسر سبيل .

والمنهج الإسلامي يتعامل مع الطبيعة البشرية بكل مشاعرهما ومشاربها واحتمالاتها ؛

والله الذي رضى للمسلمين هذا المنهج هو باريء هذه الطبيعة ، الخبير بمسالكها ودروبها ،

العليم بما يصلحها وما يصلح لها .. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ..

تقوى الله ..

والمنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده . وإنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع

من لا يردعه إلا السيف . فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب ، وتقويم الطبع ، وهداية

الروح - ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الذي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوي لذلك ما يكاد ينتهي السياق القرآني من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب والضئائر والأرواح ؛ يستجيش فيها مشاعر التقوى ؛ ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد في سبيله رجاء الفلاح ؛ ويحذر لها عاقبة الكفر به ؛ ويصور لها مصائر الكفار في الآخرة تصويراً موحياً بالخشية والاعتبار :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون . إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم . ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » ..

إن هذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعاً ؛ ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعاً ؛ ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدّها عن المعصية .. إن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف . والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة . وليست العقوبة غاية ، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة .

وهنا نرى أنه يبدأ هذا الشوط بنبأ ابني آدم - بكل ما فيه من موحيات - ثم يثني بالعقوبة التي تخلع القلوب . ثم يعقب بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه . ومع الدعوة التصوير الرعيب للعقاب ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ..

فالخوف ينبغي أن يكون من الله . فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان . أما الخوف من السيف والسوط فهو منزلة هابطة . لا تحتاج إليها إلا النفوس الهابطة .. والخوف من الله أولى وأكرم وأزكى .. على أن تقوى الله هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن ؛ وهي التي تكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس ، ولا تتناولها يد القانون . وما يمكن أن يقوم القانون وحده - مع ضرورته - بدون التقوى ؛ لأن ما يفلت من يد القانون حينئذ أضعاف أضعاف ما تناله . ولا صلاح لنفس ، ولا صلاح لمجتمع يقوم على القانون وحده ؛ بلا رقابة غيبية وراءه ، وبلا سلطة إلهية يتيقها الضمير .

« وابتغوا إليه الوسيلة » ..

اتقوا الله ؛ واطلبوا إليه الوسيلة ؛ وتلمسوا ما يصلكم به من الأسباب .. وفي رواية عن ابن عباس : ابتغوا إليه الوسيلة ؛ أي ابتغوا إليه الحاجة . والبشر حين يشعرون

## سورة المائدة

بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون في الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية؛ ويكونون - بهذا - في أصلح أوضاعهم وأقربها إلى الفلاح . وكلا التفسيرين يصلح للعبارة ؛ ويؤدي إلى صلاح القلب ، وحياة الضمير ، وينتهي إلى الفلاح المرجو .  
« لعلمكم تفلحون » ..

وعلى الجانب الآخر مشهد الكفار ، الذين لا يتقون الله ولا يبتغون إليه الوسيلة ولا يفلحون .. وهو مشهد شاخص متحرك ؛ لا يعبر عنه السياق القرآني في أوصاف وتقريرات ، ولكن في حركات وانفعالات .. على طريقة القرآن في رسم مشاهد القيامة ؛ وفي أداء معظم الأغراض :

« إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ، ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » ..

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض ، هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً . ولكن السياق يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض . فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ؛ ويصورهم يحاولون الاقتداء بهذا وذلك ، لينجوا به من عذاب يوم القيامة . ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار . ثم عاجزهم عن بلوغ الهدف ، وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم .

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات .. منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه .. ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به . ومنظرهم وهم يخيبو الطلب غير مقبولى الرجاء .. ومنظرهم وهم يدخلون النار .. ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها .. ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . ويسدل الستار ، ويتركهم مقيمين هناك<sup>(١)</sup> .

### عقوبة السرقة

وفي نهاية هذا الدرس يرد حكم السرقة :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا - نكالا من الله - والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم . ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شيء

(١) اراجع فصل « طريقة القرآن » في كتاب : « التفسير الفني في القرآن » وكذلك كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » .

قدير ..

إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام - على اختلاف عقائدهم - ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية .. إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة في التوزيع . وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفية اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه .. ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية .. فمن حقه إذن أن يشدد في عقوبة السرقة ، والاعتداء على الملكية الفردية ، والاعتداء على أمن الجماعة . ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة ؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت ..

ولعله من المناسب أن نفصل شيئاً في هذا الإجمال ..

إن النظام الإسلامي كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته . كذلك لا تصلح هذه الجزئيات فيه للتطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملاً ؛ ويعمل به جملة . أما الاجتزاء بحكم من أحكام الإسلام ، أو مبدأ من مبادئه ، في ظل نظام ليس كله إسلامياً ، فلا جدوى له ؛ ولا يعد الجزء المقتطع منه تطبيقاً للإسلام . لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق . الإسلام هو هذا النظام المتكامل الذي يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة ..

هذا بصفة عامة . أما بالنسبة لموضوع السرقة ، فالأمر لا يختلف ..

إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد ، في المجتمع المسلم في دار الإسلام ، في الحياة . وحقه في كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة .. من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يسكنه ويؤويه ، ويجد فيه السكن والراحة .. من حق كل فرد على الجماعة - وعلى الدولة النائبة عن الجماعة - أن يحصل على هذه الضروريات .. أولاً عن طريق العمل - ما دام قادراً على العمل - وعلى الجماعة - والدولة النائبة عن الجماعة - أن تعلمه كيف يعمل ، وأن تيسر له العمل ، وأداة العمل .. فإذا تعطل لعدم وجود العمل ، أو أدواته ، أو لعدم قدرته على العمل ، جزئياً أو كلياً ، وقتياً أو دائماً . أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضرورياته ، فله الحق في استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه: أولاً: من النفقة التي تفرضه شرعاً على القادرين في أسرته . وثانياً على القادرين من أهل محله . وثالثاً : من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له في الزكاة ، فإن لم تكف الزكاة فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الإسلام كلها في دار الإسلام ، ما يحقق الكفاية للمحرومين في مال الواجدين ؛

## سورة المائدة

بحيث لا تتجاوز هذه الحدود ، ولا تتوسع في غير ضرورة . ولا تجور على الملكية الفردية الناشئة من حلال ..

والإسلام كذلك يتشدد في تحديد وسائل جمع المال ؛ فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال .. ومن ثم لا تثير الملكية الفردية في المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون ؛ ولا تثير أطماعهم في سلب ما في أيدي الآخرين .. وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية ؛ ولا يدعهم محرومين .

والإسلام يربي ضمائر الناس وأخلاقهم ؛ فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب عن طريقه ؛ لا إلى السرقة والكسب عن طريقها .. فإذا لم يوجد العمل ، أو لم يكف لتوفير ضرورياتهم ، أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة ..

وإذن فلماذا يسرق السارق في ظل هذا النظام؟ إنه لا يسرق لسد حاجة . إنما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل . والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذي يروع الجماعة المسلمة في دار الإسلام . ويحرمها الطمأنينة التي من حقها أن تستمتع بها . ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال .

وإنه لمن حق كل فرد في مثل هذا المجتمع ، كسب ماله من حلال ، لا من ربا ، ولا من غش ، ولا من احتكار ، ولا من أكل أجور العمال ، ثم أخرج زكاته ، وقدم ما قد تحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة .. من حق كل فرد في مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص ، وألا يباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات .

فإذا سرق السارق بعد ذلك كله .. إذا سرق وهو مكفي الحاجة ، متبين حرمته الجرمية ، غير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين ، لأن الآخرين لم يغصبوا أموالهم ولم يجمعوها من حرام .. إذا سرق في مثل هذه الأحوال ، فإنه لا يسرق وله عذر . ولا ينبغي لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة .

فأما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها ، فالمبدأ العام في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات . لذلك لم يقطع عمر - رضي الله عنه - في عام الرمادة ، حينما عمت المجاعة . ولم يقطع كذلك في حادثة خاصة ؛ عندما سرق غلمان ابن حاطب ابن أبي بلتعة ناقة من رجل من مزينة . فقد أمر بقطعهم ؛ ولكن حين تبين له أن سيدهم يجمعهم ، درأ عنهم الحد ؛ وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديباً له ..

وهكذا ينبغي أن تفهم حدود الإسلام ، في ظل نظامه المتكامل ؛ الذي يضع الضمانات

## الجزء السادس

لجميع لا لطبقة على حساب طبقة .. والذي يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة . والذي لا يعاقب إلا المعتدين بلا مبرر للإعتداء ..

وبعد بيان هذه الحقيقة العامة نستطيع أن نأخذ في الحديث عن حد السرقة .. السرقة هي أخذ مال الغير ، المحرّز ، خفية .. فلا بد أن يكون المأخوذ مالا مقوماً .. والحد المتفق عليه تقريباً بين فقهاء المسلمين للمال الذي يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو ما يعادل ربع دينار .. أي حوالي خمسة وعشرين قرشاً بنقداً الحاضر .. ولا بد أن يكون هذا المال محرزاً وأن يأخذه السارق من حرزه ، ويخرج به عنه .. فلا قطع مثلاً على المؤتمن على مال إذا سرقه . والخادم المأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق لأنه ليس محرزاً منه . ولا على المستعير إذا جحد العارية . ولا على الثمار في الحقل حتى يؤويها الجرين . ولا على المال خارج البيت أو الصندوق المعد لصيانته ... وهكذا .. ولا بد أن يكون هذا المال المحرز للغير .. فلا قطع حين يسرق الشريك من مال شريكه لأن له فيه شركة فليس خالصاً للغير . والذي يسرق من بيت مال المسلمين لا يقطع لأن له نصيباً فيه فليس خالصاً للغير كذلك .. والعقوبة في مثل هذه الحالات ليست هي القطع ، وإنما هي التعزير .. ( والتعزير عقوبة دون الحد ، بالجلد أو بالحبس أو بالتوبيخ أو بالموعظة في بعض الحالات التي يناسبها هذا حسب رأي القاضي والظروف المحيطة ) .

والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ . فإذا عاد كان القطع في الرجل اليسرى إلى الكعب وهذا هو القدر المتفق عليه في القطع .. ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة .

والشبهة تدرأ الحد .. فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحد . وشبهة الشركة في المال تدرأ الحد . ورجوع المعترف في اعترافه — إذا لم يكن هناك شهود — شبهة تدرأ الحد . ونكول الشهود شبهة ... وهكذا ..

ويختلف الفقهاء فيما يعدونه شبهة . فأبو حنيفة مثلاً يدرأ الحد في سرقة ما هو مباح الأصل — حتى بعد إحرازه — كسرقة الماء بعد إحرازه ، وسرقة الصيد بعد صيده ، لأن كليهما مباح الأصل . وإباحة الأصل تورث شبهة في بقاءه مباحاً بعد إحرازه . والشركة العامة فيه تورث شبهة في بقاء الشركة بعد الإحراز .. بينما مالك والشافعي وأحمد لا يدرأون الحد في مثل هذه الحالة . ويدرأ أبو حنيفة الحد في سرقة كل ما يسارع إليه الفساد ، كالطعام الرطب والبقول واللحم والخبز وما أشبه . ويخالفه أبو يوسف ويأخذ



## سورة المائدة

برأي الثلاثة .

ولا نملك أن نمضي في تفصيل اختلافات الفقهاء في هذا المجال ، فطلب في كتب الفقه ؛ وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على سماحة الإسلام وحرصه على ألا يأخذ الناس بالشبهات .. ورسول الله ﷺ يقول : « ادروا الحدود بالشبهات » وعمر بن الخطاب يقول : « لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إليّ من أن أقيمها بالشبهات » .. (١)

ولكن لا بد من كلمة في ملائمة عقوبة القطع في السرقة ؛ بعد بيان موجبات التشدد في أخذ السارق بالحد ، في المجتمع المسلم في دار الإسلام ؛ بعد توافر أسباب الوقاية و ضمانات العدالة ..

« وعلّة فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره . فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينمي من طريق الحرام . وهو لا يكتفي بثمرة عمله ، فيطمع في ثمرة عمل غيره . وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور ، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل . أو ليأمن على مستقبله . فالدافع الذي يدفع إلى السرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء .. وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع . لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الثراء . وهذا يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف الشديد على المستقبل .

« فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التي تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة . فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان في العقوبة والمرارة التي تصيبه منها ما يغلب العوامل النفسية الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية .

« ذلك هو الأساس الذي قامت عليه عقوبة السرقة في الشريعة الإسلامية . وإنه لعمرى خير أساس قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا حتى الآن ...

« وتجعل القوانين الحبس عقوبة السرقة . وهي عقوبة قد أخفقت في محاربة الجريمة على العموم . والسرقة على الخصوص . والعلّة في هذا الإخفاق أن عقوبة الحبس لا تخلق في نفس السارق العوامل النفسية التي تصرفه عن جريمة السرقة . لأن عقوبة الحبس لا تحول

(١) يراجع كتاب : التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة .

## الجزء السادس

بين السارق وبين العمل إلا مدة الحبس<sup>(١)</sup> ، وما حاجته إلى الكسب في الحبس وهو موفر الطلبات مكفي الحاجات ؟ فإذا خرج من محبسه استطاع أن يعمل وأن يكسب . وكان لديه أوسع الفرص لأن يزيد من كسبه وينمي ثروته ، من طريق الحلال والحرام على السواء ! واستطاع أن يخدع الناس وأن يظهر أمامهم بمظهر الشريف ، فيأمنوا جانبه ، ويتعاونوا معه . فإن وصل في الخاتمة إلى ما ينبغي فذلك هو الذي أراد ؛ وإن لم يصل إلى بغيته فإنه لم يخسر شيئاً ، ولم تفته منفعة ذات بال .

« أما عقوبة القطع فتحول بين السارق وبين العمل ، أو تنقص من قدرته على العمل والكسب نقصاً كبيراً ؛ ففرصة زيادة الكسب مقطوع بضياعها على كل حال ، ونقص الكسب إلى حد ضئيل أو انقطاعه هو المرجح في أغلب الأحوال ، ولن يستطيع أن يخدع الناس أو يحملهم على الثقة به والتعاون معه رجل يحمل أثر الجريمة في جسمه ، وتعلن يده المقطوعة عن سوابقه . فالخاتمة التي لا يخطئها الحساب أن جانب الخسارة مقطوع به إذا كانت العقوبة القطع ؛ وجانب الربح مرجح إذا كانت العقوبة الحبس . وفي طبيعة الناس كلهم - لا السارق وحده - أن لا يتأخروا عن عمل يرجح فيه جانب المنفعة ، وألا يقدموا على عمل تتحقق فيه الخسارة .

« واعجب بعد ذلك ممن يقولون : إن عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية في عصرنا الحاضر . كأن الإنسانية والمدنية أن نقابل السارق بالمكافأة على جريمته ، وأن نشجعه على السير في غوايته ، وأن نعيش في خوف واضطراب ، وأن نكد ونشقى ليستولي على ثمار عملنا العاطلون واللصوص !

« ثم اعجب بعد ذلك مرة ثانية ممن يقولون : إن عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية ، كأن المدنية والإنسانية أن ننكر العلم الحديث والمنطق الدقيق ؛ وأن ننسى طبائع البشر ، ونتجاهل تجارب الأمم ؛ وأن نلغي عقولنا ، ونهمل النتائج التي وصل إليها تفكيرنا ، لنأخذ بما يقوله قائله فلا يجد عليه دليلاً إلا التهويل والتضليل ! » وإذا كانت العقوبة الصالحة حقاً هي التي تتفق مع المدنية والإنسانية ، فإن عقوبة الحبس قد حق عليها الإلغاء ، وعقوبة القطع قد كتب لها البقاء . لأن الأخيرة تقوم على أساس متين من علم النفس . وطبائع البشر وتجارب الأمم ، ومنطق العقول والأشياء . وهي نفس الأسس التي تقوم عليها المدنية والإنسانية . أما عقوبة الحبس فلا تقوم على

(١) بعضهم يزاول الكسب في محبسه بطرق شتى حتى لتربو مكاسبه في محبسه عليها في خارجه !

## سورة المائدة

أساس من العلم ولا التجربة ، ولا تتفق مع منطق العقول ولا طبائع الأشياء .  
« إن أساس عقوبة القطع هو دراسة نفسية الإنسان وعقليته . فهي إذن عقوبة ملائمة للأفراد ، وهي في الوقت ذاته صالحة للجماعة ، لأنها تؤدي إلى تقليل الجرائم ، وتأمين المجتمع . وما دامت العقوبة ملائمة للفرد وصالحة للجماعة ، فهي أفضل العقوبات وأعدلها . »  
« ولكن ذلك كله لا يكفي عند بعض الناس لتبرير عقوبة القطع ، لأنهم يرونها - كما يقولون - عقوبة موسومة بالقسوة . وتلك حجتهم الأولى والأخيرة . وهي حجة داحضة . فإن اسم العقوبة مشتق من العقاب ، ولا يكون العقاب عقاباً إذا كان موسوماً بالرخاوة والضعف ، بل يكون لعباً أو عبثاً أو شيئاً قريباً من هذا . فالقسوة لا بد أن تتمثل في العقوبة حتى يصح تسميتها بهذا الاسم<sup>(١)</sup> .

والله - سبحانه - وهو أرحم الراحمين يقول وهو يشدد عقوبة السرقة :

« فاقطعوا أيديها جزاء بما كسبا نكالاً من الله .. »

فهي تنكيل من الله رادع ، والردع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدثه نفسه بها ؛ لأنه يكفه عنها . ورحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة .. ولن يدعي أحد أنه أرحم بالناس من خالق الناس ، إلا وفي قلبه عمى ، وفي روحه انطماس ! والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبق في خلال قرن من الزمان في صدر الإسلام إلا في آحاد ؛ لأن المجتمع بنظامه ، والعقوبة بشدتها ، والضمانات بكفايتها لم تنتج إلا هذه الآحاد .

ثم يفتح الله باب التوبة لمن يريد أن يتوب ، على أن يندم ويرجع ويكف ؛ ثم لا يقف عند هذه الحدود السلبية ، بل يعمل عملاً صالحاً ، ويأخذ في خير إيجابي :

فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم ..  
فالظلم عمل سلبى شرير مفسد ؛ ولا يكفي أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد ؛ بل لا بد أن يعوضه بعمل إيجابى خير مصلح .. على أن الأمر في المنهج الربانى أعمق من هذا .. فالنفس الإنسانية لا بد أن تتحرك ، فإذا هى كفت عن الشر والفساد ولم تتحرك للخير والصلاح بقي فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد . فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح فإنها تأمن الإرتداد إلى الشر والفساد ؛ بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء .. إن الذي يربي بهذا المنهج هو الله .. الذي خلق والذي يعلم من خلق ..

---

(١) عن كتاب : « التشريع الجنائى الاسلامى مقارناً بالقانون الوضعى » لعبد القادر عودة .. الجزء الأول ص ٦٥٢ - ص ٦٥٤ .

وعلى ذكر الجريمة والعقوبة ، وذكر التوبة والمغفرة ، يعقب السياق القرآني بالمبدأ الكلي الذي تقوم عليه شريعة الجزاء في الدنيا والآخرة . فخالق هذا الكون ومالكة هو صاحب المشيئة العليا فيه ، وصاحب السلطان الكلي في مصائره . هو الذي يقرر مصائره ومصائر من فيه ، كما أنه هو الذي يشرع للناس في حياتهم ، ثم يحزيهم على عملهم في دنياهم وآخرتهم .

« ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير » .

فهي سلطة واحدة .. سلطة الملك .. يصدر عنها التشريع في الدنيا ويصدر عنها الجزاء في الآخرة ، ولا تعدد ولا انقسام ولا انفصام .. ولا يصلح أمر الناس إلا حين تتوحد سلطة التشريع وسلطة الجزاء ، في الدنيا والآخرة سواء .. و « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » .. « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » ..

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا . سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ ، سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ : إِنِ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا . وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) . سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاوَزْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) . وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ - وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ - ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ؟ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) .

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا

لِّلَّذِينَ هَادُوا، وَالرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ . فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا . وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) . وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ، وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ، وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ . وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) .

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ، وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) . وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ . وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) .

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ . فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) . وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟ (٥٠) ..

### الحاكمية : . أخص خصائص الألوهية

يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية ، والمنهج الإسلامي . ونظام الحكم والحياة في الإسلام . وهي القضية التي عولجت في سورتي آل عمران والنساء من قبل ، ولكنها هنا في هذه السورة تتخذ شكلاً محدداً مؤكداً ؛ يدل عليها النص بألفاظه وعباراته ، لا بمفهومه وإيحائه ..

إنها قضية الحكم والشرعية والتقاضي - ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان - والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال :

أياكون الحكم والشرعية والتقاضي حسب موثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى ؛ وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله ، والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟ وتعبير آخر : أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس ؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله ؟

الله - سبحانه - يقول : إنه هو الله لا إله إلا هو . وإن شرائعه التي سنّها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهداهم عليها وعلى القيام بها ؛ هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهي التي يجب أن يتحاكم إليها الناس ، وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام ..

والله - سبحانه - يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ، ولا ترخص في شيء منه ، ولا انحراف عن جانب ولو صغير . وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلاح عليه قبيل ، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير !

والله - سبحانه - يقول : إن المسألة - في هذا كله - مسألة إيمان أو كفر ؛ أو إسلام أو جاهلية ؛ وشرع أو هوى . وإنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح ! فالؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله - لا يخرمون منه حرفاً ولا يبدلون منه شيئاً - والكافرون والظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله . وأنه إما أن يكون الحكم قائم على شريعة الله كاملة فهم في نطاق الإيمان . وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون والظالمون والفاسقون . وأن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضائه في أمورهم فهم مؤمنون .. إلا فمأثم بالمؤمنين ..

## سورة المائدة

ولا وسط بين هذا الطريق وذاك ؛ ولا حجة ولا معذرة ، ولا احتجاج بمصلحة . فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس ؛ ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية . وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة . وليس لأحد من عباده أن يقول : إنني أرفض شريعة الله ، أو إنني أبصر بمصلحة الخلق من الله .. فإن قالها - بلسانه أو بفعله - فقد خرج من نطاق الإيمان ..

هذه هي القضية الخطيرة الكبيرة التي يعالجها هذا الدرس في نصوص تقريرية صريحة.. ذلك إلى جانب ما يصوره من حال اليهود في المدينة ، ومناوراتهم ومؤامراتهم مع المنافقين : « من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » . وما يوجه به رسول الله - ﷺ - لمواجهة هذا الكيد الذي لم تكف عنه يهود ، منذ أن قامت للإسلام دولة في المدينة .. والسياق القرآني في هذا الدرس يقرر أولاً : توافي الديانات التي جاءت من عند الله كلها على تحتمل الحكم بما أنزل الله ؛ وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ؛ وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر ؛ وبين الإسلام والجاهلية ؛ وبين الشرع والهوى .. فالتوراة أنزلها الله فيها هدى ونور : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .. « وعندهم التوراة فيها حكم الله » .. « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... الخ » .. والإنجيل آتاه الله عيسى بن مريم « مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » .. والقرآن أنزله الله على رسوله « بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » وقال له : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .. « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ » .. وكذلك تتوافي الديانات كلها على هذا الأمر ، ويتعين حد الإيمان وشرط الإسلام ، سواء للمحكومين أو للحكام .. والمناط هو الحكم بما أنزل الله من الأحكام ، وقبول هذا الحكم من المحكومين ، وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام ..

والمسألة في هذا الوضع خطيرة ؛ والتشدد فيها على هذا النحو يستند إلى أسباب لا بد خطيرة كذلك . فما هي يا ترى هذه الأسباب ؟ إننا نحاول أن نتلمسها سواء في هذه النصوص أو في السياق القرآني كله ، فنجدها واضحة بارزة ..



## الجزء السادس

إن الاعتبار الأول في هذه القضية هو أنها قضية الإقرار بالوهمية الله وربوبيته وقوامته على البشر - بلا شريك - أو رفض هذا الإقرار .. ومن هنا هي قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو إسلام ..

.. والقرآن كله معرض بيان هذه الحقيقة ..

إن الله هو الخالق .. خلق هذا الكون ، وخلق هذا الإنسان . وسخر ما في السماوات والأرض لهذا الإنسان .. وهو - سبحانه - متفرد بالخلق ، لا شريك له في كثير منه أو قليل .

وإن الله هو المالك .. بما أنه هو الخالق .. والله ملك السماوات والأرض وما بينهما .. فهو - سبحانه - متفرد بالملك . لا شريك له في كثير منه أو قليل .  
وإن الله هو الرازق .. فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئاً . لا من الكثير ولا من القليل ..

وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس .. بما أنه هو الخالق المالك الرازق .. وبما أنه هو صاحب القدرة التي لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرر . وهو - سبحانه - المتفرد بالسلطان في هذا الوجود .

والإيمان هو الإقرار لله - سبحانه - بهذه الخصائص : الألوهية ، والملك ، والسلطان ... متفرداً بها لا يشاركه فيها أحد . والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص .. هو أفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله - وحياة الناس ضمناً - والاعتراف بسلطانه الممثل في قدره ، والممثل كذلك في شريعته . فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو - قبل كل شيء - الاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته وسلطانه . ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة ، واتخاذ شريعة غيرها في أية جزئية من جزئيات الحياة ، هو - قبل كل شيء - رفض الاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه .. ويستوي أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول .. وهي من ثم قضية كفر أو إيمان ؛ وجاهلية أو إسلام . ومن هنا يجيء هذا النص : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .. « الظالمون » .. « الفاسقون » . والاعتبار الثاني هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس .. هذه الأفضلية التي تشير إليها الآية الأخيرة في هذا الدرس : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ » ..

## سورة المائدة

والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، في كل طور من أطوار الجماعة ، وفي كل حالة من حالاتها .. هو كذلك داخل في قضية الكفر والإيمان .. فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر ، تفضل أو تماثل شريعة الله ، في أية حالة أو في أي طور من أطوار الجماعة الإنسانية .. ثم يدعي - بعد ذلك - أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين .. إنه يدعي أنه أعلم من الله بحال الناس ؛ وأحكم من الله في تدبير أمرهم . أو يدعي أن أحوالاً وحاجات جرت في حياة الناس ، وكان الله - سبحانه - غير عالم بها وهو يشرع شريعته ؛ أو كان عالماً بها ولكنه لم يشرع لها ! ولا تستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام . مهما قالها باللسان !

فأما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها . فإن حكمة شرائع الله لا تنكشف كلها للناس في جيل من الأجيال . والبعض الذي ينكشف يصعب التوسع في عرضه هنا .. في الظلال .. فنكتفي منه ببعض اللمسات :

إن شريعة الله تمثل منهجاً شاملاً متكاملًا للحياة البشرية ؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ؛ في جميع حالاتها ، وفي كل صورها وأشكالها .. وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ؛ وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية .. ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة ؛ ولا يقع فيه ولا يندشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني ؛ ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والנוاميس الكونية ؛ إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق .. الأمر الذي لا يتوافر أبداً لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهراً من الأمر ؛ وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة ؛ ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني ؛ ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض . والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم <sup>(١)</sup> .

وهو منهج قائم على العدل المطلق .. أولاً .. لأن الله يعلم حق العلم بهم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق .. وثانياً .. لأنه - سبحانه - رب الجميع ؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع ؛ وأن يحيي منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف - كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط - الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج

(١) يراجع بتوسع كتاب . « الإسلام ومشكلات الحضارة » فصل : « تخطيط واضطراب » .

## الجزء السادس

أو في أي شرع من صنع الإنسان ، ذي الشهوات والميول ، والضعف والهوى - فوق ما به من الجهل والقصور - سواء كان المشرع فرداً ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلاً من أجيال البشر .. فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها ؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد ..

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله . صانع الكون وصانع الإنسان . فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كوني ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه ؛ بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها .. ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه ؛ وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعاً كونياً ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بني جنسه فحسب ! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض ، الذي يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولا بد له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم .. إنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان .. ففي كل منهج - غير المنهج الإسلامي - يتعبد الناس للناس . ويعبد الناس الناس . وفي المنهج الإسلامي - وحده - يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك ..

إن أخص خصائص الألوهية - كما أسلفنا - هي الحاكمية .. والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها . فهم عبيده لا عبيد الله ، وهم في دينه لا في دين الله .

والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان . بل يعلن « ميلاد الإنسان » .. فالإنسان لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبتة من حكم إنسان مثله ؛ وإلا حين يتساوى في هذا الشأن مع الناس جميعاً أمام رب الناس ..

إن هذه القضية التي تعالجها نصوص هذا الدرس هي أخطر وأكبر قضايا العقيدة .. إنها قضية الألوهية والعبودية . قضية العدل والصلاح . قضية الحرية والمساواة . قضية تحرير الإنسان - بل ميلاد الإنسان - وهي من أجل هذا كانت قضية الكفر أو الإيمان ،

وقضية الجاهلية أو الإسلام<sup>(١)</sup> ..

والجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام .. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة . ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد ، أو أهواء طبقة ، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس .. فكلها .. ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله .. أهواء ..

يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية . لأن هواء هو القانون .. أو رأيه هو القانون .. لا فرق إلا في العبارات !

وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية . لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون - لا فرق إلا في العبارات !

ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية .. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء ، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل ، هو القانون - أو لأن رأي الشعب هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات ! وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية . لأن أهدافها القومية هي القانون - أو رأي المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات !

ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع ، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد . لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة ، ولا لجيل من الأجيال . لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء . ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته - سبحانه - أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط .

ويشرع غير الله للناس .. فإذا هم عبيد من يشرع لهم . كائناً من كان . فرداً أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم ..

ويشرع الله للناس فإذا هم كلهم أحرار متساوون ، لا يحنون جباههم إلا الله ، ولا يعبدون إلا الله .

ومن هنا خطورة القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله : « ولو اتبع

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » وكتاب : « هذا الدين » وكتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

الحق اهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. فالحكم بغير ما انزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان .. بنص القرآن ..  
يهود .. ومنافقون

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا .. سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تأتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم . لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون ، للسحت . وإن جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك - وعندهم التوراة فيها حكم الله - ثم يتولون من بعد ذلك ؟ وما أولئك بالمؤمنين » ..

هذه الآيات تشي بأنها مما نزل في السنوات الأولى للهجرة ؛ حيث كان اليهود ما يزالون بالمدينة - أي قبل غزوة الأحزاب على الأقل وقبل التنكيل ببني قريظة إن لم يكن قبل ذلك ، أيام أن كان هناك بنو النضير وبنو قينقاع ، وأولاهما أجليت بعد أحد والثانية أجليت قبلها - ففي هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه ؛ وكان المنافقون يآرزون إليهم كما يآرز الحية الحجر ! وكان هؤلاء وهؤلاء يسارعون في الكفر ؛ ولو قال المنافقون بأفواههم : آمنا .. وكان فعلهم هذا يحزن الرسول ﷺ ويؤذيه ..

والله - سبحانه - يعزي رسوله ﷺ ويواسيه ؛ ويهون عليه فعال القوم ، ويكشف للجماعة المسألة حقيقة المسارعين في الكفر من هؤلاء وهؤلاء ؛ ويوجه الرسول ﷺ إلى المنهج الذي يسلكه معهم حين يأتون إليه متحاكمين ؛ بعد ما ينكشف له عما تأمروا عليه قبل أن يأتوا إليه وما بيتوه :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، من الذين قالوا : آمنا ، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا .. سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تأتوه فاحذروا ... »

روي أن هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود ارتكبوا جرائم - تختلف الروايات في تحديدها - منها الزنا ومنها السرقة .. وهي من جرائم الحدود في التوراة ؛ ولكن القوم

## سورة المائدة

كانوا قد اصطالحوا على غيرها ؛ لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر . ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع ، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير ( كما صنع الذين يزعمون أنهم مسلمون في هذا الزمان ! ) .. فلما وقعت منهم هذه الجرائم في عهد الرسول ﷺ تأمروا على أن يستفتوه فيها .. فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها ، وكانت هذه حجة لهم عند الله .. فقد أفتاهم بها الرسول ! .. وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه .. ففسدوا بعضهم يستفتيه .. ومن هنا حكاية قولهم :

« إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا » ..

وهكذا بلغ منهم العبث ، وبلغ منهم الاستهتار ، وبلغ منهم الالتواء أيضاً في التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله ﷺ هذا المبلغ .. وهو صورة تمثل أهل كل كتاب حين يطول عليهم الأمد ، فتقسو قلوبهم ؛ وتبرد فيها حرارة العقيدة ، وتنطفئ شعلتها ؛ ويصبح التملص من هذه العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذي يبحث له عن الوسائل ؛ ويبحث له عن « الفتاوى » لعلها تخرجها من حيلة ؛ أليس الشأن كذلك اليوم بين الذين يقولون : إنهم مسلمون : « من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » ! أليسوا يتمسكون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين ؟ أليسوا يتمسحون بالدين أحياناً لكي يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقة عليها ! فإما إن قال الدين كلمة الحق وحكم الحق فلاحاجة بهم إليه .. « يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ؛ وإن لم تؤتوه فاحذروا » ! إنه الحال نفسه . ولعله لهذا كان الله - سبحانه - يقص قصة بني إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل ، لتحذر منها أجيال « المسلمين » وينتبه الواعون منها لمزالق الطريق .

والله - سبحانه - يقول لرسوله في شأن هؤلاء المسارعين بالكفر ، وفي شأن هؤلاء المتآمرين المبيتين لهذه الألاعيب : لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر . فهم يسلكون سبيل الفتنة ، وهم واقعون فيها ، وليس لك من الأمر شيء ، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة وقد سلكوا طريقها ولجوا فيها :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » ..

وهؤلاء دنست قلوبهم ، فلم يرد الله أن يطهرها ، وأصحابها يلجئون في الدنس :

« أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » ..

وسيجزيهم بالخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة : لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

فلا عليك منهم ، ولا يحزنك كفرهم ، ولا تحفل بأمرهم . فهو أمر مقضي فيه ..  
ثم يمضي في بيان حال القوم ، وما انتهوا إليه من فساد في الخلق والسلوك ، قبل أن  
يبين لرسول الله - ﷺ كيف يتعامل معهم إذا جاءوا إليه متحاكين :  
« سماعون للكذب ، أكلون للسحت . فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم .  
وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب  
المقسطين » ..

كرر أنهم سماعون للكذب . مما يشي بأن هذه أصبحت خصلة لهم .. تهش نفوسهم  
لسماع الكذب والباطل ، وتنقبض لسماع الحق والصدق .. وهذه طبيعة القلوب حين تفسد ،  
وعادة الأرواح حين تنطمس .. ما أحب كلمة الباطل والزور في المجتمعات المنحرفة ، وما  
أثقل كلمة الحق والصدق في هذه المجتمعات .. وما أروج الباطل في هذه الآونة وما أشد  
بوار الحق في هذه الفترات الملعونة !

وهؤلاء سماعون للكذب . أكلون للسحت .. والسحت كل مال حرام .. والربا  
والرشوة وثن الكلمة والفتوى ! في مقدمة ما كانوا يأكلون ، وفي مقدمة ما تأكله المجتمعات  
التي تنحرف عن منهج الله في كل زمان ! وسمي الحرام سحتاً لأنه يقطع البركة ويمحقها .  
وما أشد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة . كما نرى ذلك بأعيننا في كل مجتمع  
شارد عن منهج الله وشرعية الله .

ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار في أمرهم إذا جاءوه يطلبون حكمه - فإن شاء أعرض  
عنهم - ولن يضروه شيئاً - وإن شاء حكم بينهم . فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط ،  
غير متأثر بأهوائهم ، وغير متأثر كذلك بمسارعهم في الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم ..  
« إن الله يحب المقسطين » ..

والرسول ﷺ والحاكم المسلم ، والقاضي المسلم ، إنما يتعامل مع الله في هذا الشأن ؛ وإنما  
يقوم بالقسط لله . لأن الله يحب المقسطين . فإذا ظلم الناس وإذا خانوا ، وإذا انحرفوا ،  
فالعديل فوق التأثير بكل ما يصدر منهم . لأنه ليس عدلاً لهم ؛ وإنما هو الله .. وهذا هو  
الضمان الأكيد في شرع الإسلام وقضاء الإسلام ، في كل مكان وفي كل زمان .

وهذا التخيير في أمر هؤلاء اليهود يدل على نزول هذا الحكم في وقت مبكر . إذ أنه  
بعد ذلك أصبح الحكم والتقاضي لشرعية الإسلام حتمياً . فدار الإسلام لا تطبق فيها إلا  
شرعية الله . وأهلها جميعاً ملزمون بالتحاكم إلى هذه الشريعة . مع اعتبار المبدأ الإسلامي



## سورة المائدة

الخاص بأهل الكتاب في المجتمع المسلم في دار الإسلام؛ وهو ألا يجبروا إلا على ما هو وارد في شريعتهم من الأحكام؛ وعلى ما يختص بالنظام العام. فيباح لهم ما هو مباح في شرائعهم، كما تلاك الخنزير وأكله، وتملك الخمر وشربه دون بيعه للمسلم. ويحرم عليهم التعامل الربوي لأنه محرم عندهم. وتوقع عليهم حدود الزنا والسرقة لأنها واردة في كتابهم وهكذا. كما توقع عليهم عقوبات الخروج على النظام العام والإفساد في الأرض كالمسلمين سواء، لأن هذا ضروري لأمن دار الإسلام وأهلها جميعاً: مسلمين وغير مسلمين. فلا يتسامح فيها مع أحد من أهل دار الإسلام..

وفي تلك الفترة التي كان الحكم فيها على التخير، كانوا يأتون ببعض قضاياهم إلى رسول الله - ﷺ - مثال ذلك ما رواه مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : « إن اليهود جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا. فقال لهم رسول الله - ﷺ - ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبت. إن فيها الرجم. فأثوا بالتوراة فنشروها. فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فرجما. فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقبها الحجارة.. » ( أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري ) .

ومثال ذلك ما رواه الإمام أحمد - بإسناده - عن ابن عباس قال : « أنزلها الله في الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الاخرى في الجاهلية ، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيرة فديته مئة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبي - ﷺ - فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً ، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة أن أبعثوا لنا بعثة وسق فقالت الذليلة : وهل كان في حين دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضياء منكم لنا ، وفرقا منكم . فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ! فكادت الحرب تهيج بينهما . ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله - ﷺ - حكماً بينهم . ثم ذكرت العزيرة ، فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضياء منا وقهراً لهم ! فدرسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه .. إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه !

## الجزء السادس

فدسوا إلى رسول الله - ﷺ - ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله - ﷺ - فلما جاءوا رسول الله - ﷺ - أخبر الله رسوله - ﷺ - بأمرهم كله وما أرادوا. فأنزل الله تعالى: «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» ، إلى قوله: «الفاسقون» .. ففهم والله أنزل ، وإياهم عنى الله عز وجل .. ( أخرجه أبو داود من حديث أبي الزناد عن أبيه ) .. وفي رواية لابن جرير عين فيها «العزيزة» وهي بنو النضير «والذليلة» وهي بنو قريظة .. مما يدل - كما قلنا - على أن هذه الآيات نزلت مبكرة قبل إجلالهم والتنكيل بهم ..

وقد عقب السياق بسؤال استنكاري على موقف يهود - سواء كان في هذه القضية أو تلك فهو موقف عام منهم وتصرف مطرد - فقال :

« وكيف يحكمونك - وعندهم التوراة فيها حكم الله - ثم يتولون من بعد ذلك ؟ » .. فهي كبيرة مستنكرة أن يحكموا رسول الله - ﷺ - فيحكم بشريعة الله وحكم الله ، وعندهم - إلى جانب هذا - التوراة فيها شريعة الله وحكمه ؛ فيتطابق حكم رسول الله - ﷺ - وما عندهم في التوراة ؛ مما جاء القرآن مصدقا له ومهيئنا عليه .. ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون . سواء كان التولي بعدم التزام الحكم ؛ أو بعدم الرضى به .. ولا يكتفي السياق بالاستنكار . ولكنه يقرر الحكم الإسلامي في مثل هذا الموقف : « وما أولئك بالمؤمنين » ..

فما يمكن أن يجتمع الإيمان ، وعدم تحكيم شريعة الله ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة . والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم « مؤمنون » ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم .. إنما يدعون دعوى كاذبة ؛ وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع : « وما أولئك بالمؤمنين » . فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الأحكام فحسب ؛ بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من المحكومين ، يخرجهم من دائرة الإيمان ، مها ادعوه باللسان .

وهذا النص هنا يطابق النص الآخر ، في سورة النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .. فكلاهما يتعلق بالمحكومين لا بالحكام . وكلاهما يخرج من الإيمان ، وينفي صفة الإيمان عن لا يرضى بحكم الله ورسوله ، ومن يتولى عنه ويرفض قبوله . ومرد الأمر كما قلنا في مطلع الحديث عن هذا الدرس .. أن القضية هي قضية الإقرار

## سورة المائدة

بالوهية الله - وحده - وربوبيته وقوامته على البشر . أو رفض هذا الإقرار . وأن قبول شريعة الله والرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بالوهيته وربوبيته وقوامته ؛ ورفضها والتولي عنها هو مظهر رفض هذا الإقرار .

### الحكم بما أنزل الله في التوراة

ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله في حياتهم .. فالآن يجيء حكمه - تعالى - على الحاكمين ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله . الحكم الذي تتوافى جميع الديانات التي جاءت من عند الله عليه :

ويبدأ بالتوراة :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ؛ فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ..

لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . منهج حياة واقعية . جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدي في الهيكل والمحراب . فهذه وتلك - على ضرورتها للحياة البشرية وأهميتها في تربية الضمير البشري - لا تكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ؛ ما لم يقيم على أساسها منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ؛ ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ؛ ويؤخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات .

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد ؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة .

فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقي .. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع .. حين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا .. حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين

مختلفين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين مختلفين .. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » .. « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشرية كافة في جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة ، إلى جانب العقيدة التي تنشئ التصور الصحيح للحياة ، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله .. وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله ، حينما جاء من عند الله . لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة (١) .

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى ، التي ربما جاءت لقرية من القرى ، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل ، في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة .. وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى .. اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام .

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصددتها في هذه الفقرة :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » :

فالتوراة - كما أنزلها الله - كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ، وإفارة طريقهم إلى الله . وطريقهم في الحياة .. وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى . وتحمل كذلك شريعة :

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونوراً للضائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب ، ولكن كذلك لتكون هدى ونوراً بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة في إطار هذا المنهج . ويحكم فيها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ؛ فليس لهم في أنفسهم شيء ؛ إنما هي كلها لله ؛ وليست لهم مشيئة ولا سلطة

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وكتاب : « المستقبل لهذا الدين » وكتاب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته »

## سورة المائدة

ولا دعوى في خصيصة من خصائص الألوهية - وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل - يحكمون بها للذين هادوا - فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه - كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار ؛ وهم قضاتهم وعلمائهم . وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله ، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم ، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم .

وقبل أن ينتهي السياق من الحديث عن التوراة ، يلتفت إلى الجماعة المسلمة ، ليوجهها في شأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحرهم وكفاحهم ، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله في مثل هذا الموقف ، وجزاء نكوله أو مخالفته :

« فلا تخشوا الناس واخشون ؛ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. »

ولقد علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه - في كل زمان وفي كل أمة - معارضة من بعض الناس ؛ ولن تقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام .. ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث . ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه ؛ ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله .. وستواجه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة .. وستواجه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها .. وستواجه معارضة جهات شتى غير هذه وتلك ؛ ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض .

علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجهات ؛ وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ؛ وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال .. فهو يناديهم :

« فلا تخشوا الناس واخشون .. »

فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة

## الجزء السادس

الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار - من ثم - بتفرد الله - سبحانه - بالالوهية . أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها . لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة . فالله - وحده - هو الذي يستحق أن يخشوه . والخشية لا تكون إلا لله ..

كذلك علم الله - سبحانه - أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشعدين ؛ قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا ؛ وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات ، لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً ، طمعاً في عرض الحياة الدنيا - كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل ؛ وكما كان ذلك واقعاً في علماء بني إسرائيل .  
فناداهم الله :

« ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » ..

وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتوى المدخولة !  
وكل ثمن هو في حقيقته قليل . ولو كان ملك الحياة الدنيا . فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقاباً ومصالح صغيرة ؛ يباع بها الدين ، وتشتري بها جهنم عن يقين ؟ !

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن ؛ وليس أبشع من تفريط المستحفظ ؛ وليس أخس من تدليس المستشهد . والذين يحملون عنوان : « رجال الدين » يخونون ويفرطون ويدلسون ، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله ..

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ..

بهذا الحسم الصارم الجازم . وبهذا التعميم الذي تحمله « من » الشرطية وجملة الجواب . بحيث يخرج من حدود الملائسة والزمان والمكان ، وينطلق حكماً عاماً ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل ..

والعلة هي التي أسلفنا .. هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله . فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية . ومن يحكم بغير ما أنزل الله ،

## سورة المائدة

يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب ، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر .. وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل - وهو أقوى تعبيراً من الكلام - ينطق بالكفر أفصح من اللسان ؟ !

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه .. وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عما ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد .

وبعد بيان هذا الأصل القاعدي في دين الله كله ، يعود السياق ، لعرض نماذج من شريعة التوراة التي أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا - بما است حفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء :

« وكتبنا عليهم فيها : أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » ..

وقد استبقيت هذه الأحكام التي نزلت بها التوراة في شريعة الإسلام ؛ وأصبحت جزءاً من شريعة المسلمين ، التي جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان . وإن كانت لا تطبق إلا في دار الإسلام ، لاعتبارات عملية بحثة ؛ حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام . وحيثما كان ذلك في استطاعتها فهي مكلفة بتنفيذها وتطبيقها ، بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة ، للأزمان كافة ، كما أرادها الله .

وقد أضيف إليها في الإسلام حكم آخر في قوله تعالى :

« فمن تصدق به فهو كفارة له » ..

ولم يكن ذلك في شريعة التوراة . إذ كان القصاص حتماً ؛ لا تنازل فيه ، ولا تصدق به ، ومن ثم فلا كفارة ..

ويحسن أن نقول كلمة عن عقوبات القصاص هذه على قدر السياق في الظلال . أول ما تقرره شريعة الله في القصاص ، هو مبدأ المساواة .. المساواة في الدماء والمساواة في العقوبة .. ولم تكن شريعة أخرى - غير شريعة الله - تعترف بالمساواة بين النفوس ، فتقتص للنفس بالنفس ، وتقتص للجوارح بمثلهما ، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس ..

## الجزء السادس

النفس بالنفس . والعين بالعين . والأنف بالأنف . والأذن بالأذن . والسن بالسن . والجروح قصاص .. لا تميز . ولا عنصرية . ولا طبقية . ولا حاكم . ولا محكوم .. كلهم سواء أمام شريعة الله . فكلهم من نفس واحدة في خلقه الله .

إن هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقي الكامل لميلاد « الإنسان » الإنسان الذي يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة .. أولاً في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد . وثانياً في المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة .

وهو أول إعلان .. وقد تخلفت شرائع البشر الوضعية عشرات من القرون حتى ارتفعت إلى بعض مستواه من ناحية النظريات القانونية ، وإن ظلت دون هذا المستوى من ناحية التطبيق العملي .

ولقد انحرف اليهود الذين ورد هذا المبدأ العظيم في كتابهم - التوراة - عنه ؛ لا فيما بينهم وبين الناس فحسب ، حيث كانوا يقولون : « ليس علينا في الأميين سبيل » بل فيما بينهم هم أنفسهم . على نحو ما رأينا فيما كان بين بني قريظة الذليلة ، وبني النضير العزيزة ؛ حتى جاءهم محمد - ﷺ - فردهم إلى شريعة الله - شريعة المساواة .. ورفع جباه الأذلاء منهم فساواها بجباه الأغنياء !

والقصاص على هذا الأساس العظيم - فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان - هو العقاب الرادع الذي يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل ، أو الاعتداء عليها بالجرح والكسر ، يفكر مرتين ومرات قبل أن يقدم على ما حدثته به نفسه ، وما زينه له اندفاعه ؛ وهو يعلم أنه مأخوذ بالقتل إن قتل - دون نظر إلى نسبه أو مركزه ، أو طبقته ، أو جنسه - وأنه مأخوذ بمثل ما أحدث من الإصابة . إذا قطع يداً أو رجلاً قطعت يده أو رجله ؛ وإذا أثلف عيناً أو أذناً أو أنفاً أو سناً ، أثلف من جسده ما يقابل العضو الذي أثلفه .. وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه هو السجن - طال مدة السجن أو قصرت - فالألم في البدن ، والنقص في الكيان ، والتشويه في الحلقة شيء آخر غير آلام السجن .. على نحو ما سبق بيانه في جد السرقة ..

والقصاص على هذا الأساس العظيم - فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان - هو القضاء الذي تستريح إليه الفطرة ؛ والذي يذهب بجزازات النفوس ، وجراحات القلوب ، والذي يسكن فورات الثأر الجاحمة ، التي يقودها الغضب الأعمى وحمية الجاهلية .. وقد يقبل بعضهم الدية في القتل والتعويض في الجراحات . ولكن بعض النفوس لا يشفيها



## سورة المائدة

إلا القصاص ..

وشرع الله في الإسلام يلحظ الفطرة - كما لحظها شرع الله في التوراة - حتى إذا ضمن لها القصاص المريح .. راح يناشد فيها وجدان السباحة والعفو - عفو القادر على القصاص : « فمن تصدق به فهو كفارة له » .

من تصدق بالقصاص متطوعاً .. سواء كان هو ولي الدم في حالة القتل (والصدقة تكون بأخذ الدية مكان القصاص ، أو بالتنازل عن الدم والدية معاً وهذا من حق الولي ، إذ العقوبة والعفو متروكان له ويبقى للإمام تعزيز القاتل بما يراه ) أو كان هو صاحب الحق في حالة الجروح كلها ، فتنازل عن القصاص .. من تصدق فصدقته هذه كفارة لذنوبه ؛ يحط بها الله عنه .

وكثيراً ما تستجيش هذه الدعوة إلى السباحة والعفو ، وتعليق القلب بعفو الله ومغفرته نفوساً لا يغنيها العوض المالي ؛ ولا يسليها القصاص ذاته عن فقدت أو عما فقدت .. فماذا يعود على ولي المقتول من قتل القاتل ؟ أو ماذا يعوضه من مال عن فقد ؟ .. إنه غاية ما يستطيع في الأرض لإقامة العدل ، وتأمين الجماعة .. ولكن تبقى في النفس بقية لا يمسح عليها إلا تعليق القلوب بالعوض الذي يحيى من عند الله ..

روى الإمام أحمد . قال : حدثنا وكيع ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي السفر ، قال : « كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار . فاستعدي عليه معاوية . فقال معاوية : سنرضيه .. فألح الأنصاري .. فقال معاوية : شأنك بصاحبك ! - وأبو الدرداء جالس - فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة ، أو حط به عنه خطيئة » .. فقال الأنصاري : فإني قد عفوت ..

وهكذا رضيت نفس الرجل واستراحت بما لم ترض من مال معاوية الذي لوح له به للتعويض ..

وتلك شريعة الله العليم بخلقهم ؛ وبما يحبك في نفوسهم من مشاعر وخواطر ، وبما يتعمق قلوبهم ويرضيها ؛ ويسكب فيها الاطمئنان والسلام من الأحكام . وبعد عرض هذا الطرف من شريعة التوراة ، التي صارت طرفاً من شريعة القرآن ، يعقب بالحكم العام :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ..

والتعبير عام ، ليس هناك ما يخصه ؛ ولكن الوصف الجديد هنا هو « الظالمون » . وهذا الوصف الجديد لا يعني أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر . وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله . فهو كافر باعتباره رافضاً لألوهية الله - سبحانه - واختصاصه بالتشريع لعباده ، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس . وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم ، الصالحة المصلحة لأحوالهم . فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة ، وتعريضها لعقاب الكفر . وبتعريض حياة الناس - وهو معهم - للفساد .

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط : « ومن لم يحكم بما أنزل الله » .. فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول ؛ ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو « من » المطلق العام .

### الحكم بما أنزل الله في الإنجيل

ثم يمضي السياق في بيان اطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة . « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة . وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .. فقد أتى الله عيسى بن مريم الإنجيل ، ليكون منهج حياة ، وشريعة حكم .. ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعاً إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة . وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فاعتمد شريعتها - فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة .. وجعل الله فيه هدى ونوراً ، وهدى وموعظة . ولكن لمن ؟ .. « للمتقين » . فالمتقون هم الذين يجدون في كتب الله الهدى والنور والموعظة ، هم الذين تفتتح قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور ؛ وهم الذين تفتتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور .. أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة ، فلا تبلغ إليها الموعظة ؛ ولا تجد في الكلمات معانيها ؛ ولا تجد في التوجيهات روحها ؛ ولا تجد في العقيدة مذاقها ؛ ولا تنتفع من هذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب .. إن النور موجود ، ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة ، وإن الهدى موجود ، ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرقة ، وإن الموعظة موجودة ، ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعي .

وقد جعل الله في الإنجيل هدى ونوراً وموعظة للمتقين ، وجعله منهج حياة وشريعة

## سورة المائدة

حكم لأهل الإنجيل .. أي إنه خاص بهم ، فليس رسالة عامة للبشر - شأنه في هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول ، قبل هذا الدين الأخير - ولكن ما طابق من شريعته - التي هي شريعة التوراة - حكم القرآن فهو من شريعة القرآن . كما مر بنا في شريعة القصاص . وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة :

« وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » .

فالقاعدة هي الحكم بما أنزل الله دون سواه . وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل - قبل الإسلام - وما أنزل إليهم من ربهم - بعد الإسلام - فكله شريعة واحدة ، هم ملازمون بها ، وشريعة الله الأخيرة هي الشريعة المعتمدة :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ..

والنص هنا كذلك على عمومته وإطلاقه .. وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل . وليست تعني قوماً جدداً ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى . إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل ، ومن أي قبيل .

الكفر برفض ألوهية الله ممثلاً هذا في رفض شريعته . والظلم بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم . والفسق بالخروج عن منهج الله واتباع غير طريقه .. فهي صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل . ويبوء بها جميعاً دون تفريق .



وأخيراً يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة ؛ وإلى الشريعة الأخيرة .. إنها الرسالة التي جاءت تعرض « الإسلام » في صورته النهائية الأخيرة ؛ ليكون دين البشرية كلها ؛ ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً ؛ ولتهيمن على كل ما كان قبلها ولتكون هي المرجع النهائي ؛ ولتقيم منهج الله للحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها . المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها ؛ والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها ؛ وتستمد منها تصورها الاعتقادي ، ونظامها الاجتماعي ، وآداب سلوكها الفردي والجماعي .. وقد جاءت كذلك ليحكم بها ، لا لتعرف وتدرس ، وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر ! وقد جاءت لتتبع بكل دقة ، ولا يترك شيء منها ويستبدل

## الجزء السادس

به حكم آخر في صغيرة من شئون الحياة أو كبيرة .. فإما هذا وإما فهي الجاهلية والهوى . ولا يشفع في هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل في الدين . فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة . إنما يريد الله أن تحكم شريعته ، ثم يكون من أمر الناس ما يكون : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم . واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يغنون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .. »

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير ، وهذا الحسم في التقرير ، وهذا الاحتياط البالغ لكل ما قد يهيج في الخاطر من مبررات لترك شيء - ولو قليل - من هذه الشريعة في بعض الملابس والظروف .. يقف الإنسان أمام هذا كله ، فيعجب كيف ساغ لمسلم - يدعي الإسلام - أن يترك شريعة الله كلها ، بدعوى الملابس والظروف ! وكيف ساغ له أن يظل يدعي الإسلام بعد هذا الترك الكلي لشريعة الله ! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم « مسلمين » ؟ ! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم ، وهم يخلعون شريعة الله كلها ، ويرفضون الإقرار له بالألوهية ، في صورة رفضهم الإقرار بشريعته ، وبصلاحية هذه الشريعة في جميع الملابس والظروف ، وبضرورة تطبيقها كلها في جميع الملابس والظروف !

### الحكم بما أنزل الله في القرآن

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق .. »

يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية ، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع ، وفرض القوانين .. ويتمثل الحق في محتوياته ، وفي كل ما يعرض له من شئون العقيدة والشريعة ، وفي كل ما يقصه من خبر ، وما يحمله من توجيه .

« مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه .. »

فهو الصورة الأخيرة لدين الله ، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن ، والمرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس ، ونظام حياتهم ، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل .

## سورة المائدة

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه . سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين اصحاب الديانات السماوية وفي الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة . أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم ، فالمرجع الذي يعودون إليه بأرائهم في شأن الحياة كله هو هذا الكتاب ، ولا قيمة لأراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير .

وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة :

« فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » ..

والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يحيئون إليه متحاكين . ولكنه ليس خاصاً بهذا السبب ، بل هو عام .. وإلى آخر الزمان .. طالما أنه ليس هناك رسول جديد ، ولا رسالة جديدة ، لتعديل شيء ما في هذا المرجع الأخير !

لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين . ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين . ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله ، ولا لتترك شيء من حكمه إلى حكم آخر ، ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى . وقد علم الله حين رضيه للناس ، أنه يسع الناس جميعاً . وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً . وأنه يسع حياة الناس جميعاً ، إلى يوم الدين . وأي تعديل في هذا المنهج - ودعك من العدول عنه - هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة . يخرج صاحبه من هذا الدين . ولو قال باللسان ألف مرة : إنه من المسلمين !

وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء المحكومين المتحاكين .. وأن هو اجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه ، في بعض الملابسات والظروف . فحذر الله نبيه ﷺ في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه ..

وأولى هذه الهواجس : الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة ، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد . ومسايرة بعض رغباتهم عندما تضطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة ، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة !

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على

## الجزء السادس

التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم . وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض .. ولكن الأمر - كما هو ظاهر - أعم من حالة بعينها وعرض بعينه . فهو أمر يعرض في مناسبات شتى ، ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين .. وقد شاء الله - سبحانه - أن يحسم في هذا الأمر ، وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف ، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء . فقال لنبيه : إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولكنه جعل لكل منهم طريقاً ومنهاجاً ؛ وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة ، وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا . وأن كلا منهم يسلك طريقه ؛ ثم يرجعون كلهم إلى الله ، فينبئهم بالحقيقة ، ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق .. وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج .. فهم لا يتجمعون :

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً . فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .  
بذلك أغلق الله - سبحانه - مداخل الشيطان كلها ؛ وبخاصة ما يبدو منها خيراً وتأليفاً للقلوب وتجميعاً للصفوف ؛ بالتساهل في شيء من شريعة الله ؛ في مقابل إرضاء الجميع ! أو في مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف !

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحي بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون ! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد ، ولكل منهم مشرب ، ولكل منهم منهج ، ولكل منهم طريق . ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين . وقد عرض الله عليهم الهدى ؛ وتركهم يستبقون . وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاءهم يوم يرجعون إليه ، وهم إليه راجعون ! وإنها لتعلة باطلة إذن ، ومحاولة فاشلة ، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها . فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئاً إلا الفساد في الأرض ؛ وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم ؛ وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر ؛ وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض ، واتخاذ بعضهم لبعض أرباباً من دون الله .. وهو شر عظيم وفساد عظيم .. لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون ؛ لأنها غير ما قدره الله في طبيعة البشر ؛ ولأنها مضادة للحكمة التي من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والمشاريع ، والاتجاهات والمشارب .. وهو خالق الخلق وصاحب الأمر الأول فيهم والآخر . وإليه المرجع والمصير ..

## سورة المائدة

إن محاولة التساهل في شيء من شريعة الله ، لمثل هذا الغرض ، تبدو - في ظل هذا النص الصادق الذي يبدو مصداقه في واقع الحياة البشرية في كل ناحية - محاولة سخيفة ؛ لا مبرر لها من الواقع ؛ ولا سند لها من إرادة الله ؛ ولا قبول لها في حس المسلم ، الذي لا يحاول الا تحقيق مشيئة الله . فكيف وبعض من يسمون أنفسهم « مسلمين » يقولون : إنه لا يجوز تطبيق الشريعة حتى لا نخسر « السائحين » ؟ !!! أي والله هكذا يقولون !

ويعود السياق فيؤكده هذه الحقيقة ، ويزيدها وضوحاً . فالنص الأول : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .. قد يعني النهي عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم ! فالآن يحذره من فتنهم له عن بعض ما أنزل الله إليه :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ..

فالتحذير هنا أشد وأدق ؛ وهو تصوير للأمر على حقيقته .. فهي فتنة يجب أن تحذر .. والأمر في هذا المجال لا يعدو أو يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً ؛ أو أن يكون اتباعاً للهوى وفتنة يحذر الله منها .

ثم يستمر السياق في تتبع الهواجس والخواطر ؛ فيهن على رسول الله ﷺ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة ، وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام ديناً ؛ أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله ( في ذلك الأوان حيث كان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتماً في دار الإسلام ) :

« فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون » .

فإن تولوا فلا عليك منهم ؛ ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته . ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك أو يحولك عن موقفك .. فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن الله يريد أن يحزيهم على بعض ذنوبهم . فهم الذين سيصيبهم سوء هذا الإعراض : لا أنت ولا شريعة الله ودينه ؛ ولا الصف المسلم المستمسك بدينه .. ثم إنها طبيعة البشر : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » فهم يخرجون وينحرفون . لأنهم هكذا ؛ ولا حيلة لك في هذا الأمر ، ولا ذنب للشريعة ! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق !

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ؛ ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة ؛ لغرض من الأغراض ؛ في ظرف

من الظروف ..

ثم يقفهم على مفرق الطريق .. فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل .. حكم الله يقوم في الأرض ، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر .. أو أنه حكم الجاهلية ، وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية .. فأيهما يريدون ؟

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » ..

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هي حكم البشر للبشر ، لأنها هي عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بالوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله .. إن الجاهلية - في ضوء هذا النص - ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها وضع من الأوضاع . هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم ، ويوجد غدا ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام .

والناس - في أي زمان وفي أي مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليما ، فهم إذن في دين الله . وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهم إذن في جاهلية ؛ وهم في دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال في دين الله . والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ؛ والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، ويعيش في الجاهلية . وهذا مفرق الطريق ، يقف الله الناس عليه . وهم بعد ذلك بالخيار !

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية ؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله .

« ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » ..

وأجل ! فمن أحسن من الله حكما ؟

ومن ذا الذي يجروا على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟

وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض ؟

أيستطيع أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من رب الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس ؟ أيستطيع أن يقول : إن الله سبحانه - وهو يشرع شريعته الأخيرة ، ويرسل



## سورة المائدة

رسوله الأخير ؛ ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد .. كان - سبحانه - يجهل أن أحوالاً ستطرأ ، وأن حاجات ستستجد ، وأن ملابسات ستقع ؛ فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه ، حتى انكشفت للناس في آخر الزمان ؟!

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ؛ ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟

ما الذي يستطيع أن يقوله .. وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين ؟! الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ؟ .. ألم يكن هذا كله في علم الله ؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتقلبة ؟ ألم يكن ذلك في علم الله ؛ وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير ؟ يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء .. ولكن المسلم .. أو من يدعون الإسلام .. ما الذي يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام ؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام ؟

إنه مفرق الطريق ، الذي لا معدى عنده من الاختيار ؛ ولا فائدة في المباحكة عنده ولا الجدل ..

إما إسلام وإما جاهلية . إما إيمان وإما كفر . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية .. والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون والظالمون الفاسقون . والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين ..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم ؛ وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه ؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء !

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان ؛ ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ؛ ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح .. وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس ؛ فما يجوز أن

تبقى غامضة ولا مائة في نفوس من يريدون أن يكونوا « المسلمين » وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »<sup>(٥١)</sup> .  
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ : نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ »<sup>(٥٢)</sup> . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ »<sup>(٥٣)</sup> .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »<sup>(٥٤)</sup> . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ »<sup>(٥٥)</sup> . وَمَنْ يَقُولْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ »<sup>(٥٦)</sup> .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا - مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ - أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »<sup>(٥٧)</sup> . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ »<sup>(٥٨)</sup> .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ،

وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ<sup>(٥٩)</sup>. قُلْ: هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ. أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ<sup>(٦٠)</sup>.  
« وَإِذَا جَاءَهُمْ قَوْمٌ قَالُوا: آمَنَّا، وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ<sup>(٦١)</sup>. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ، لِبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٦٢)</sup>. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ! لِبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ<sup>(٦٣)</sup>! »

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ. غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا. بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ<sup>(٦٤)</sup>. »

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلَدَخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ<sup>(٦٥)</sup>. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ<sup>(٦٦)</sup>.. »

نصوص هذا الدرس كله تؤيد ما ذهبنا إليه في تقديم السورة ، من أن هذه السورة لم تنزل كلها بعد سورة الفتح التي نزلت في الحديبية في العام السادس الهجري ؛ وأن مقاطع

## الجزء السادس

كثيرة فيها يرجح أن تكون قد نزلت قبل ذلك ؛ وقبل إجلاء بني قريظة في العام الرابع - عام الأحزاب - على الأقل ، إن لم يكن قبل هذا التاريخ أيضاً .. قبل إجلاء بني النضير بعد أحد ، وبني قينقاع بعد بدر ..

فهذه النصوص تشير إلى أحداث ، وإلى حالات واقعة في الجماعة المسلمة بالمدينة ، وإلى ملابسات ومواقف لليهود وللمنافقين ، لا تكون أبداً بعد كسر شوكة اليهود ؛ وآخرها كان في وقعة بني قريظة .

فهذا النص عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وهذا التحذير - بل التهديد - بأن من يتولم فهو منهم . وهذه الإشارة إلى أن الذين في قلوبهم مرض يوالونهم ، ويحتجون بأنهم يخشون الدوائر . وتنفير المسلمين من الولاء لمن يتخذون دينهم هزواً ولعباً ، والإشارة إلى أن هؤلاء يتخذون صلاة المسلمين - إذا قام المسلمون إلى الصلاة - هزواً ولعباً .. كل أولئك لا يكون إلا لليهود في المدينة من القوة والنفوذ والتمكن ؛ ما يجعل من الممكن أن تقوم هذه الملابسات ، وأن تقع هذه الحوادث ؛ وأن يحتاج الأمر إلى هذا التحذير المشدد ، وإلى هذا التهديد المكرر ؛ ثم إلى بيان حقيقة اليهود ؛ والتشهير بهم والتنديد ؛ وإلى كشف كيدهم ومناوراتهم ومداوراتهم على هذا النحو ، المتنوع الأساليب .

وقد ذكرت بعض الروايات أسباباً لنزول آيات في هذا الدرس ، يرجع بعضها إلى حادث بني قينقاع بعد غزوة بدر . وموقف عبد الله بن أبي بن سلول . وقوله في ولائه لليهود وولاء اليهود له : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي !

وحتى بدون هذه الروايات ، فإن الدراسة الموضوعية لطبيعة النصوص وجوها ، ومراجعتها على أحداث السيرة ومراحلها وأطوارها في المدينة ، تكفي لترجيح ما ذهبنا إليه في تقديم السورة عن الفترة التي نزلت فيها ..

### ولاء المسلم لعقيدته

وتشير نصوص هذا الدرس إلى طريقة المنهج القرآني في تربية الجماعة المسلمة وإعدادها؛ لدورها الذي قدره الله لها ؛ كما تشير إلى مقومات هذا المنهج والمبادئ التي يريد تقريرها في النفس المسلمة وفي الجماعة المسلمة في كل حين . وهي مقومات ومبادئ ثابتة ، ليست خاصة بجيل من هذه الأمة دون جيل . إنما هي أساس النشأة للفرد المسلم وللجماعة المسلمة في كل جيل ..

إن هذا القرآن يربي الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته

## سورة المائدة

وجماعته المسلمة ، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذي يقف فيه وكل صف آخر لا يرفع راية الله ، ولا يتبع قيادة رسول الله ؛ ولا ينضم إلى الجماعة التي تمثل حزب الله . وإشعاره أنه موضع اختيار الله ، ليكون ستاراً لقدرته ، وأداة لتحقيق قدره في حياة البشر وفي وقائع التاريخ . وأن هذا الاختيار - بكل تكاليفه - فضل من الله يؤتيه من يشاء . وأن موالاته غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله ، والنكول عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلي عن هذا التفضل الجميل ..

وهذا التوجيه واضح في النصوص الكثيرة في هذا الدرس : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض .. ومن يتولهم منكم فإنه منهم .. إن الله لا يهدي القوم الظالمين .. » يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه . أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم .. « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون .. »

ثم يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة . فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه .. وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أي شيء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل . وأن أكثركم فاسقون ؟؟ » فهذه هي العقدة ؛ وهذه هي الدوافع الأصلية !

وقيمة هذا المنهج ، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية فيه ، عظيمة . فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها .. أمران مهمان سواء في تحقيق شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم ، أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة .. فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلاً ، ولا يكونون في ذواتهم شيئاً ، ولا يحققون في واقع الأرض أمراً ما لم تتم في نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم ، وما لم يتمحض ولاؤهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به ، وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التي يخوضونها معهم ، وما لم يستيقنوا أنهم جميعاً إلب عليهم ، وأن بعضهم

## الجزء السادس

أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء .  
والنصوص في هذا الدرس لا تقف عند كشف بواعث المعركة في نفوس أعداء الجماعة المسلمة . بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم ، ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه ، وليطمئن ضميره إلى المعركة التي يخوضها ، وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة ، وأنه لا مفر منها :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض » ..  
« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً - من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار - أولياء . واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

« وإذا جاءوك قالوا : آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ! » .. « وقالت اليهود : يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل من ربك طغياناً وكفراً » . ومن هذه صفاتهم ، ومواقفهم من الجماعة المسلمة ، وتأليبهم عليها ، واستهزاؤهم بدينها وصلاتها ، لا مناص للمسلم من دفعهم وهو مطمئن الضمير ...

كذلك تقرر النصوص نهاية المعركة ونتيجتها ، وقيمة الإيمان في مصائر الجماعات في هذه الحياة الدنيا قبل الجزاء في الحياة الآخرة : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .. ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ..

كما تقرر صفة المسلم الذي يختاره الله لدينه ، ويمنحه هذا الفضل العظيم في اختياره لهذا الدور الكبير : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ..

وكل هذه التقارير خطوات في المنهج ، في صياغة الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة على الأساس المتين .

... فانه منهم

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في انفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت اعمالهم ، فأصبحوا خاسرين . »

ويحسن ان نبين أولاً معنى الولاية التي ينهى الله الذين آمنوا ان تكون بينهم وبين اليهود والنصارى ..

إنها تعني التناصر والتحالف معهم . ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم . فبعد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين . إنما هو ولاء التحالف والتناصر ، الذي كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم ، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر ، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام ، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة ، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله . بعدما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة ..

وهذا المعنى معروف محدد في التعبيرات القرآنية . وقد جاء في صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين في المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام . فقال الله سبحانه : « ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » .. وطبيعي أن المقصود هنا ليس الولاية في الدين . فالمسلم ولي المسلم في الدين على كل حال . إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون . فهي التي لا تقوم بين المسلمين في دار الإسلام والمسلمين الذين لم يهاجروا إليهم .. وهذا اللون من الولاية هو الذي تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال ، بعد ما كان قائماً بينهم أول العهد في المدينة .

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء ، واتخاذهم أولياء شيء آخر ، ولكنها يختلطان على بعض المسلمين ، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته ، بوصفه حركة منهجية واقعية . تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض ، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية ؛ وتصطدم — من ثم — بالتصورات والأوضاع المخالفة ، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله ، وتدخل في معركة لا حيلة فيها ، ولا بد منها ، لإنشاء ذلك الواقع الجديد

الذي تريده ، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة ..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها ، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق ، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة . ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب .. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة .. وأن هذا شأن ثابت لهم ، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم . وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة . وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر .. إلى آخر هذه التقارير الحاسمة .

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم . وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب ، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه ، ولن يكفهم عن موالاته بعضهم لبعض في حربه والكيد له ..

وسداجة أية سداجة وغفلة أية غفلة ، أن نطن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين ! أمام الكفار والملحدين ! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين !!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان ؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد — بوصفنا جميعاً أهل دين ! — ناسين تعليم القرآن كله ؛ وناسين تعليم التاريخ كله ؛ فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : « هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم درعاً ورداء . وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مئتي عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان .. في الحبشة والصومال واريترية



## سورة المائدة

والجزائر ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية ، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان !

ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن تقارير القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولأء وتناصر . ندفع به المادية الإلحادية عن الدين ! إن هؤلاء لا يقرأون القرآن . وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ؛ فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن .

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض ؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس . الموقف الذي لا يمكن تبديله . لأنه الموقف الطبيعي الوحيد !

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني ، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض .. ومن يتولهم منهم فإنه منهم . إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة .. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة : « الذين آمنوا » ..

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا ، أن المفصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولأء وحلف ، وعلاقات اقتصاد وتعامل ، وعلاقات جيرة وصحبة .. وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام ، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة .. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله ؛ بكل صنوف الكيد التي عدتها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة ؛ والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال ؛ والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص .

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه

الجديد في واقع الحياة . ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة . المفاصلة التي لا تنهي السباحة الخلقية . فهذه صفة المسلم دائماً . ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا ... الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منها للمسلم في كل أرض وفي كل جيل .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منهم فإنه منهم . إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

بعضهم أولياء بعض .. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن .. لأنها حقيقة تابعة من طبيعة الأشياء .. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ .. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة .. لقد ولي بعضهم بعضاً في حرب محمد ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة . وولي بعضهم بعضاً في كل فجاج الأرض ، على مدار التاريخ .. ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة ؛ ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم ، في صيغة الوصف الدائم ، لا الحادث المفرد .. واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو .. بعضهم أولياء بعض .. ليست مجرد تعبير ! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل !

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها .. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم . والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم ، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف « الإسلام » وينضم إلى الصف الآخر . لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية :

« ومن يتولهم منهم فإنه منهم » ..

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة .. وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه . ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة . ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه . فهو عنيف . نعم ؛ ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة . فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته في الصف المسلم ، الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا . فهذا مفرق الطريق ..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ؛ وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ؛ ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ؛ يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ؛ ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم ، الذي لا أرجحة فيه ولا تردد ؛ بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس - بعد رسالة محمد ﷺ وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه ، منهج متفرد ؛ لا نظير له بين سائر المناهج ؛ ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ؛ ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ؛ ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ؛ ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه : الاعتقادية والاجتماعية ؛ لم يأل في ذلك جهداً ، ولم يقبل من منهجه بديلاً - ولا في جزء منه صغير - ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ، ولا في نظام اجتماعي ، ولا في أحكام تشريعية ، إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب ...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس ؛ في وجه العقبات الشاقة ، والتكاليف المضنية ، والمقاومة العنيدة ، والكيد الناصب ، والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان .. وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره - مما هو قائم في الأرض من جاهلية .. سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك ، أو في انحراف أهل الكتاب ، أو في الإلحاد السافر .. بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي ، إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة ؛ يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة ؟

إن الذين يحاولون تميع هذه المفاصلة الحاسمة ، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخططون فهم معنى الأديان كما يخططون فهم معنى التسامح . فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله . والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .. إنهم يحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله المثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً ؛ ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر :

« إن الدين عند الله الإسلام » .. « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » ..  
 « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » .. « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا  
 اليهود والنصارى أولياء .. بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .. وفي  
 القرآن كلمة الفصل .. ولا على المسلم من تبع المتبعين وتبييعهم لهذا اليقين !  
 ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة ؛ والتي ينزل القرآن من أجلها بهذا  
 التحذير :

« فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » ..  
 روى ابن جرير ، قال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا إدريس ، قال : سمعت أبي ، عن  
 عطية بن سعد . قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله  
 ﷺ فقال : يا رسول الله . إن لي موالى من يهود كثير عددهم ؛ وإني أبرأ إلى الله ورسوله  
 من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبي ( رأس النفاق ) : إني رجل  
 أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية موالى . فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي : يا أبا  
 الحباب . ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه ! قال : قد  
 قبلت ! فأنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » ..  
 وقال ابن جرير . « حدثنا هناد ، حدثنا يوسف بن بكير ، حدثنا عثمان بن عبد  
 الرحمن عن الزهري ؛ قال : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود : اسلموا  
 قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر . فقال مالك بن الصيف : أغركم أن أصبتم رهطاً  
 من قريش ، لا علم لهم بالقتال ؟ أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن  
 تقاتلونا . فقال عبادة بن الصامت : يا رسول الله إن أوليائي من اليهود كانت شديدة  
 أنفسهم ، كثيراً سلاحهم ، شديدة شوكتهم . وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ،  
 ولا مولى لي إلا الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبي : لكني لا أبرأ من ولاية يهود ، ولا ،  
 إني رجل لا بد لي منهم . فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به  
 من ولاية يهود على عبادة بن الصامت ؟ فهو لك دونه ! » فقال : إذن أقبل ..

قال محمد بن اسحق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ  
 بنو قينقاع . فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة . قال : فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا  
 على حكمه . فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول - حين أمكنه الله منهم - فقال : يا محمد  
 أحسن في موالى - وكانوا حلفاء الخزرج - قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال يا محمد

## سورة المائدة

أحسن في موالي . قال : فأعرض عنه . قال : فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أرسلني » وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا . ثم قال : « ويحك ! أرسلني » . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي . أربعمئة حاسر ، وثلاثمئة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله ﷺ : « هم لك » ..

قال محمد بن إسحق : فحدثني أبي إسحق بن يسار ، عن عبادة ، عن الوليد بن عبادة ابن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الحزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآية في المائدة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض » إلى قوله : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زيادة ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عودة ، عن أسامة بن زيد ، قال : « دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوذه ، فقال له النبي ﷺ : « قد كنت أنكأ عن حب يهود » فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات .. ( وأخرجه أبو دواد من حديث محمد بن إسحق )

فهذه الأخبار من مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم ؛ والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام ؛ وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم .. غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود ، ولم يحىء ذكر في الوقائع للنصارى .. ولكن النص يجعل اليهود والنصارى .. ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى ، سواء من أهل الكتاب أو من المشركين ( كما سيجيء في سياق هذا الدرس ) .. ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في جملتها في العهد النبوي ، ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى :

## الجزء السادس

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ... الخ » .. مع هذا الاختلاف الذي كان يومذاك ، فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى - كما يسوي النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار .. فيما يختص بقضية المحالفة والولاء . ذلك ان هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة . هي : أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم ؛ وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة .. وتستوي بعد ذلك كل الفرق في هذا الأمر .. مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف ..

على أن الله - سبحانه - وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة ، كان علمه يتناول الزمان كله ، لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول الله ﷺ وملابستها الموقوتة .. وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداة النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداة اليهود . وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام ، فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب ، قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضعن ، وشنت عليه من الحرب والكيد ، ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أي زمان ! حتى الحبشة التي أحسن عاقلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام ، عادت فإذا هي أشد حرباً على الإسلام والمسلمين من كل أحد ؛ لا يجاريها في هذا إلا اليهود ..

وكان الله - سبحانه - يعلم الأمر كله . فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة ، بغض النظر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتنزل فيها وملابساتها الموقوتة ! وبغض النظر عما يقع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان .

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به - ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء - يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكان على سطح الأرض ؛ ما يصدق قول الله تعالى : « بعضهم أولياء بعض » .. وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم ، بل بأمره الجازم ، ونهيه القاطع ؛ وقضائه الحاسم في المفاصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله ، وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله .. إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعاً على أساس العقيدة . فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء - وهو التناصر - بين المسلم وغير المسلم ؛ إذ أنها لا يمكن يتناصرا في مجال

## سورة المائدة

العقيدة .. ولا حتى أمام الإلحاد مثلاً - كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن ! - وكيف يتناصران وليس بينهما اساس مشترك يتناصران عليه ؟  
إنت بعض من لا يقرأون القرآن ، ولا يعرفون حقيقة الإسلام ؛ وبعض المخدوعين أيضاً يتصورون أن الدين كله دين ! كما أن الإلحاد كله إلحاد ! وأنه يمكن إذن ان يقف « التدين » يحملته في وجه الإلحاد . لأن الإلحاد ينكر الدين كله ، ويحارب التدين على الإطلاق ..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ؛ ولا في حس المسلم الذي يتسذوق الإسلام . ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة ، وحركة بهذه العقيدة ، لإقامة النظام الإسلامي .

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد .. الدين هو الإسلام .. وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام .. لأن الله - سبحانه - يقول هذا . يقول : « إن الدين عند الله الإسلام » .. ويقول : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » .. وبعد رسالة محمد ﷺ لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من احد إلا هذا « الإسلام » .. في صورته التي جاء بها محمد ﷺ وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل . كما ان ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام ، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته ..

ووجود يهود ونصارى - من اهل الكتاب - بعد بعثة محمد ﷺ ليس معناه ان الله يقبل منهم ما هم عليه ؛ او يعترف لهم بأنهم على دين إلهي .. لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير .. اما بعد بعثته فلا دين - في التصور الإسلامي وفي حس المسلم - إلا الإسلام .. وهذا ما ينص عليه القرآن نصاً غير قابل للتأويل ..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الاسلام .. لأنه « لا إكراه في الدين » ولكن هذا ليس معناه انه يعترف بما هم عليه « ديناً » ويراهم على « دين » .. ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الاسلام في وجه الالحاد ! هناك « دين » هو الاسلام .. وهناك « لا دين » هو غير الاسلام .. ثم يكون هذا اللادين .. عقيدة اصلها سماوي ولكنها محرفة ، او عقيدة اصلها وثني باقية على وثنيتها ، او إلحاداً ينكر الأديان .. تختلف فيما بينها كلها . ولكنها تختلف كلها مع الاسلام . ولا حلف بينها وبين الاسلام ولا ولاء ...

## الجزء السادس

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء ؛ وهو مطالب بإحسان معاملتهم - كما سبق - ما لم يؤذوه في الدين ؛ ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن - على خلاف فقهي فيمن تعتقد بالوهية المسيح أو بنوته ، وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحمل أم مشرقة تحرم - وحق مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة . . فإن حسن المعاملة وجواز النكاح ، ليس معناها الولاء والتناصر في الدين ؛ وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ هو دين يقبله الله ؛ ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد !

إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب ؛ كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء . ودعاهم إلى الإسلام جميعاً ، لأن هذا هو « الدين » الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً . ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام ، وكبر عليهم أن يدعوا إليه ، جابههم القرآن الكريم بأن الله يدعوهم إلى الإسلام ، فإن تولوا عنه فهم كافرون !

والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام ، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء . وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام . لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه . فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه ، هو كذلك لا ثمرة له . ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ هو دين يقبله الله . . ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام !.. إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد ؛ هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين . وأنه يدعوهم إلى الدين .

وإذا تقررت هذه البديهية ، فإنه لا يكون منطقياً مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض ، مع من لا يدين بالإسلام .

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية . كما أنها قضية تنظيمية حركية ! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحاً بهذا البيان الذي أسلفناه ، وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب .

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك . . فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج الله في الحياة - وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام



## سورة المائدة

كما جاء به محمد ﷺ - بكل تفصيلات وجوانب هذا المنهج ، وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة .. فكيف يمكن إذن ان يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام ديناً ومنهجاً ونظاماً وشريعة ؛ ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخرى - إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام - إذ الإسلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحاً - «والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف» ..

والإسلام يكلف المسلم ان يخلص سعيه كله للإسلام .. ولا يتصور إمكان انفصال اية جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الاسلام .. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الاسلام وطبيعة المنهج الاسلامي .. ولا يتصور ان هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الاسلام ، او لا يرضى من المسلم إلا ان يترك إسلامه ، كما نص الله في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه ! .. إن هناك استحالة اعتقادية كما ان هناك استحالة عملية على السواء ..

ولقد كان اعتذار عبد الله بن ابي بن سلول ، وهو من الذين في قلوبهم مرض ، عن مسارعته واجتهاده في الولاء لليهود ، والاستمسك بحلفه معها ، هي قوله : إنني رجل أخشى الدوائر ! إني أخشى ان تدور علينا الدوائر وان تصيبنا الشدة ، وان تنزل بنا الضائقة .. وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الايمان .. فالولى هو الله ، والناصر هو الله ؛ والاستنصار بغيره ضلالة ، كما انه عبث لا ثمره له .. ولكن حجة ابن سلول هي حجة كل ابن سلول على مدار الزمان ؛ وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب ، لا يدرك حقيقة الايمان .. وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت من ولأء يهود بعدما بدا منهم . لأنه قلب مؤمن فخلع ولأء اليهود وقذف به ، حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد الله ابن ابي سلول !

إنها نهجان مختلفان ، ناشئان عن تصورين مختلفين ، وعن شعورين متباينين ، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الايمان ! ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم ، المتألبين عليهم ، المنافقين الذين لا يخلصون الله اعتقادهم ولا ولائهم ولا اعتمادهم .. يهددهم برجاء الفتح او امر الله الذي يفصل في الموقف ؛ او يكشف المستور من النفاق .

« فمضى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده ، فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم

## الجزء السادس

ثامنين .

وعندئذ - عند الفتح - سواء كان هو فتح مكة او كان الفتح بمعنى الفصل او عند مجيء امر الله - يندم اولئك الذين في قلوبهم مرض ، على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى وعلى النفاق الذي انكشف امره ، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين ، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران !

« ويقول الذين آمنوا : اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت اعمالهم ، فأصبحوا خاسرين ! » ..

ولقد جاء الله بالفتح يوماً ، وتكشفت نوايا ، وحبطت اعمال ، وخسرت فئات . ونحن على وعد من الله قائم بأن مجيء الفتح ، كلما استمسكنا بعروة الله وحده ؛ وكلما اخلصنا الولاء لله وحده . وكلما وعينا منهج الله ، واقمنا عليه تصوراتنا واوضاعنا . وكلما تحركنا في المعركة على هدى الله وتوجيهه . فلم نتخذ لنا ولياً إلا الله ورسوله والذين آمنوا ..

حزب الله .. هو الغالب

وإذ ينتهي السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، ان ينتهوا عن موالاته اليهود والنصارى ، وان يحذروا ان يصيروا منهم بالولاء لهم ، وان يرتدوا بذلك عن الاسلام - وهم لا يشعرون او لا يقصدون - يرسل بالنداء الثاني ، يهدد من يرتد منهم عن دينه - او بهذا الولاء او بسواه من الأسباب - بأنه ليس عند الله بشيء ، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه ، وان لدين الله اولياء وناصرين مدخرين في علم الله ، ان ينصرف هؤلاء مجيء هؤلاء . ويصور ملامح هذه العصابة المختارة المدخرة في علم الله لدينه ، وهي ملامح محبة جميلة وضيئة . ويبين جهة الولاء الوحيدة التي يتجه إليها المسلم بولائه . ويختتم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التي يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتي يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنمنا وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..

إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا - على هذه الصورة . وفي هذا المقام -

## سورة المائدة

ينصرف - ابتداء - إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام . وبخاصة بعدما سبق من اعتبار من يتولاهم واحداً منهم ، منسلخاً من الجماعة المسلمة منضماً إليهم : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .. وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق تأكيداً وتقريراً للنداء الأول .. يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق ، وهو منصب على النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار ، يجمع بينهم على هذا النحو ، الذي يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء ، وأن تفرقة الإسلام في المعاملة بين أهل الكتاب والكفار ، لا تتعلق بقضية الولاء ، إنما هي شؤون أخرى لا يدخل فيها الولاء ..

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ..

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض ، وتمكين سلطانه في حياة البشر ، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة .. إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته . فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة .. فهو وذاك . والله غني عنه - وعن العالمين . والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم . والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا ، صورة واضحة السمات قوية الملامح ، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب :

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » ..

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم .. الحب .. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش .. هو الذي يربط القوم بربهم الودود . وحب الله لعبده من عباده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله - سبحانه - بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكيونته كلها .. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي .. الذي يعرف من هو الله .. من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير ! من هو في عظمته . ومن هو في قدرته . ومن هو في تفرده . ومن

## الجزء السادس

هو في ملكوته .. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب .. والعبد من صنع يديه - سبحانه - وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم ، الأزلي الأبدي ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها .. وإذا كان حب الله لعبد من عبده أمراً هائلاً عظيماً ، وفضلاً غامراً جزيلاً ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لربه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شيء .. هو إنعام هائل عظيم .. وفضل غامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبده أمراً فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين .. وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين - وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل - ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهي تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض ، وينطبع في كل حي وفي كل شيء .. فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحبوب ..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربّه بهذا الرباط العجيب الحبيب .. وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة .. إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » .. « إن ربي رحيم ودود » .. « وهو الغفور الودود » .. « وإذا سألك عبادي عني فأنني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .. « والذين آمنوا أشد حبا لله » .. « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » ... وغيرها كثير ...

وعجباً لقوم يملكون على هذا كله ، ليقولوا : إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر ، وعذاب وعقاب ، وجفوة وانقطاع ...

## سورة المائدة

لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله واقنوم الإله ، فيربط بين الله والناس ، في هذا الازدواج !

إن نصاعة التصور الإسلامي ، في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك الندى الحبيب ، بين الله والعبيد ، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد ، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه .. إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين .

وهنا - في صفة العصبية المؤمنة المختارة لهذا الدين - يرد ذلك النص العجيب : « يحبهم ويحبونه » ويطلق شحنته كلها في هذا الجو ، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق . شاعراً أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل .. ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات :

« أذلة على المؤمنين » ..

وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين .. فالؤمن ذلول للمؤمن .. غير عصي عليه ولا صعب . هين لين .. ميسر مستجيب .. سمح ودود .. وهذه هي الذلة للمؤمنين . وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة . إنما هي الأخوة ، ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين . إن حساسية الفرد بذاته متحوصة متحيزة هي التي تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه . فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبية المؤمنة معه ، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به .. وماذا يبقى له في نفسه دونهم ، وقد اجتمعوا في الله إخواناً ؛ يحبهم ويحبونه ، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمون ؟ !

« أعزة على الكافرين » ..

فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء .. وهذه الخصائص هنا موضع .. إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس . إنما هي العزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين . إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم وان يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين ! ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ؛ وبغلبة قوة الله على تلك القوى ؛ وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية .. فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك ، في أثناء الطريق الطويل ..

« يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ..

فالجهد في سبيل الله ، لإقرار منهج الله في الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته في الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس .. هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد ..

وهم يجاهدون في سبيل الله ؛ لا في سبيل أنفسهم ؛ ولا في سبيل قومهم ؛ ولا في سبيل وطنهم ؛ ولا في سبيل جنسهم .. في سبيل الله . لتحقيق منهج الله ، وتقرير سلطانه ، وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق .. وليس لهم في هذا الأمر شيء ؛ وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك ..

وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. وفي الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس ؟ وفي الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجليل ، ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة الله ، ويعرضون منهج الله للحياة ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ؛ ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس ؛ أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه لجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم ؛ وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون . كائنًا هؤلاء الناس ما كانوا ؛ وكائنًا واقع هؤلاء الناس ما كان ، وكائنًا « حضارة » هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون !

إننا نحسب حسابًا لما يقول الناس ؛ ولما يفعل الناس ؛ ولما يملك الناس ؛ ولما يصطلح عليه الناس ؛ ولما يتخذ الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين .. لأننا نغفل أو نسو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم .. إنه منهج الله وشريعته وحكمه .. فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ؛ ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون !

إنه ليست قيمة أي وضع ، أو أي عرف ، أو أي تقليد ، أو أية قيمة .. أنه موجود ؛ وأنه واقع ؛ وأن ملايين البشر يعتنقونه ، ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم .. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي . إنما قيمة أي وضع ، وأي عرف ، وأي تقليد ، وأية قيمة ، أن يكون لها أصل في منهج الله ، الذي منه — وحده — تستمد القيم والموازين ..

ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المؤمنين

المختارين ..

ثم إن ذلك الاختيار من الله ، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين ، وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانهم ، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم ، والسير على هداه في جهادهم .. ذلك كله من فضل الله .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم » ..

يعطي عن سعة ، ويعطي عن علم .. وما أوسع هذا العطاء ؛ الذي يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير .

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاية الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان ؛ ويبين لهم من يتولون : ..

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » ..

هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالاً للتحمل أو التأول ؛ ولا يترك فرصة لتميع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور ..

ولم يكن بد أن يكون الأمر كذلك ! لأن المسألة في صميمها — كما قلنا — هي مسألة العقيدة . ومسألة الحركة بهذه العقيدة . وليكون الولاء لله خالصاً ، والثقة به مطلقة ، وليكون الإسلام هو « الدين » . وليكون الأمر أمر مفصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام ديناً ، ولا تجعل الإسلام منهجاً للحياة . ولتكون للحركة الإسلامية جديتها ونظامها ؛ فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة وراية واحدة . ولا يكون التناصر إلا بين العصبية المؤمنة ؛ لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة ..

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان ، أو مجرد راية وشعار ، أو مجرد كلمة تقال باللسان ، أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة ، أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكان ! فإن السياق يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا :

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون » ..

فمن صفتهم إقامة الصلاة — لا مجرد أداء الصلاة — وإقامة الصلاة تعني أداءها أداء كاملاً ، تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .. والذي لا تنهيه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يقم الصلاة ؛ فلو أقامها لنهته كما يقول الله !

## الجزء السادس

ومن صفتهم أيتاء الزكاة .. أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة . فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية ، إنما هي كذلك عبادة . أو هي عبادة مالية . وهذه هي ميزة المنهج الإسلامي الذي يحقق أهدافاً شتى بالفريضة الواحدة . وليس كذلك الأنظمة الأرضية التي تحقق هدفاً وتقرط في أهداف ..

إنه لا يغني في إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة ( مدنية ! ) أو أن يأخذ المال من الأغنياء للفقراء باسم الدولة ، أو باسم الشعب ، أو باسم جهة أرضية ما . فهي في صورتها هذه قد تحقق هدفاً واحداً ؛ وهو إيصال المال للمحتاجين ..

فأما الزكاة .. فتعني اسمها ومدلولها .. إنها قبل كل شيء طهارة ونماء .. إنها زكاة للضمير بكونها عبادة لله . وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء ؛ بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة ، كما يرجو منها نماء المال في الحياة الدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادي المبارك . ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم ؛ إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم من أموال الأغنياء ؛ ولا يشعرون معها بالحق والتشفي من إخوانهم الأغنياء ( مع تذكر أن الأغنياء في النظام الإسلامي لا يكسبون إلا من حلال ولا يحجرون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال ) .. وفي النهاية تحقق هدف الضريبة المالية في هذا الجو الراضي الخير الطيب .. جو الزكاة والطهارة والنماء ...

وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله في شئون الحياة ؛ فهي إقرار منهم بسلطان الله في أمرهم كله .. وهذا هو الإسلام .. « وهم راكعون » ..

ذلك شأنهم ، كأنه الحالة الأصلية لهم .. ومن ثم لم يقف عند قوله : « يقيمون الصلاة » .. فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل . إذ أنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم . فأبرز سمة لهم هي هذه السمة ، وبها يعرفون ..

وما أعمق إichاءات التعبيرات القرآنية في مثل هذه المناسبات ! والله يعد الذين آمنوا - في مقابل الثقة به ، والالتجاء إليه ، والولاء له وحده - ولرسوله وللمؤمنين بالتبعية .. ومقابل المفصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذي يتمحض لله .. يعدهم بالنصر والغلبة :

« ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » ..



## سورة المائدة

وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها .. وأنها هي الولاء لله ورسوله وللمؤمنين ؛ وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتباره خروجاً من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى ، وارتداداً عن الدين .

وهنا لفظة قرآنية مفردة .. قاله - سبحانه - يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير ! لأنه سيفلب ، أو سيمكن له في الأرض ؛ فهذه ثمرات تأتي في حينها ؛ وتأتي لتحقيق قدر الله في التمكين لهذا الدين ؛ لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين .. والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم . لا شيء لذواتهم وأشخاصهم . وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم ، ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم ! فيكون لهم ثواب الجهد فيه ؛ وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين الله في الأرض ، وصلاح الأرض بهذا التمكين ..

وكذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم ؛ وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم - وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة - فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة ؛ وتخطي العقبة ، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة ، فيكون لهم ثواب الجهاد ، وثواب التمكين لدين الله ، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين .

وكذلك يشي ورود هذا النص في هذا المجال ، بحالة الجماعة المسلمة يومذاك ، وحاجتها إلى هذه البشريات . بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب الله .. مما يرجح ما ذهبنا إليه عن تاريخ نزول هذا القطاع من السورة .

ثم تخلص لنا هذه القاعدة ؛ التي لا تتعلق بزمان ولا مكان .. فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التي لا تتخلف . وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف . فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب الله هم الغالبون .. ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل الطريق ! وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقيق وعد الله في نهاية الطريق !

### .. قضية عقيدة

وبعد فلقد سلك المنهج القرآني في السياق طرقاً متنوعة ، لنهي الذين آمنوا عن تولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركين ، ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية في ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم . مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي ؛ وفي

الحركة الإسلامية على السواء ..

وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر ، وطريق التخويف من أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده ، فينكشف ستر المنافقين .. وسلك في النداء الثاني طريق التحذير من الردة بموالة أعداء الله ورسوله والمؤمنين ؛ وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبة المختارة . ممن يحبهم الله ويحبونه ؛ وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..

فالآن نجد في النداء الثالث في هذا الدرس للذين آمنوا يثير في نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التي يتخذها أعداؤهم هزواً ولعباً . ونجده يسوي في النهي عن الموالة بين أهل الكتاب والكفار ، وينوط هذا النهي بتقوى الله ؛ ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان ؛ ويقبّح فعلة الكفار وأهل الكتاب ويصفهم بأنهم لا يعقلون :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً - من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار - أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا قمتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ..

وهي ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ؛ الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه ، وأهينت عبادته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين يدي ربه مادة للهزء واللعب .. فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ؛ ويرتكبونها لنقص في عقولهم . فما يستهزئ بدين الله وعبادة المؤمنين به ، إنسان سوي العقل ؛ فالعقل - حين يصح ويستقيم - يرى في كل شيء من حوله موحيات الإيمان بالله . وحين يختل وينحرف لا يرى هذه الموحيات ، لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله . فالوجود كله يوحى بأن له إلهاً يستحق العبادة والتعظيم . والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك ، فلا يتخذها هزواً ولعباً وهو صحيح مستقيم .

ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار ، كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب ، في الفترة التي كان هذا القرآن ينزل فيها على قلب رسول الله ﷺ للجماعة المسلمة في ذلك الحين . ولم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى .. ولكن الله - سبحانه - كان يضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها وحياتها الدائمة . وكان الله - سبحانه - يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين . وها نحن أولاء رأينا ونرى أن

## سورة المائدة

أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ، أمس واليوم، من الذين قالوا :  
إنهم نصارى كانوا أكثر عدداً من اليهود ومن الكفار مجتمعين ! فهؤلاء - كهؤلاء - قد  
نصبوا الإسلام العدا ، وترصدوه القرون تلو القرون ، وحاربوه حرباً لا هوادة فيها منذ  
أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - حتى  
كانت الحروب الصليبية ؛ ثم كانت « المسألة الشرقية » التي تكتلت فيها الدول الصليبية  
في أرجاء الأرض للإجهاز على الخلافة ؛ ثم كان الاستعمار الذي يخفي الصليبية بين أضلاعه  
فتبدو في فلتات لسانه ؛ ثم كان التبشير الذي مهد للاستعمار وسانده ؛ ثم كانت وما تزال  
تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامي في أي مكان في الأرض .. وكلها  
حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون ..

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة . الكتاب  
الذي يبني تصورها الاعتقادي ، كما يبني نظامها الاجتماعي ، كما يبني خطتها الحركية ..  
سواء .. وما هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ وينهاها أن  
يكون ولاؤها لليهود والنصارى والكافرين . ويجزم ذلك الجزم الحاسم في هذه القضية ،  
ويعرضها هذا العرض المنوع الأساليب .

إن هذا الدين يأمر أهله بالسماحة ، وبحسن معاملة أهل الكتاب ؛ والذين قالوا : إنهم  
نصارى منهم خاصة .. ولكنه ينهاهم عن الولاء لهؤلاء جميعاً .. لأن السماحة وحسن المعاملة  
مسألة خلق وسلوك . أما الولاء فمسألة عقيدة ومسألة تنظيم . إن الولاء هو النصرة . هو  
التناصر بين فريق وفريق ؛ ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب - كما هو الشأن في  
الكفار - لأن التناصر في حياة المسلم هو - كما أسلفنا - تناصر في الدين ؛ وفي الجهاد  
لإقامة منهجه ونظامه في حياة الناس ؛ فقيم يكون التناصر في هذا بين المسلم وغير المسلم .  
وكيف يكون ؟!

إنها قضية جازمة حاسمة لا تقبل التميع ، ولا يقبل الله فيها إلا الجد الصارم ؛ الجد  
الذي يليق بالمسلم في شأن الدين ..

### ينقمون منا الايمان

وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا ، يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ليواجه أهل  
الكتاب ، فيسألهم : ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة ؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله ،  
وما أنزل إلى أهل الكتاب ؛ وما أنزله الله المسلمين بعد أهل الكتاب ..؟ هل ينقمون

إلا أن المسلمين يؤمنون ، وأنهم هم - أهل الكتاب - أكثرهم فاسقون ؟ وهي مواجهة مخجلة . ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق :  
« قل : يا أهل الكتاب ، هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون ؟ قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت .. أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل .. »

إن هذا السؤال الذي وجهه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب ، هو من ناحية سؤال تقريرى لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم ؛ وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها . وهو من ناحية سؤال استنكاري ، لاستنكار هذا الواقع منهم ، واستنكار البواعث الدافعة عليه .. وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين ، وتنفير لهم من موالاة القوم ، وتقدير لما سبق في النداءات الثلاثة من نهي عن هذه الموالاة وتحذير .

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول ﷺ وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي - إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن ؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب ..  
إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون ! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى . ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم - لا ما ابتدعوه وحرفوه - ولا يؤمنون بالرسول الأخير ، وهو مصدق لما بين يديه ؛ معظم لرسول الله أجمعين .

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء ؛ التي لم تضع أوزارها قط ، ولم ينخب أوارها طوال ألف وأربعمئة عام ؛ منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة ؛ وتميزت لهم شخصية ؛ وأصبح لهم وجود مستقل ؛ ناشئ من دينهم المستقل ، وتصورهم المستقل ، ونظامهم المستقل ، في ظل منهج الله الفريد .

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم - قبل كل شيء - مسلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم ؛ فيصبحوا غير مسلمين .. ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين !

## سورة المائدة

والله - سبحانه - يقرر هذه الحقيقة في صورة قاطعة ، وهو يقول لرسوله ﷺ في السورة الأخرى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .. ويقول له في هذه السورة أن يواجه أهل الكتاب بحقيقة بواعثهم وركيزة موقفهم .  
« قل : يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ؛ وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟ » ..

وهذه الحقيقة التي يقررها الله سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين ، هي التي يريد تميمها وتليبسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب ، وكثيرون ممن يسمون أنفسهم « مسلمين » .. باسم تعاون « المتدينين » في وجه المادية والإلحاد كما يقولون !

أهل الكتاب يريدون اليوم تميم هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها ، لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي - أو الذي كان إسلامياً بتعبير أصح - وتحذير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهج الرباني القويم . ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليماً لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف لمد الإسلام ، فضلاً على أن يستعمر الوطن الإسلامي .. ولم يكن بد لهؤلاء - بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة ، وفي حرب التبشير السافرة كذلك - أن يسلوكوا طريق الخداع والتحذير ، فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين ، أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت ! وأنها كانت مجردة فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعاً ! ثم تنور العالم و « تقدم » فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة .. وإنما الصراع اليوم على المادة ! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب ! وإذن فما يجوز للمسلمين - أو ورثة المسلمين - أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين !

وحين يطمئن أهل الكتاب - وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين - إلى استئمان هؤلاء لهذا التحذير ؛ وحين تتبيع القضية في ضمائرهم ؛ فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله ؛ وللعقيدة .. الغضبة التي لم يقفوا لها يوماً .. ويصبح الأمر سهلاً بعد التنويم والتحذير .. ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها . بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ؛ ويغلبون في معركة « المادة » بعدما يغلبون في معركة « العقيدة » .. فهذا قريب من قريب ..

وعملاء أهل الكتاب في الوطن الإسلامي ، ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو

## الجزء السادس

في خفية ، يقولون القول نفسه .. لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود .. وهؤلاء يقولون عن « الحروب الصليبية » ذاتها : إنها لم تكن « صليبية » !!! ويقولون عن « المسلمين » الذين خاضوها تحت راية العقيدة : إنهم لم يكونوا « مسلمين » وإنما هم كانوا « قوميين » !

وفريق ثالث مستغفل مخدوع ؛ يناديه أحفاد « الصليبيين » في الغرب المستعمر : أن تعالوا إلينا . تعالوا نجتمع في ولاء ؛ لندفع عن « الدين » غائلة « الملحدين » ! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع ؛ ناسياً أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين ؛ صفاء واحداً ؛ حينما كانت المواجهة للمسلمين ! على مدار القرون ! وما يزالون ! وأنهم لا يعنيههم حرب المادية الإلحادية قدر ما تعنيههم حرب الإسلام ، ذلك أنهم يعرفون جيداً أن الإلحادية المادية عرض طارئ و وعدو موقوت ؛ وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم ! وإنما هذه الدعوة المموهة لتميع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي ؛ وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين - في الوقت ذاته - ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون ! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين .. حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم ..

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق ، فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن « الدين » إنما ينسون واقع التاريخ في أربعة عشر قرناً - لا استثناء فيها - كما ينسون تعليم ربهم لهم في هذا الأمر بالذات ، وهو تعليم لا موارد فيه ، ولا مجال للحيدة عنه ، وفي النفس ثقة بالله وبقين مجدية ما يقول !

إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب ؛ وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك . ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم ؛ والتقارير الواعية عن بواعثهم ، والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية ، وخطة التنظيم ، التي تحرم التناصر والموالات ، لأن التناصر والموالات لا يكونان عند المسلم إلا في شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية ، وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مع أهل الكتاب في شأن دينه - مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها - إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين ، ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين .. كما يقول رب

العالمين ...

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضيضين ؛ يجزئونه ويمزقونه ، فيأخذون منه ما يشاؤون  
— مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها — ويدعون منه ما لا يتفق مع  
اتجاههم الغافل أو المريب !

ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله ، في هذه القضية ، على أن نسمع كلام المخدوعين أو  
الخداعين ! وكلام الله — سبحانه — في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين ..  
ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى — بعد تقرير أن سبب النعمة هو  
الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل — أن بقية السبب :  
« وأن أكثركم فاسقون » .

فهذا الفسق هو شطر الباعث ! فالفسق يحمل صاحبه على النعمة من المستقيم .. وهي  
قاعدة نفسية واقعية ؛ تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة .. إن الذي يفسق عن الطريق  
وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم .. إن وجوده يشعره دائماً بفسقه  
وانحرافه . إنه ينمثل له شاهداً قائماً على فسقه هو وانحرافه .. ومن ثم يكرهه وينقم  
عليه . يكره استقامته وينقم منه التزامه ؛ ويسعى جاهداً لجره إلى طريقه ؛ أو للقضاء  
عليه إذا استعصى قياده !

إنها قاعدة مطردة ، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة ، إلى  
موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة . إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصابة  
ملتزمة مستقيمة . والحرب المشبوبة دائماً على الخيرين في مجتمع الأشرار ، وعلى المستقيمين  
في مجتمع الفاسقين ، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين .. هذه الحرب أمر طبيعي يستند  
إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب ..

ولقد علم الله — سبحانه — أن الخير لا بد أن يلقي النعمة من الشر ، وأن الحق لا بد أن  
يواجه العداء من الباطل ، وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق ، وأن الالتزام لا بد  
أن يجر حقد المنحرفين .

وعلم الله — سبحانه — أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها ،  
وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف . وأنها معركة لا خيار  
فيها ، ولا يملك الحق إلا أن يخوضها في وجه الباطل . لأن الباطل سيهاجمه ، ولا يملك الخير  
أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه ...

وغفلة - أي غفلة - أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف ؛ وأنهم يملكون تجنب المعركة ؛ وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة ! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة ؛ من أن يستسلموا للوهم والخديعة .. وهم يومئذ مأكولون مأكولون !

ثم غضي مع السياق القرآني في توجيهه الله - سبحانه - لرسوله ﷺ لمواجهة أهل الكتاب ، بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النعمة على المسلمين .. فإذا هو يجيبهم بتاريخهم لهم قديم ، وشأن لهم مع ربهم ، وعقاب أليم :

« قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . أولئك شر مكاناً ، وأضل عن سواء السبيل ! » .

وهنا تطالعنا سحنة يهود ، وتاريخ يهود !  
إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم « وجعل منهم القردة والخنازير . إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت ..

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم ؛ وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير . فأما قضية عبادتهم للطاغوت ، فتحتاج إلى بيان هنا ، لأنها لفظة ذات دلالة خاصة في سياق هذه السورة ..

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدوان يتجاوز الحق .. والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشدّه طغياناً ، وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى ..

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأبحار والرهبان ؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله . فسماهم الله عباداً لهم ؛ وسماهم مشركين .. وهذه اللفظة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق . فهم عبدوا الطاغوت .. أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها .. وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع ، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة . وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله<sup>(١)</sup> .

والله - سبحانه - يوجه رسوله ﷺ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ ، وبذلك الجزاء

(١) يراجع كتاب : « المصطلحات الأربعة » للسيد أبي الأعلى المودودي ، أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .. فصل : « العبادة » .. ويراجع كتاب : « هذا الدين » فصل : « منهج منفرد » ويراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » : فصل « التوحيد » .



## سورة المائدة

الذي استحقوه من الله على هذا التاريخ .. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جيلة واحدة ..  
يوجهه ليقول لهم : إن هذا شر عاقبة :

« قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » ..

أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين ، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب  
إيمانهم . وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه ، وحكمه على أهل الكتاب بالشر  
والضلال عن سواء السبيل :

« أولئك شر مكاناً ، وأضل عن سواء السبيل » ..

ويمضي السياق في التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم - بعد عرض تاريخهم  
وجزائهم - ويحيي التحذير والتوعية منهم بكشف ما يبيتون .. ويبرز اليهود كذلك في  
الصورة ، لأن الحديث عن وقائع جارية ، ومعظم الشر كان يحيي من قبل يهود :

« وإذا جاءوكم قالوا : آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . والله أعلم بما  
كانوا يكتُمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان . وأكلهم السحت ،  
لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينههم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت .  
لبئس ما كانوا يصنعون ! وقالت اليهود : يد الله مغلولة .. غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ؛  
بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء - وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك  
طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب  
أطفأها الله . ويسعون في الأرض فساداً . والله لا يحب المفسدين » ..

إنها عبارات تنشئ صوراً متحركة ومشاهد حية - على طريقة التعبير القرآنية  
الفريدة (١) - ومن وراء القرون يملك قارئ هذه الآيات أن يشهد - بعين التصور -  
هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن من يهود - على الأرجح - فالسياق يتحدث عنهم ،  
وإن كان من الجائز أنه يعني كذلك بعض المنافقين في المدينة .. يشهدهم يحيئون للمسلمين  
فيقولون : آمنا .. ويشهد في جمعيتهم « الكفر » وهم يدخلون به ويخرجون ؛ بينما ألسنتهم  
تقول غير ما في الجعبة من كفر يحملونه داخلين خارجين !

ولعلمهم من يهود أولئك الذين كانوا يبيتون البلبلة وهم يقولون بعضهم لبعض : آمنوا  
بهذا القرآن وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . أي لعل المسلمين يرجعون عن  
دينهم بسبب هذه البلبلة والتشكيك الخبيث اللئيم .

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

## الجزء السادس

« والله أعلم بما كانوا يكتمون » ..

يقولها الله - سبحانه - لأنها الحقيقة ؛ ثم لكي يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم ، وحفظهم من كيد عدوهم ؛ وإحاطته علماً بهذا الكيد المكتوم ، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون !

ويمضي السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة تشهد وتلحظ من خلال التعبير :  
« وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يعملون » ..

والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقاً في الإثم والعدوان ، وأكل الحرام . وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع ، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد ؛ وتسقط القيم ؛ ويسيطر الشر .. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال ، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر .. إلى الإثم والعدوان قويهم وضعيفهم سواء .. فالإثم والعدوان - في المجتمعات الهابطة الفاسدة - لا يقتصران على الأقوياء ؛ بل يرتكبها كذلك الضعفاء .. فحتى هؤلاء ينساقون من تيار الإثم . وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء ؛ إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعاً . ولكن يعتدي بعضهم على بعض . ويعتدون على حرمة الله . لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم ؛ فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد ؛ والمسارعة فيها عمل هذه المجتمعات !  
وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام .. وكذلك أكلهم الحرام .. فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن !

« لبئس ما كانوا يعملون » !

ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة ؛ وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة ، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني .. سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت ؛ وعدم نهيمهم عن هذا الشر الذي يتسابقون فيه :

« لولا ينهائم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ! » ..

فهذه السمة - سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من

## سورة المائدة

إثم وعدوان - هي سمة المجتمعات التي فسدت وآذنت بالانهيار .. وبنو إسرائيل « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .. كما حكى القرآن الكريم ..

إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لها الأمر والنهي ، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر .

وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ووصف بني إسرائيل فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .. فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين .

أما هنا فينحى باللائمة على الربانيين والأخبار ، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت ؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله .

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين . فصلاح المجتمع أو فساد رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ والأمر كما قلنا من قبل في الظلال ، يقتضي « سلطة » تأمر وتنهي<sup>(١)</sup> ، والأمر والنهي أمر غير الدعوة . فالدعوة بيان ، والأمر والنهي سلطان . وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته في المجتمع ؛ فلا يكون مطلق كلام !  
وكنموذج من قولهم الإثم في أبشع صورته يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم : « وقالت اليهود يد الله مغلولة - غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء - » ..

وذلك من سوء تصور يهود الله سبحانه . فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك . وقد قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة ! وقالوا : يد الله مغلولة ، يعالون بذلك بخلهم ؛ فالله - بزعمهم - لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل .. فكيف ينفقون ؟ !

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر ؛ فاختراروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا :

(١) الجزء الرابع الطبعة الثانية من المنقحة : ص ٢٥ - ٢٦ .

## الجزء السادس

يد الله مغلوله !

ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم :

« غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » .

وكذلك كانوا ، فهم أبخل خلق الله بمال !

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم . وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب :

« بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ..

وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان .. شهادة باليد المبسوطة ، والفضل الغامر ، والعطاء الجزيل ، ناطقة بكل لسان . ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم ، وبالكنود والجحود ، وبالبداءة حتى في حق الله !

ويحدث الله رسوله ﷺ عما سيبدو من القوم ، وعما سيحل بهم ، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة ؛ وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث :

« وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » ..

فبسبب من الحقد والحسد ، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله ، سيزيد الكثيرون منهم طغياناً وكفراً . لأنهم وقد أبوا الإيمان ، لا بد أن يشتطوا في الجانب المقابل ؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً ، وطغياناً وكفراً . فيكون الرسول ﷺ رحمة للمؤمنين ، ووبالاً على المنكرين .

ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم ؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهباً ؛ ومن عودتهم بالحبيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة :

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » ..

وما تزال طوائف اليهود متعادية . وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند ؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح ! ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة . ففي خلال ألف وثلاثمائة عام .. بل من قبل الإسلام .. واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد .. ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه .

## سورة المائدة

مها تقم حولهم الأسناد . ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة ، التي يتحقق لها وعد الله .. فأين هي العصبة المؤمنة اليوم ، التي تتلقى وعد الله ، وتقف ستاراً لقدر الله ، ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء ؟

ويوم تقيء الأمة المسلمة إلى الإسلام : تؤمن بـه على حقيقته ؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته .. يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله .. واليهود يعرفون هذا ، ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد ؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك ، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض ، ويضربون - لا بأيديهم - ولكن بأيدي عملائهم - ضربات وحشية منكورة ؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة .. ولكن الله غالب على أمره . ووعد الله لا بد أن يتحقق :

«وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب اطفأها الله» .. إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود ، لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض ؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيه ويعفى عليه :

« ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » ..



### سعادة الدنيا .. والآخره :

وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى - قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء . لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخره . فهو منهج واحد للدنيا والآخرة ؛ للدنيا وللدين .. تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ؛ وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضاً من أغراض هذه الأرض .. واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء ، وفي الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق :

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ؛ ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .. إن هاتين الآيتين تقرران أصلاً كبيراً من أصول التصور الإسلامي ، ومن ثم فهما تمثلان

## الجزء السادس

حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية . ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل ، وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم ؛ والعقل البشري ، والموازين البشرية ، والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج ، بإزاء هذا الأمر الخطير ..

إن الله - سبحانه - يقول لأهل الكتاب - ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب - إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم - وهذا جزاء الآخرة . وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم - كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ووفرة النتاج وحسن التوزيع ، وصلاح أمر الحياة .. ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله - إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها « وكثير منهم ساء ما يعملون » .

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا ، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده - وإن كان هو المقدم وهو الأدموم - ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة .. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية .. يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ..

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا . إنما هو طريق واحد ، تصلح به الدنيا والآخرة ، فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة .. هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا ..

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب ، ولكنه كذلك - وتبعاً لذلك - منهج حياة إنسانية واقعية ، يقام ، وتقام عليه الحياة .. وإقامته مع الإيمان والتقوى - هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية ، وفيض الرزق ، ووفرة النتاج ، وحسن التوزيع ، حقياً لكل الناس جميعاً - في ظل هذا المنهج - من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلاً من الدنيا ؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلاً

## سورة المائدة

من سعادة الدنيا ، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا .. وهذه هي الحقيقة الغائبة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية .

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم ، بحيث أصبح الفرد العادي - وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة - لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقتين . ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع .. لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحى بهذا ..

حقيقة : إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله ، وعن منهجه للحياة ، اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع ، والكسب في مضمار المنافع الدنيوية ، أن يتخلوا عن طريق الآخرة ؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف ، الذي يحض عليه الدين . كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة ، والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع ، والكسب في مضمار المنافع ، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ، ولا مرضية لله سبحانه ..

ولكن .. تراها ضربة لازب ! ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس ؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؟

كلا .. إنها ليست ضربة لازب ! فالعداء بين الدنيا والآخرة ؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل .. بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا . إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ !

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا . وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا ؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي ..

هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية .. ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين

## الجزء السادس

تقوم الحياة على منهج الله الذي رضىه للناس .. فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة ، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة . والخلافة عمل وإنتاج ، ووفرة ونماء ، وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما يقول الله في كتابه الكريم .

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله ، بإذن الله ، وفق شرط الله .. ومن ثم يجعل العمل المنتج الثمر ، وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها - بل الخامات والموارد الكونية كذلك - هو الوفاء بوظيفة الخلافة . ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة - وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف - طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة ؛ بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ؛ ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجله ، كما يصور التعبير القرآني الجميل !

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض ، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له ، عاصياً لله ، ناكلاً عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها ، وهو يقول للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » . وهو يقول كذلك للناس : « وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » ، ومعتلاً لرزق الله الموهوب للعباد .. وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا !

والمنهج الإسلامي - بهذا - يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق . فلا يفوت على الإنسان دنياه لينال آخرته ، ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه . فهذا ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي .

هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة . وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله .. فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف .. إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة - في المنهج الإسلامي - لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان .. فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج ؛ وأن يتبغى في العمل والإنتاج وجه الله ، فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون ، ولا يأكل من سحت ، ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئاً يملكه - مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع - والمنهج يسجل للفرد عمله - في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات - عبادة لله



## سورة المائدة

يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة .. ويربط المنهج بين الفرد وربّه رباطاً أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ؛ ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة ، وفي العام الواحد ثلاثين يوماً بصوم رمضان ، وفي العمر كله بحج بيت الله . وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي . إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة . وهي قربي لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج ، الذي ينظم أمر الحياة كلها ، ويتولى شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم . ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي تتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل ، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق .. وليست هذه الشعائر التعبدية أموراً منفصلة عن شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء ، والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض ، وتقرير سلطانه في حياة الناس .. إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج ، المعين على أداء شطره الآخر .. وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلاً للوفرة والفيض . كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين ..

إن التصور الإسلامي ، وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه ، لا يقدم الحياة الآخرة بديلاً من الحياة الدنيا - ولا العكس - إنما يقدمها معاً في طريق واحد ، ويجهد واحد . ولكنها لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة - دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله ، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج - ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل .

والتصور الإسلامي - وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه - لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى ، بديلاً من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية .. وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ؛ بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا - كما يتصور بعض السطحين في هذا الزمان! - فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي - والمنهج الإسلامي - فريضة الخلافة في الأرض . والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى ، تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس .. وهذه

وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الآخروي معا ؛ والطريق هو الطريق ، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم . والتي منها يقوم في أوهام الواهين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ، ولا يجمعوا بينها في تصور أو في واقع .. لأنها لا تجتمعان !..

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس ، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي ، وبين النجاح في الحياة الدنيا ، والنجاح في الحياة الأخرى .. إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية ! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله ، وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها ، معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه ..

وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم في الحياة الدنيا ، فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأكسى ..

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر ، من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه ، إذا هم آثروا اطراح الدين كله ، على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة ، والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي ! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم ، يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ، ولا تطيق الفراغ والخواء . وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية ، أو فلسفية ، أو فنية .. على الإطلاق .. لأنها جوعة النزعة إلى إله ..

وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر ، إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله ، وحاولوا معها مزاوله الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصورات ، وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله ، وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني ، والسلوك الديني . مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازن السائدة في هذا المجتمع المنكود .

وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء ، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية ، أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية .. وتتصور - أو يصور لها أعداء البشرية - أن الدين لله ، وأن الحياة للناس ! وأن الدين عقيدة وشعور

## سورة المائدة

وعبادة وخلق ، والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل !  
وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة .. ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء .. لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة ، بل ينسق ..  
ولا يجوز أن نخدعنا ظواهر كاذبة ، في فترة موقوتة ، إذ نرى أمماً لا تؤمن ولا تتقي ، ولا تقيم منهج الله في حياتها ، وهي موفورة الخيرات ، كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء ..

إنه رخاء موقوت ، حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت . وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني .. والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى :  
تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم ، مما يجعل المجتمع حافلاً بالشقاء ، وحافلاً بالأحقاد ، وحافلاً بالخوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة . وهو بلاء على رغم الرخاء ! ..

وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والارهاب ونشر الخوف والذعر ، لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع .. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام !

وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره - إن عاجلاً أو آجلاً - إلى تدمير الحياة المادية ذاتها . فالعمل والإنتاج والتوزيع ، كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق . والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان ! .

وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تحتاج أمم العالم - وبخاصة أشدها رخاء مادياً - مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال . ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج ، وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء ! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحاً كافياً يلفت الأنظار !

وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة ؛ في هذا العالم المضطرب ؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة .. وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ..

## الجزء السادس

ولم ينتشر الموت بالسكينة وانفجار المنخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء !  
وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار - وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي - وليس هذا إلا مثلاً للآخرين ، في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني ؛ وافتراق الدنيا والآخرة ، وافتراق الدين والحياة ؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله ، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس ؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس !

وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة ، نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس ، وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض ؛ فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب - ولكل جماعة من الناس - أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ، وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة ؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي - بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة - وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان .

ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية .. فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة .. فضلاً على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ؛ ويرفع كل قيم الحياة ؛ ويقوم كل موازين الحياة .. فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي ، وكل شيء يحيى تبعاً له ، ومنبثقاً منه ومعتمداً عليه . . ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق .

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة .. كل أولئك ثمرته للإنسان ، وللحياة الإنسانية . فالله - سبحانه - غني عن العالمين .. وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس ، وجعلها مناط العمل والنشاط ؛ ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها ، وعده باطلاً لا يقبل ، وحابطاً لا يعيش ، وذاهباً مع الريح .. فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة .. ولكن لأنه - سبحانه - يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهج ..

في الحديث القدسي : عن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه

- تبارك وتعالى - أنه قال :

« يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا .. يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم .. يا عبادي ، كلّم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .. يا عبادي ، كلّم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .. يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم .. يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي ، إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر .. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله ؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .. ( رواه مسلم ) .

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله .. فهي كلها لحسابنا نحن .. لحساب هذه البشرية ... في الدنيا والآخرة جميعاً ... وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعاً ...

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول : إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب . فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل . وما أنزل إليهم من ربهم - وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة - فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم تفرآن .. أولى بالشرط الذين يقولون : إنهم مسلمون .. فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص : الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل ، والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم .. وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد .. وقد انتهى إليه كل دين قبله ؛ ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره .. أو يقبل من أحد غيره .

فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم .. وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم ، وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ؛

ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ..  
إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلاً من الجوع والمرض والخوف والشظف  
الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي - أو الذي كان إسلامياً بتعبير أصح -  
وشرط الله قائم ؛ والطريق إليه معروف .. لو كانوا يعقلون ..

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ؛ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ  
رِسَالَاتَهُ ؛ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ »<sup>٦٧</sup> . قُلْ  
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ  
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ،  
فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »<sup>٦٨</sup> . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ، وَالصَّابِغُونَ ،  
وَالنَّصَارَى .. مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا .. فَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »<sup>٦٩</sup> .

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ  
رَسُولٌ بِمَا لَا يَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ »<sup>٧٠</sup> . وَحَسِبُوا أَلَّا  
تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا ، كَثِيرٌ  
مِّنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ »<sup>٧١</sup> .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ :  
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ ، رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ  
عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »<sup>٧٢</sup> . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ  
قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا  
يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »<sup>٧٣</sup> . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ

## سورة المائدة

وَيَسْتَغْفِرُونَ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>٧٤</sup>؟ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ. انْظُرْ كَيْفَ بُنَيْنَ لَهُمُ الْآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ<sup>٧٥</sup>. قُلْ: أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ<sup>٧٦</sup>؟ قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ<sup>٧٧</sup>.

« لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ<sup>٧٨</sup>. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ<sup>٧٩</sup>! تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا. لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ، أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ<sup>٨٠</sup>. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ<sup>٨١</sup> ».

### الصدع بالحق

يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - وكشف الانحراف فيما يعتقدون، وكشف السوء فيما يصنعون؛ في تاريخهم كله - وبخاصة اليهود - كما يمضي في تقرير نوع العلاقة بينهم وبين الرسول ﷺ والجماعة المسلمة؛ وواجب الرسول ﷺ في تعامله معهم وواجب المسلمين.. ذلك إلى تقرير حقائق أساسية ضخمة في أصول التصور الاعتقادي؛ وفي أصول النشاط الحركي للجماعة المسلمة، تجاه المعتقدات المنحرفة وتجاه المنحرفين.

لقد نادى الله - سبحانه - الرسول ﷺ وكلفه تبليغ ما أنزل إليه من ربه.. كل ما أنزل إليه.. لا يستبقي منه شيئاً، ولا يؤخر منه شيئاً مراعاة للظروف

## الجزء السادس

والملايسات ، أو تجنباً للاصطدام بأهواء الناس . وواقع المجتمع .. وإن لم يفعل فما يكون قد بلغ ..

ومن هذا الذي كلف الرسول ﷺ تبليغه أن يجابه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. هكذا قاطعة جازمة صريحة جاهرة .. وأن يعلن كذلك كفر اليهود بنقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء ، وكفر النصارى بقولهم : إن الله هو المسيح عيسى بن مريم ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . كما يعلن أن المسيح - عليه السلام - أنذر بني إسرائيل عاقبة الشرك ، وتحريم الله الجنة على المشركين .. وأن بني إسرائيل لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم بعصيانهم وعدوانهم . وينتهي الدرس بكشف موقف أهل الكتاب من مظاهرة المشركين على المسلمين . وإعلان أن هذا ناشئ من عدم إيمانهم بالله والنبي . وأنهم مدعوون إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ وإلا فما هم بالمؤمنين .

ونأخذ بعد هذا الإجمال في مواجهة النصوص بالتفصيل :



« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس . إن الله لا يهدي القوم الكافرين .. قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين . إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى .. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

إنه الأمر الجازم الحاسم للرسول ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه كاملاً ، وألا يجعل لأي اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحق .. هذا ، وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة .. والله يتولى حمايته وعصمته من الناس ، ومن كان الله له عاصماً فماذا يملك له العباد المهازِيل !

إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم ! إنها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة ؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء ؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل ؛ فإن كلمة الحق في العقيدة لا تملق الأهواء ؛ ولا تراعي مواقع الرغبات ؛ إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في قوة وفي نفاذ ..



## سورة المائدة

وكلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكان القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى .. وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التي لا استعداد فيها للإيمان ؛ وهي القلوب التي قد يطمع صاحب الدعوة في أن تستجيب له لو داهنها في بعض الحقيقة !  
« إن الله لا يهدي القوم الكافرين » ..

وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة .. والهدى والضلال إنما مناطها استعداد القلوب وتفتحها ، لا المداينة ولا الملاطفة على حساب كلمة الحق أو في كلمة الحق !

إن القوة والحسم في إلقاء كلمة الحق في العقيدة ، لا يعني الخشونة والفظاظة ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة — وليس هنالك تعارض ولا اختلاف بين التوجيهات القرآنية المتعددة . والحكمة والموعظة الحسنة لا تجافيان الحسم والفصل في بيان كلمة الحق . فالوسيلة والطريقة إلى التبليغ شيء غير مادة التبليغ وموضوعه . والمطلوب هو عدم المداينة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة ، وعدم اللقاء في منتصف الطريق في الحقيقة ذاتها . فالحقيقة الاعتقادية ليس فيها أنصاف حلول .. ومنذ الأيام الأولى للدعوة كان الرسول ﷺ يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة في طريقة التبليغ ، وكان يفاصل مفاصلة كاملة في العقيدة ، فكان مأموراً أن يقول : « يا أيها الكافرون : لا أعبد ما تعبدون .. » فيصفهم بصفاتهم ؛ ويفاصلهم في الأمر ، ولا يقبل أنصاف الحلول التي يعرضونها عليه ، ولا يدهن فيدهنون ، كما يودون ! ولا يقول لهم : إنه لا يطلب إليهم إلا تعديلات خفيفة فيما هم عليه ، بل يقول لهم : إنهم على الباطل المحض ، وإنه على الحق الكامل .. فيصدع بكلمة الحق عالية كاملة فاصلة ، في أسلوب لا خشونة فيه ولا فظاظة .. وهذا النداء ، وهذا التكليف ، في هذه السورة :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك — وإن لم تفعل فما بلغت رسالته — والله يعصمك من الناس .. إن الله لا يهدي القوم الكافرين » ..

يبدو من السياق — قبل هذا النداء وبعده — أن المقصود به مباشرة هو مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه ، وبحقيقة صفاتهم التي يستحقونها بما هم عليه .. ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء .. ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان .. ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم . ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة وأتباع دين :

## الجزء السادس

« قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ... » .

وحينما كلف الرسول ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على شيء من الدين والعقيدة والإيمان .. بل ليسوا على شيء أصلاً يرتكن عليه ! حينما كلف الرسول ﷺ بمواجهتهم هذه المواجهة الحاسمة الفاصلة ، كانوا يتلون كتبهم ؛ وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية ؛ وكانوا يقولون : إنهم مؤمنون .. ولكن التبليغ الذي كلف رسول الله ﷺ أن يواجههم به ، لم يعترف لهم بشيء أصلاً بما كانوا يزعمون لأنفسهم ، لأن « الدين » ، ليس كلمات تقال باللسان ؛ وليس كتباً تقرأ وترتل ؛ وليس صفة تورث وتدعى . إنما الدين منهج حياة . منهج يشمل العقيدة المستسرة في الضمير ، والعبادة الممثلة في الشعائر ، والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج .. ولما لم يكن أهل الكتاب يقيمون الدين على قواعده هذه ، فقد كلف « الرسول » ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على دين ؛ وليسوا على شيء أصلاً من هذا القبيل !

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، مقتضاها الأول الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ﷺ فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه . وصفة محمد وقومه عندهم في التوراة وعندهم في الإنجيل - كما أخبر الله وهو أصدق القائلين - فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم : ( سواء كان المقصود بقوله : « وما أنزل إليهم من ربهم » هو القرآن - كما يقول بعض المفسرين أو هو الكتب الأخرى التي أنزلت لهم كزبور داود ) .. نقول إنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم إلا أن يدخلوا في الدين الجديد ، الذي يصدق ما بين يديهم ويهيم عليه .. فهم ليسوا على شيء - بشهادة الله سبحانه - حتى يدخلوا في الدين الأخير .. والرسول ﷺ قد كلف أن يواجههم بهذا القرار الإلهي في شأنهم ؛ وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم ؛ وإلا فما بلغ رسالة ربه .. ويا له من تهديد !

وكان الله - سبحانه - يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة ، وبهذه الكلمة الفاصلة ، ستؤدي إلى أن تزيد كثيراً منهم طغياناً وكفراً ، وعناداً ولجاجاً .. ولكن هذا لا يمنع من أمر الرسول ﷺ أن يواجههم بها ؛ وألا يأسى على ما يصيبهم من الكفر والطغيان والضلal والشروء بسبب مواجهتهم بها ؛ لأن حكته - سبحانه - تقتضي أن يصدع بكلمة الحق ؛ وأن تترتب عليها آثارها في نفوس الخلق . فيتهدي من يتهدي عن بينة ، ويضل

## سورة المائدة

من يضل عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة :  
« وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين » ..

وكان الله - سبحانه - يرسم للداعية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ؛ ويطلعه على حكمة الله في هذا المنهج ؛ ويسلي قلبه عما يصيب الذين لا يهتدون ، إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغياناً وكفراً ؛ فهم يستحقون هذا المصير البائس ؛ لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق ؛ ولا خير في أعماقها ولا صدق . فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق ؛ ليظهر ما كمن فيها وما بطن ؛ ولتجهر بالطغيان والكفر ؛ ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين !  
ليسوا على شيء ..

ونعود إلى قضية الولاء والتناصر والتعاون بين المسلمين وأهل الكتاب - على ضوء هذا التبليغ الذي كلفه رسول الله ﷺ وعلى ضوء نتائجه التي قدر الله أن تكون في زيادة الكثيرين منهم طغياناً وكفراً .. فماذا نجد ؟  
نجد أن الله - سبحانه - يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وحتى يدخلوا في الدين الأخير تبعاً لهذه الإقامة كما هو بديهي من دعوتهم إلى الإيمان بالله والنبي . في المواضع الأخرى المتعددة .. فهم إذن لم يعودوا على « دين الله » ولم يعودوا أهل « دين » يقبله الله .  
ونجد أن مواجعتهم بهذه الحقيقة قد علم الله أنها ستزيد الكثيرين منهم طغياناً وكفراً .. ومع هذا فقد أمر رسوله أن يواجههم بها دون مواربة . ودون أسى على ما سيصيب الكثيرين منها !

فإذا نحن اعتبرنا كلمة الله في هذه القضية هي كلمة الفصل - كما هو الحق والواقع - لم يبق هنالك موضع لاعتبار أهل الكتاب .. أهل دين .. يستطيع « المسلم » أن يتناصر معهم فيه للوقوف في وجه الإلحاد والملحدين ؛ كما ينادي بعض المخدوعين وبعض الخادعين ! فأهل الكتاب لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ؛ حتى يعتبرهم المسلم « على شيء » وليس للمسلم أن يقرر غير ما قرره الله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .. وكلمة الله باقية لا تغيرها الملابسات والظروف !

وإذا نحن اعتبرنا كلمة الله هي كلمة الفصل - كما هو الحق والواقع - لم يكن لنا أن

## الجزء السادس

نحسب حساباً لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة ، في هياجهم علينا ، وفي اشتداد حربهم لنا ، ولم يكن لنا أن نحاول كسب مودتهم بالاعتراف لهم بأنهم على دين نرضاه منهم ونقرهم عليه ، وتتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عنه - كما ندفع الإلحاد عن ديننا الذي هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس ..

إن الله - سبحانه - لا يوجهنا هذا التوجيه . ولا يقبل منا هذا الاعتراف . ولا يغفر لنا هذا التناصر ، ولا التصور الذي ينبعث التناصر منه . لأننا حينئذ نقرر لأنفسنا غير ما يقرر ؛ ونختار في أمرنا غير ما يختار ؛ ونعترف بعقائد محرفة أنها « دين » إلهي ، يجتمع معنا في آصرة الدين الإلهي .. والله يقول : إنهم ليسوا على شيء ؛ حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وهم لا يفعلون !

والذين يقولون : إنهم مسلمون - ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم - هم كأهل الكتاب هؤلاء ، ليسوا على شيء كذلك . فهذه كلمة الله عن أهل أي كتاب لا يقيمونه في نفوسهم وفي حياتهم سواء . والذي يريد أن يكون مسلماً يجب عليه - بعد إقامة كتاب الله في نفسه وفي حياته - أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه . وأن دعواهم أنهم على دين ، يردها عليهم رب الدين . فالمفصلة في هذا الأمر واجبة ؛ ودعوتهم إلى « الإسلام » من جديد هي واجب « المسلم » الذي أقام كتاب الله في نفسه وفي حياته . فدعوى الإسلام باللسان أو بالورثة دعوى لا تفيد إسلاماً ، ولا تحقق إيماناً ، ولا تعطي صاحبها صفة التدين بدين الله ، في أي ملة ، وفي أي زمان !

وبعد أن يستجيب هؤلاء أو أولئك ؛ وقيموا كتاب الله في حياتهم ؛ يملك « المسلم » أن يتناصر معهم في دفع غائلة الإلحاد والملحدين ، عن « الدين » وعن « المتدينين » .. فأما قبل ذلك فهو عبث ؛ وهو تمييع ، يقوم به خادع أو مخدوع !

إن دين الله ليس راية ولا شعاراً ولا وراثه ! إن دين الله حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء . تتمثل في عقيدة تعمر القلب ، وشعائر تقام للتعبد ، ونظام يصرف الحياة .. ولا يقوم دين الله إلا في هذا الكل المتكامل ؛ ولا يكون الناس على دين الله إلا وهذا الكل المتكامل متمثل في نفوسهم وفي حياتهم .. وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تمييع للعقيدة ، وخداع للضمير ؛ لا يقدم عليه « مسلم » نظيف الضمير !

وعلى « المسلم » أن يجهر بهذه الحقيقة ؛ ويفاصل الناس كلهم على أساسها ؛ ولا عليه مما ينشأ عن هذه المفصلة . والله هو العاصم . والله لا يهدي القوم الكافرين ..

## سورة المائدة

وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن الله ؛ ولا يكون قد أقام الحجة لله على الناس ، إلا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة؛ ووصف لهم ما هم عليه كما هو في حقيقته، بلا مجاملة ولا مDAHنة .. فهو قد يؤذهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء ، وأن ما هم عليه باطل كله من أساسه ، وأنه هو يدعوهم إلى شيء آخر تماماً غير ما هم عليه .. يدعوهم إلى نقلة بعيدة ، ورحلة طويلة ، وتغيير أساسي في تصوراتهم وفي أوضاعهم وفي نظامهم وفي أخلاقهم .. فالتناس، يجب أن يعرفوا من الداعية أين هم من الحق الذي يدعوهم إليه .. « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة » ..

وحين يجمع صاحب الدعوة ويتمم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق ، وعن الفاصل الحاسم بين حقه وباطلهم .. حين يفعل صاحب الدعوة هذا - مراعاة للظروف والملابسات، وحذرا من مواجهة واقع الناس لذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم - فإنه يكون قد خدعهم وآذاهم ، لأنه لم يعرفهم حقيقة المطالب منهم كله ، وذلك فوق أنه يكون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه ! إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ، ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها.. إن الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة. أما الأسلوب فيتبع مقتضيات القائمة ، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة ..

ولقد ينظر بعضنا اليوم - مثلا - فيرى أن أهل الكتاب هم أصحاب الكثرة العددية وأصحاب القوة المادية ، وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين في الأرض، وهم أصحاب كلمة مسموعة ، في الشؤون الدولية . وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة وأصحاب قوة مدمرة . وينظر الذين يقولون : إنهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل إليهم .. فيتعاضده الأمر ، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة ، ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء ! وأن يبين لهم « الدين » الحق !

وليس هذا هو الطريق .. إن الجاهلية هي الجاهلية - ولو عمت أهل الأرض جميعاً - وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق . وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثرة الضلال ؛ ولا ضخامة الباطل .. فالباطل ركام .. وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة : أنهم ليسوا على شيء .. كذلك ينبغي أن تستأنف .. وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعث الله رسوله ﷺ وقاداه :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته - والله يعصمك من الناس . إن الله لا يهدي القوم الكافرين . قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » .  
الدين عند الله ..

وينتهي هذا المقطع بالبيان الأخير عن « الدين » الذي يقبله الله من الناس ، أيا كانت وصفهم وعنوانهم وما كانوا عليه قبل بعثة النبي الأخير ؛ والذي يلتقي عليه المتفرقون في الملل والنحل فيما غير من التاريخ :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى .. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا .. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

والذين آمنوا هم المسلمون . والذين هادوا هم اليهود . والصابئون هم في الغالب تلك الفئة التي تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول ﷺ وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة ، ومنهم من العرب أفراد معدودون . والنصارى هم أتباع المسيح - عليه السلام . والآية تقرر أنه أيا كانت النحلة ، فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا - ومفهوم ضمنا في هذا الموضع ، وتصريحاً في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير - فقد نجوا : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. ولا عليهم بما كانوا فيه قبل ذلك ؛ ولا بما يحملون من أسماء وعنوانات .. فالهم هو العنوان الأخير ..

وهذا الذي تقرر أنه مفهوم من الآية ضمناً يعتبر من « المعلوم من الدين بالضرورة » . فمن بديهيات هذه العقيدة ، أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين ، وأنه أرسل إلى البشر كافة ، وأن الناس جميعاً - على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم واعتقاداتهم وأجناسهم وأوطانهم - مدعوون إلى الإيمان بما جاء به ، وفق ما جاء به ؛ في عمومته وفي تفصيلاته . وأن من لا يؤمن به رسولاً ، ولا يؤمن بما جاء به إجمالاً وتفصيلاً ، فهو ضال لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين ، ولا يدخل في مضمون قوله تعالى : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » :

وهذه هي الحقيقة الأساسية « المعلوم من الدين بالضرورة » التي لا يجوز للمسلم الحق أن يجمع فيها أو يتمتع ؛ أمام ضخامة الواقع الجاهلي الذي تعيش فيه البشرية . والتي لا يجوز للمسلم أن يغفلها في إقامة علاقاته بأهل الأرض قاطبة ؛ من أصحاب الملل والنحل . فلا يحمله ضغط الواقع الجاهلي على اعتبار أحد من أصحاب هذه الملل والنحل على « دين »

## سورة المائدة

يرضاه الله ؛ ويصلح أن يتناصر معه فيه ويتولاه !  
إنما الله هو الولي « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »  
مهما تكن ظواهر الأمور .. ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا - على أساس هذا  
الدين الذي هو وحده الدين - فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. لا خوف عليهم في الدنيا  
ولا في الآخرة .. لا خوف عليهم من قوى الباطل والجاهلية المتراكمة . ولا خوف عليهم  
من أنفسهم المؤمنة العاملة الصالحة .. ولا هم يحزنون ...

### انحراف بني إسرائيل

بعد ذلك يأخذ السياق في عرض طرف من تاريخ بني إسرائيل - اليهود - يتجلى فيه  
كيف أنهم ليسوا على شيء ؛ ويتبين معه ضرورة تبليغهم الدعوة ، ومخاطبتهم بالإسلام ،  
ليأوا منه إلى دين الله . ثم لتبين حقيقتهم التي لم تتغير ؛ وتكشف للمسلمين هذه الحقيقة ،  
فتسقط في أعينهم قيمة يهود ، وتنفر قلوبهم من الولاء لهم والتناصر معهم ، وهم على مثل  
هذه الحال في أمر الحق والدين :

« لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل ، وأرسلنا إليهم رسلاً . كلما جاءهم رسول بما لا تهوى  
أنفسهم : فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة . فعموا وصبوا ، ثم تاب  
الله عليهم ، ثم عموا وصبوا - كثير منهم - والله بصير بما يعملون » ..

إنه تاريخ قديم افليس موقفهم من رسول الإسلام ﷺ بالأول ولا بالآخر ! إنهم مردوا  
على العصيان والإعراض ؛ ومردوا على النكول عن ميثاق الله ؛ ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم  
لا دين الله ، ولا هدى الرسل ؛ ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله :  
« لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً . كلما جاءهم رسول بما لا تهوى  
أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » ..

وسجل بني إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالكذب والإعراض ؛ حافل بالقتل  
والاعتداء ! حافل بتحكيم الشهوات والأهواء .

ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بني إسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل ..  
لعلها تتقي أن تكون كبني إسرائيل ؛ ولعلها تحذر مزالق الطريق ، أو لعل الواعين منها  
الموصولين بالله يدركون هذه المزالق ؛ أو يتأسون بأنبياء بني إسرائيل حين يصادفون ما  
صادفوا وأجيال من ذراري المسلمين تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل ، حين طال  
عليهم الأمد فقست قلوبهم ؛ فتحكم الهوى ؛ وترفض الهدى ، وتكذب فريقاً من الدعاة

## الجزء السادس

إلى الحق ، وتقتل فريقاً ؛ كما صنع بغاة بني إسرائيل ، في تاريخهم الطويل !  
لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها ؛ وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ، ولن يأخذهم بالعقاب . حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله ؛ وغروراً منهم بأنهم « شعب الله المختار » !

« وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصبوا » ...  
طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئاً ؛ وطمس على مسامعهم فلا يسمعون شيئاً ..

« ثم تاب الله عليهم » ..  
وأدركهم برحمته .. فلم يرعوا ولم ينتفعوا :  
« ثم عموا وصبوا . كثير منهم » ..  
« والله بصير بما يعملون » ..  
وهو مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم .. وما هم بمفلتين ..  
ويكفي أن يعرف الذين آمنوا هذا التاريخ القديم عن يهود ، وهذا الواقع الجديد ؛  
لتنفر قلوبهم المؤمنة من ولائهم ، كما نفر قلب عبادة بن الصامت ؛ فلا يتولاهم إلا المتأفقون  
من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول !

### انحراف النصارى

ذلك شأن اليهود من أهل الكتاب .. فأما شأن النصارى فيبينه السياق القرآني في  
حسم وتوكيد يتمشيان مع طبيعة السورة ؛ وطبيعة الموقف الذي تعالجه ..  
ولقد سبق في سياق السورة وصف الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم بالكفر .  
فالآن يكرر هذا الوصف ، سواء لمن قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، ومن قالوا : إن الله هو  
المسيح بن مريم . مع ذكر شهادة عيسى - عليه السلام - عليهم بالكفر ، وتحذيره لهم  
من وصف أحد بالألوهية إلا الله - سبحانه - واعترافه بأن الله هو ربه وربهم على السواء .  
ثم تحذير الله لهم في النهاية من المضي فيما هم عليه من الكفر ، بسبب هذه المقولات التي لا  
يقول بها المؤمنون بالله وبيدنه الصحيح :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم . وقال المسيح : يا بني إسرائيل  
اعبدوا الله ربي وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما  
للظالمين من أنصار .. لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد .



## سورة المائدة

وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ والله غفور رحيم . ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون . قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً؟ والله هو السميع العليم ؟ قل : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ..

ولقد سبق أن بينا - باختصار - كيف ومتى تسربت هذه المقولات المنحرفة من المجامع إلى العقيدة النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام رسولاً من عند الله ؛ كإخوانه الرسل ؛ الذين جاءوا بكلمة التوحيد خالصة ؛ لا يشوبها ظل من الشرك ؛ لأن الرسائل كلها ، جاءت لتقرير كلمة التوحيد في الأرض وإبطال كلمة الشرك .

فالآن نذكر - باختصار كذلك - ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك ، على النحو الذي أسلفناه ..

« جاء في كتاب « سوسنة سليمان » لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني : أن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهي أصل الدستور الذي بينه الجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد : آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماوات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى . وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء ، والذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس و الصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء للملكه . والإيمان بالروح القدس ، الرب المحيي المنبثق من الأب ، الذي هو مع الابن يسجد له ، ويمجده ، الناطق بالأنبياء »

« وقال الدكتور « بوست » في تاريخ الكتاب المقدس : طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب ، والله الابن ، والله الروح القدس . فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن . وإلى الابن الفداء . وإلى الروح القدس التطهير<sup>(١)</sup> . »

ونظراً لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد ، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث ،

(١) نقلاً عن كتاب « محاضرات في النصرانية » للأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة .

## الجزء السادس

فإن الكتاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلي في هذه القضية ، التي يرفضها العقل ابتداء . ومن ذلك ما كتبه القس « بوتر » في رسالة « الأصول والفروع » حيث يقول : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض . وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية<sup>(١)</sup> » .

والله - سبحانه - يقول : إن هذه المقولات كلها كفر . وهي تتضمن - كما رأينا - القول بالوهمية المسيح عليه السلام ؛ والقول بأن الله ثالث ثلاثة .. وليس بعد قول الله - سبحانه - قول . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم . وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار .. »

وهكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاى إلى النار . ونسوا قول المسيح - عليه السلام - :

« يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم .. »

حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء ، لربوبية الله الواحد الذي ليس له من شركاء .

ويستوفي القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة .. »

ويقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله :

« وما من إله إلا إله واحد .. »

ويهددهم عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه :

« وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم .. »

والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها الله بالكفر الصراح .

ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب :

« أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم .. »

---

(١) نقلا عن كتاب « محاضرات في النصرانية » للأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة .

## سورة المائدة

ليبقى باب التوبة مفتوحاً ؛ وليطمعهم في مغفرة الله ورحمته ، قبل فوات الأوان ...  
ثم واجههم بالمنطق الواقعي القويم ، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم . مع التعجيب  
من أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح :

« ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يا كلان  
الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات . ثم انظر أنى يؤفكون .. »

وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح — عليه السلام — وأمه الصديقة . وهي  
خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين ، ودليل على بشرية المسيح وأمه — أو على ناسوته  
بتعبيرهم اللاهوتي — فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لامراء فيها . ولا يكون إلهاً من  
يحتاج إلى الطعام لعيش . فالله حي بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل  
إلى ذاته — سبحانه — أو يخرج منها شيء حادث كالطعام ..

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان يعقل ، فإنه  
يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجيب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين :

« انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون .. »

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح عليه السلام ، مصدر تعب لمن أرادوا  
تأليه — على الرغم من تعاليمه — فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية  
المسيح عليه السلام وناسوته — كما ذكرنا ذلك من قبل باختصار<sup>(١)</sup> .

واستطردوا في ذلك المنطق القرآني المبين من زاوية أخرى يجيء هذا الاستنكار :

« قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ؛ والله هو السميع  
العليم » ؟ ..

ويختار التعبير بكلمة « بما » بدل كلمة « من » في هذا الموضع قصداً ، ليدرج  
« المخلوقات » التي تعبد كلها — بما فيها من العقلاء — في سلك واحد . لأنه يشير إلى ماهيتها  
المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية . فيدخل عيسى ، ويدخل روح القدس ،  
وتدخل مريم ، كلهم في « ما » لأنهم بماهيتهم من خلق الله . ويلقي هذا التعبير ظله كذلك  
في هذا المقام ؛ فيبعد أن يكون أحد من خلق الله مستحقاً للعبادة ؛ وهو لا يملك لهم  
ضرراً ولا نفعاً :

« والله هو السميع العليم » ..

(١) ص ١١٨ — ١٢١ من هذا الجزء .

## الجزء السادس

الذي يسمع ويعلم ؛ ومن ثم يضر وينفع . كما أنه هو الذي يسمع دعاء عباده وعبادتهم إياه ، ويعلم ما تكنه صدورهم وما يكن وراء الدعاء والعبادة .. فأما ماسواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء ..

وينهي هذا كله بدعوة جامعة ، يكلف رسول الله ﷺ أن يوجهها إلى أهل الكتاب : « قل : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً . وضلوا عن سواء السبيل » .

فمن الغلو في تعظيم عيسى - عليه السلام - جاءت كل الانحرافات . ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم ، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أرسل به المسيح ، فبلغه بأمانة الرسول ، وهو يقول لهم : « يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » ..

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب ؛ ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذي خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ..

### حقائق كبيرة

ونقف من هذا المقطع الذي انتهى بهذا النداء أمام ثلاث حقائق كبيرة ، يحسن الإمام بها في إجمال :

الحقيقة الأولى : هي حقيقة هذا الجهد الكبير ، الذي يبذله المنهج الإسلامي ، لتصحيح التصور الاعتقادي ؛ وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة ؛ وتنقيته من شوائب الوثنية والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب ؛ وتعريف الناس بحقيقة الألوهية ؛ وإفراد الله - سبحانه - بخصائصها ، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص .. وهذا الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادي ، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل الحاسم ، يدل على أهمية هذا التصحيح . وأهمية التصور الاعتقادي في بناء الحياة الإنسانية وفي صلاحها ، كما يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنساني ، ولكل ارتباط إنساني كذلك .

والحقيقة الثانية : هي تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؛ أو قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ؛ فلم يعد المسلم - بعد قول الله سبحانه - قول .

## سورة المائدة

ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله والله سبحانه يقول : إنهم كفروا بسبب هذه المقولات .

وإذا كان الإسلام - كما قلنا - لا يكره أحداً على ترك ما هو عليه مما يعتقد لا اعتناق الإسلام فهو في الوقت ذاته لا يسمي ما عليه غير المسلمين ديناً يرضاه الله . بل يصرح هنا بأنه كفر ولن يكون الكفر ديناً يرضاه الله .

والحقيقة الثالثة : المترتبة على هاتين الحقيقتين ، أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذي يدين بوحداية الله كما جاء بها الإسلام ، ويعتقد بأن الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ﷺ هو وحده « الدين » عند الله .. ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل « الأديان » أمام الإلحاد كلاماً لا مفهوم له في اعتبار الإسلام ! فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل ، لم يعد هناك مجال للالتقاء على ما سواها . فكل شيء في الحياة يقوم أولاً على أساس العقيدة .. في اعتبار الإسلام ..

### مواقف الانبياء من بني إسرائيل

وفي النهاية يجيء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بني إسرائيل من كفار بني إسرائيل ، على مدى التاريخ ؛ ممثلاً في موقف داود وموقف عيسى - عليهما السلام - وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل ، واستجاب الله له . بسبب عصيانهم وعدوانهم ، وبسبب انحلالهم الاجتماعي ، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه ؛ وبسبب توليهم الكافرين ؛ فباءوا بالسخط واللعة ، وكتب عليهم الخلود في العذاب .

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ! ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون » ..

وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعة عريق . وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإتقاذهم ، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله ؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعة على بني إسرائيل .

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة ؛ وهم الذين لم يتحاكموا

## الجزء السادس

إلى شريعة الله - كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها - وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرون كل رسول ويعزرونه ويتبعونه :  
« ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ..

فهي المعصية والاعتداء ؛ يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء .  
وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء .. كما فصل الله في كتابه الكريم .  
ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل . ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها ؛ وأن يسكت عنها المجتمع . ولا يقابلها بالتناهي والنكير :  
« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ! » ..

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين .  
فالأرض لا تخلو من الشر ؛ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبح عرفاً مصطلحاً عليه ؛ وأن يصبح سهلاً يجترأ عليه كل من يهم به .. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات ؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه ؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه .. عندئذ ينزوي الشر ، وتنحسر دوافعه . وعندئذ يتأسك المجتمع فلا تنحل عراه . وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة ؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة . ولا تصبح هي الطابع العام !

والمنهج الإسلامي - بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي - في صورة الكراهية والتنديد ، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب ؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية ، قبل أن تصبح ظاهرة عامة ؛ ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق ، وحساساً تجاه الاعتداء عليه ؛ ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها ، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء .. ولا يخافوا لومة لائم . سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم ؛ أو الأغنياء المتسلطين بالمال ؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذى ؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى . فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علواً أم سفلاً سواء .

والإسلام يشدد في الوفاء بهذه الأمانة ؛ فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكنت عليه ؛ ويجعل الأمانة في عنق كل فرد ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة .

## سورة المائدة

روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءؤهم فلم ينتهوا فجالسهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم . فضرب الله بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ... ( ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ) . وكان الرسول ﷺ متكئاً فجلس ، فقال : « ولا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » .

وروى أبو داود - بإسناده - عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « أن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ، ثم قال : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » - إلى قوله « فاسقون » ثم قال « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا - أو تقصرنه على الحق قصرا - » .

فليس هو مجرد الأمر والنهي ، ثم تنتهي المسألة ، إنما هو الإصرار ، والمقاطعة ، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء .

وروى مسلم - بإسناده - عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ؛ فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه .. وذلك أضعف الإيمان » .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن عدى بن عميرة قال - سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم - وهم قادرون على أن ينكروه - فلا ينكروه . فإذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة » .

وروى أبو داود والترمذي - بإسناده - عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » ..

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى ؛ لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها - وهو يرى المنكر يقع من غيره - : وأنا مالي ؟ ! وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع ، بحيث لا يقول أحد - وهو يرى الفساد يسري ويشيع - وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى ؟ ! وهذه الغيرة على حرمة الله ، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله .. هذا كله هو قوام الجماعة

## الجزء السادس

المسلمة الذي لا قيام لها إلا به ..

وهذا كله في حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله ؛ ومعرفة تكاليف هذا الإيمان . وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله ؛ ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة . وإلى الجهد في أخذ العقيدة بقوة ، والجهد لإقامة المنهج الذي ينبثق منها في حياة المجتمع كله .. فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانونه من شريعة الله ؛ ويقيم حياته كلها على منهجه ؛ هو المجتمع الذي يسمح للمسلم أن يزاوِل حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ بحيث لا يصبح هذا عملاً فردياً ضائعاً في الخضم ؛ أو يجعله غير ممكن أصلاً في كثير من الأحيان ! كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرجاء الأرض ؛ والتي تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد في شأن أحد ؛ وتعتبر الفسق والفجور والمعصية « مسائل شخصية » ! ليس لأحد أن يتدخل في شأنها .. كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه ، ويعقد الألسنة ، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان ..

إن الجهد الأصيل ، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولاً لإقامة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذي يقوم على منهج الله .. قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية ، شخصية وفردية ؛ عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله ؛ وحين تطفئ الجاهلية ، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله ؛ وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله . فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس ، وأن تنبت من الجذور ؛ وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله في الأرض .. وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً يرتكن إلى أساس .

وهذا يحتاج إلى إيمان . وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاليه في نظام الحياة . فالإيمان على هذا المستوى هو الذي يجعل الاعتماد كله على الله ؛ والثقة كلها بنصرته للخير . مهما طال الطريق . واحتساب الأجر عنده ، فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الأرض ، ولا تقديراً من المجتمع الضال ، ولا نصرة من أهل الجاهلية في أي مكان !

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم . مجتمع يعترف ابتداءً بسلطان الله ،



## سورة المائدة

ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الأحيان ، ومن شيوخ الإثم في بعض الأحيان .. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » .. فهو « إمام » ولا يكون إماماً حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله ؛ ويتحكم شريعته . فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له : « إمام » إنما يقول عنه الله - سبحانه - « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ..

فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله ، فالمنكر الأكبر فيها والأهم ، هو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات .. هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار ، قبل الدخول في المنكرات الجزئية ، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر ، وفرع عنه ، وعرض له ..

إنه لا جدوى من ضياع الجهد .. جهد الخيرين الصالحين من الناس .. في مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول .. منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الألوهية ، ورفض ألوهية الله ، برفض شريعته للحياة .. لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال . على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول : إن هذا منكر ؛ فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك كلا ! ليس هذا منكرأ لقد كان منكرأ في الزمان الخالي ! والدنيا « تتطور » ، والمجتمع « يتقدم » وتختلف الاعتبارات !

فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال ، ولا بد من قيم معترف بها تقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان ؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم - وهي متقلبة لا تثبت على حال ؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها ، وإلى خضم لا معالم فيه !

فلا بد ابتداءً من إقامة الميزان .. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتاً لا يتأرجح مع الأهواء ..

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله .

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف - ابتداءً - بسلطان الله ؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله ؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعو إلى منهج الله ؟ ألا يكون جهداً ضائعاً ، وعبثاً هازلاً ، أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف

## الجزء السادس

وتنهي عن المنكر ، في جزئيات وجانبيات من شؤون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟!

إنه لا بد من الاتفاق مبدئياً على حكم ، وعلى ميزان ، وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء ..

لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها في جهة واحدة ، لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان !

وإن الإنسان ليرثي أحياناً ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » في الفروع ؛ بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ؛ ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مقطوع !

فما غناء أن تنهي الناس عن أكل الحرام مثلاً في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا ؛ فيستحيل ماله كله حراماً ؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال .. لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله . لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن الفسق مثلاً في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة - إلا في حالة الإكراه - ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله .. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام . وحتى هذه لا يعاقب فيها بحمد الله . لأنه لا يعترف ابتداءً بحاكمية الله ؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن سب الدين ؛ في مجتمع لا يعترف بسلطان الله ؛ ولا يعبد فيه الله . إنما هو يتخذ أرباباً من دونه ؛ ينزلون له شريعته وقانونه ؛ ونظامه وأوضاعه ، وقيمه وموازينه . والساب والمسبوب كلاهما ليس في دين الله .. إنما هما وأهل مجتمعهما طراً في دين من ينزلون لهم الشرائع والقوانين ؛ ويضعون لهم القيم والموازين ؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال ؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر - فضلاً عن أن يكون النهي عن الصغائر - والكبيرة الكبرى لا نهى عنها ..

## سورة المائدة

كبيرة الكفر بالله ، برفض منهجه للحياة !؟

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء « الطيبون » جهدهم وطاقتهم واهتمامهم .. إنه - في هذه المرحلة - ليس أمر تتبع الفرعيات - مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله . فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه . فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ؛ تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع ؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة .. فكل جهد في الفروع ضائع ؛ وكل محاولة في الفروع عبث .. والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات ..

والرسول ﷺ يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » ..

وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم ؛ ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم ؛ فيبقى أضعف الإيمان ؛ وهو تغييره بقلوبهم ؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، إن هم كانوا حقاً على الإسلام !

وليس هذا موقفاً سلبياً من المنكر - كما يلوح في بادئ الأمر - وتعبير الرسول ﷺ بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته . فإنكار المنكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر .. إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له ، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له ويعترف به .. وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر ، وإقامة الوضع « المعروف » في أول فرصة تسنح ، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة .. وهذا كله عمل إيجابي في التغيير .. وهو على كل حال أضعف الإيمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان ! أما الإستسلام للمنكر لأنه واقع ، ولأن له ضغطاً - قد يكون ساحقاً - فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان !

هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل :

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ! » ..

**اليهود .. وولاية الكافرين**

ثم يمضي السياق إلى نهاية هذا المقطع في الحديث عن بني إسرائيل ، وهو نهاية هذا

## الجزء السادس

الجزء . فيصف حالهم على عهد الرسول ﷺ وهي حالهم في كل زمان وفي كل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا ، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة . وعلة ذلك - مع أنهم أهل كتاب - أنهم لم يؤمنوا بالله والنبي ، وأنهم لم يدخلوا في دين الله الأخير .. فهم غير مؤمنين . ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين :

« ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون » ..

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود - عهد رسول الله ﷺ - ينطبق على حالهم اليوم وغداً ، وفي كل حين . كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم .. مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن ، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آن ..

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ؛ ويؤلبونهم على المسلمين ؛ « ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .. كما حكى عنهم القرآن الكريم . وقد تجلّى هذا كله على أتمّه في غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ؛ إلى اللحظة الحاضرة .. وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيراً إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدّين !

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين ! وهم يتعاونون مع الوثنية المشتركة كذلك ، كلما كانت المعركة مع المسلمين ! حتى و « المسلمون » لا يمثلون الإسلام في شيء . إلا في أنهم من ذراري قوم كانوا مسلمين ! ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين ؛ ومن ينتمون إليه ، ولو كانوا في انتماؤهم مدعين ! وصدق الله العظيم : ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا » ..

« لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون » .. فهذه هي الحصيلة التي قدمتها لهم أنفسهم .. إنها سخط الله عليهم . وخلودهم في العذاب . فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقديمة تقدمها لهم أنفسهم ؛ وبأها من ثمرة مرة . ثمرة توليهم للكافرين !

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله : في الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين ؛ وأعدائه الذين يتولون الكافرين !

## سورة المائدة

وما الدافع ؟ ما دافع القوم لتولي الذين كفروا ؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبي :  
« ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون » ..

هذه هي العلة .. إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي .. إن كثرتهم فاسقة .. إنهم يتجانسون  
— إذن — مع الذين كفروا في الشعور والوجهة ؛ فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون  
المؤمنين ..

وتبرز لنا من هذا التعقيب القرآني ثلاث حقائق بارزة :  
الحقيقة الأولى : أن أهل الكتاب جميعاً — إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ — غير  
مؤمنين بالله . لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير . ولم ينف القرآن الكريم عنهم الإيمان بالنبي  
وحده . بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك . « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه  
ما اتخذوهم أولياء » وهو تقرير من الله — سبحانه — لا يقبل التأويل . مها تكن دعواهم  
في الإيمان بالله .. وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية كما سلف  
في آيات هذا الدرس وفي غيرها من آيات القرآن الكريم .

والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب جميعاً مدعوون إلى الدخول في دين الله ، على لسان  
محمد ﷺ فإن استجابوا فقد آمنوا ، وأصبحوا على دين الله . وإن تولوا فهم كما وصفهم الله .  
والحقيقة الثالثة : أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين ، في شأن من الشؤون .  
لأن كل شأن من شؤون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين .

ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك ؛ وبجماية  
أرواحهم وأموالهم وأعراضهم في دار الإسلام ؛ وبتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة  
ما تكون ؛ وإلى دعوتهم بالحسن إلى الإسلام ومجادلتهم بالحسن كذلك . والوفاء لهم  
— ما وفوا — بعهدهم ومسألتهم للمسلمين .. وهم — في أية حال — لا يكرهون على شيء في  
أمر الدين ..

هذا هو الإسلام .. في وضوحه ونصاعته . وفي بره وسماحته ..

والله يقول الحق . وهو يهدي السبيل .

انتهى الجزء السادس  
ويليه الجزء السابع مبدوءاً بقوله تعالى :  
لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

# فهرس الايات

آية	آية	صفحة
١٧٠	إلى ١٤٨	٨ تفسير آيات في سورة النساء من
١٧٥	= ١٧١	= = = = = ٣٦
		= الآية الاخيرة في سورة النساء ٤٩
١١	إلى ١	= آيات في سورة المائدة من ٦٥
٢٦	= ١٢	= = = = = ٩٦
٤٠	= ٢٧	= = = = = ١١٩
٥٠	= ٤١	= = = = = ١٤١
٦٦	= ٥١	= = = = = ١٩٦
٨١	= ٧٦	= = = = = ٢١٣

# فهرس الدروس

الجزء السادس — سورة النساء

صفحة	
٣	المقدمة
٩	اشاعة الثقة
١٢	وحدة الرسل
١٤	تعنت اليهود
٢٢	اليهود .. ورسالة محمد ﷺ
٢٣	العقل .. والوحي
٢٨	التبليغ .. واجب الرسل والأتباع
٣٠	رحمة الله بالإنسان
٣٥	بيان للناس
٣٦	جولة مع النصارى
٣٨	رسول الله وكلمته
٤١	الوهية .. وعبودية
٤٣	كلمة الفصل
٤٥	برهان من الله
	سورة المائدة
٥١	هذا القرآن
٥٧	دور الأمة المسلمة
٦٠	موقف الأمة المسلمة تجاه المعسكرات
٦٢	طابع التقرير والحسم

صفحة	
٦٣	شريعة خالدة
٦٦	ضوابط للحياة
٦٩	حلال .. وحرام
٧٤	محرمات من الانعام
٧٧	نعمة من الله بإكمال الدين
٨٣	طيبات .. أحلها الله
٨٦	طيبات الروح
٨٨	مقدمات الصلاة
٩٠	تذكير بميثاق الله
٩١	عدل .. مع الشنآن
٩٤	جزاء المؤمنين .. وجزاء الكافرين
٩٧	أهل الكتاب .. ونقض المواثيق
١٠٣	النصارى .. والتوحيد
١٠٤	دعوة أهل الكتاب للإسلام
١٠٨	مناقشة لعقائد النصارى
١١٤	على ابواب الأرض المقدسة
١٢٤	قصة ابني آدم
١٢٩	عقوبة الفساد في الأرض
١٣٢	تقوى الله ..
١٣٤	عقوبة السرقة
١٤٣	الحاكمية .. أخص خصائص الألوهية
١٤٩	يهود .. ومنافقون
١٥٤	الحكم بما أنزل الله في التوراة
١٦١	الحكم بما أنزل الله في الإنجيل
١٦٣	الحكم بما أنزل الله في القرآن
١٧١	ولاء المسلم لعقيدته
١٧٤	... فإنه منهم
١٨٥	حزب الله .. هو الغالب



صفحة	
١٩٢	.. قضية عقيدة
١٩٤	ينقمون منا الإيمان
٢٠٤	سعادة الدنيا .. والآخرة
٢١٤	الصدق بالحق
٢٢١	الدين عند الله ..
٢٢٢	انحراف بني اسرائيل
٢٢٣	انحراف النصارى
٢٢٧	حقائق كبيرة
٢٢٨	مواقف الأنبياء من بني اسرائيل
٢٣٤	اليهود .. وولاية الكافرين







Bibliotheca Alexandrina



0675038